أبو الحسن علي الحسني النّدْويّ

في مسيرة الحياة

الجزء الثالث

دار القلم
دمشق


بسم الله الرحمن الرحيم

فِي مَسِيرَةِ الحَيَاةِ

الطبعة الأولى
١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م

تُطلب جميع كتبنا من :
دار القلم ـ دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ ـ ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية ـ بيروت ـ ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير ـ جدة : ٢١٤٦١ ـ ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد وآله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد؛ فهذا هو الجزء الرابع لكتابي (في مسيرة الحياة)، في أردو، وقد كنت ألَّفتُ الجزء الثالث مرغماً، وذلك لأن الترجمة العربية التي كانت تحتوي على الجزءين الأولين للكتاب بالأردية حملت رقم الأول خطأ، فطلب مني الناشر الفاضل أن أقوم بتأليف الجزء الثاني لكي لا يبدو الكتاب ناقصاً، فجمعتُ المواد في اللغة الأردية أوّلاً، لأنّ الكتاب كان أصلاً بالأردية، فأتى الجزء الثالث إلى حيز الوجود بطبيعة الحال، ووصل إلى أيدي الراغبين فيه، وقد طبع في الهند وباكستان في آن واحد سنة ١٩٨٨م، وكنت أتردد كثيراً في تأليف الجزء الرابع، وكانت نيتي إنهاء هذه السلسلة بالجزء الثالث، وما كنت أجد في نفسي حافزاً إلى مواصلة هذه السلسلة.

بيد أن الإخوة والمعارف ألحّوا في رسائلهم على مواصلة سرد أحداث فترة حياتي، وزاد من الإلحاح من الإخوة والمحبين ما وقع في بلادي الهند بصفة خاصة وفي العالم العربي الإسلامي بصفة عامة، من أحداث جليلة ووقائع مهمة، وتطوُّرات حاسمة، وما عرض من قضايا شائكة، ومآسي دامية، بعثت علي الاهتمام والتفكير والدراسة، وفي الوقت نفسه أُتيحت لي فرصة

للقيام برحلات متعددة إلى الدول الشرقية والغربية، وحضور ندوات ومؤتمرات محليّة، إقليمية ودولية، ذات أهمية بالغة، ووجدت فرصة سانحة لإبداء الرأي، وإلقاء المحاضرات، كما انتهزت الفرصة المواتية للتحدث إلى المشاركين فيها، من أماكن بعيدة، وتبادل وجهات النظر مع الزعماء والقادة والمسؤولين في داخل الهند وخارجها.

فخطر ببالي أن هذه الأحداث التي وقعت في بلادي، والتطورات التي مرّ بها العالم العربي، وذكريات الرحلات التي قمت بها رغم ضعف صحتي، ومداولات الندوات والمؤتمرات التي عقدت في الدول المختلفة حول القضايا المهمة الحاسمة لو لم تُسجَّل وتُقيّد، ولم تُدوَّن بأمانة ودقّة ـ فإن جزءاً كبيراً من تاريخ الملة الإسلامية، وتاريخ هذه البلاد سيبقى خافياً على الجيل الجديد من المؤرخين والكُتّاب الذين يعيشون في هذه الأوضاع ولم يعرفوها عن كثب ولم يجربوها، ويلتبس عليهم لمرور الزَّمن، وتتضارب وجهات النظر، ويعزّ عليهم الوصول إلى خلفيات الوقائع والأحداث، وردود الفعل والتفاعلات، وأصناف الأفكار والاتّجاهات، والعواطف التي كانت تختلج في النفوس، والارتسامات التي كانت تتلاطم في الأذهان والعقول للطبقة المثقفة الواعية في هذا العصر الذي نحن بصدده.

يعرف المُتتبّعون للأحداث والمراقبون للتاريخ مراقبة واقعية ناقدة حُرَّة، أنّ معظم كتب التاريخ في الزمن القديم كانت تدور حول الحكومات والبيئات السياسية العليا، وتركز على تنصيب الملوك وعزلهم، ووقائع الحروب والصراعات، والغلبة والانكسار؛ فلها منهج مُقرّر، وطراز معيَّن، وهي أشبه بالتاريخ الشخصي منه بالتاريخ العام وتاريخ العصر والزمن، ومن هذه الناحية لا تعتبر هذه الكتب كتباً تاريخية من الناحية الفنية، وإنما هي كتب تاريخية: اصطلاحياً أو عرفياً.

فإن هذه الكتب القديمة لا تشخص نبضات القلب، وهواجس النفس، ولا تلقي الضوء على مراحل تطور العقل، واضطراب الروح في ذلك العصر،

والدوافع والحركات للقضايا التي كانت تواجه ذلك المجتمع، التي هزت كيان البلاد بكاملها، وأطارت نوم من يعيش فيها من الرجال المثقفين الواعين، وسببت لهم قلقاً متواصلاً واضطراباً دائماً؛ كما أن هذه الكتب لا تساعد القرّاء على أن يقيسوا حجم الجهود الهائلة التي بُذلت لتغيير الوضع، والوسائل التي اتُّخذت لمقاومة الأخطار التي كانت تُحدِق بالجميع، والتضحيات التي قُدِّمت لإيجاد المناخ الهادئ الرزين في ذلك العهد، والأسباب والعوامل التي تفاعلت لنجاح تلك الجهود.

إن هذه الكتب التاريخية القديمة كانت لا تقدر على إبراز ملامح ذلك العصر بكل ما يتعلق به من أفكار، وآراء، وأحاسيس، ومشاعر، وعواطف، وانفعالات، وعوامل خلقية ونفسية، والتقاليد والعادات المتبعة، والميول والنزعات التي كانت تختلج في النفوس، ولا يدّعي أحد من هؤلاء المؤرخين أنه بذل هذا المجهود، وعرض التاريخ من هذه الزوايا، وإنما كان همه الوحيد: سرد الحكايات، ونقل الروايات، وتسجيل الأحداث كما وقعت بترتيبها الزمني بدون نقد وتمحيص، وقراءة ما بين السطور والبحث عن البواعث، والمحركات الكامنة.

فإذا أراد أحد أن يعرف خفقان القلب، وخلجان النفس، وقلق الروح في ذلك الزمن، وأن يعرف الحركات والدوافع للمنهج الذي اختير لمواجهة القضايا الناشئة فيه؛ لا تغنيه هذه الكتب، ولا تشفي غُلّته، ولا تهديه إلى ضالّته؛ ولا يجد ذلك إلا في مجالس الأتقياء والعارفين، وما جرى فيها من الأحاديث، وما أُلقي فيها من المواعظ، وما سُرد في حكاياتها من الوقائع، وكما تفيده دراسة المذكرات الشخصية التي سُجِّلت في ذلك العصر إذا أمكن الحصول عليها، ورسائل الكُتَّاب والدعاة والعلماء والصلحاء، الذين يملكون ضميراً حيّاً، وشعوراً يقظاً، وقلباً متألماً، ويتصفون بالبسالة والشجاعة والمروءة وبُعد النظر؛ والرحلات التي قام بها السيّاحون الذين يسجّلون

انطباعاتهم بالصدق والصراحة، والدرك والأمانة، ولا يحكون فقط ما تلقَّوه من حفاوة بالغة وترحيب حار، وما شاهدوه من المباني الشامخة والحدائق الغنَّاء، والحقول الخضراء، والأشجار الباسقة، والورود الزاهية، والأماكن البهيجة، خلال رحلاتهم وجولاتهم؛ وإنما يكشفون القناع عن ذلك المجتمع، ويصورون الحياة في ذلك العصر بجميع خصائصها من الطمأنينة والاضطرابات، والحب والكراهية، والخير والشر، والتضامن والتشتت، والأمن والسلامة والقتال والنضال؛ ولا يمكن أن يكتمل تاريخ ملة أو عهد أو مجتمع دون أن توضع هذه الأمور موضع الاعتبار، وتنال نصيبها الأوفر من الدراسة والتحليل.

إن الجزءين لـ(مسيرة الحياة) بالعربية، وهذا الجزء الثالث ـ الذي هو بين أيدي القرّاء الآن ـ تسدّ الحاجة، وتملأ هذا الفراغ إلى حدّ ما، وتساعد على تحقيق هذا الهدف؛ من حيث أنها تقدِّم صورة حيّة ناطقة متحركة للمراكز والمؤسسات المهمة في بلادي الهند بصفة خاصة، وفي العالم العربي والإسلامي بصفة عامة، وتجسّ نبضات القلب، وهواجس النفس، واضطراب الروح في ذلك العصر، وتدل على القضايا التي يعاني منها المسلمون، وعلى الأخطار التي كانت تحدق بالأحوال الشخصية الإسلامية، وعلى العوائق التي كانت تعترض في سبيل الحفاظ عليها، وعلى الجهود التي بُذلت لإزالة العوائق، والتغلّب على المشاكل ومعالجة الأخطار، وعلى مدى ما وصلت إليه الهند من الانهيار الخلقي، والتدهور الاجتماعي، والأزمة الاقتصادية، وسوء الظن، والتذمُّر، والشكوك، والشبهات، والتلاوم، وفقدان الثقة بالقادة، ومدى ما تعود إلى الأمة الإسلامية من مسؤولية إزاء ذلك.

وكيف كان يفكر من كان يفكر، وماذا كان يجتهد من كان يجتهد، وكم من اضطرابات طائفية حدثت في الهند، وما هي أبعادها، وكم كانت ضخامة أضرارها، وما هو الثمن الذي دفعته الأمة الإسلامية التي كانت عُرضة لها رئيسياً، وما هي الجهود التي بُذلت لإطفاء نيرانها.

وما هي الأحداث التي أدّت إلى هدم المساجد وإحراقها، وما هي الأخطاء التي وقع فيها المسلمون، وسوء التدبير، خلال محاولاتهم لصيانة المساجد ووقاية الأرواح والممتلكات؛ التي أثارت العاطفة الدينية التي لا يوجد لها نظير في التاريخ القديم في قلوب كثير من أفراد الطائفة الهندوكية، الذين كانوا قد فقدوا صلتهم بديانتهم، وفترت حماستهم، وخمدت حميتهم لها، أو كان هذا البعد يزداد ويتعمق، فعادت إليهم حميتهم وحماستهم، وانبعثت فيهم المطامح، وثارت عزائم لإحياء ديانتهم وتقاليدهم، وكان قد فشل في إحيائها ـ بل في إبقائها ـ زعماؤهم الكبار، رغم جهودهم المتواصلة.

وما هي الآراء المخلصة الواقعية، التي عرضت على المسؤولين في الحكومة نحو هذه القضايا وتجاه هذه الآراء، ثم كيف كان سقوط القيادات السياسية، وما هي الأسباب التي كانت وراء هذا السقوط، وما هو الموقف الذي كان ينبغي للمسلمين أن يختاروه، وما هي الآراء التي عَرَضها المفكرون الإسلاميون المخلصون على الحكومة الجديدة، وما هي التوجيهات التي قدموها للمسلمين، لانتهاز هذه الفرصة؛ وكيف وُفِّقوا للاستمرار في نشاطاتهم الدعوية، والفكرية، والعلمية، والإدارية، في مثل هذه الأوضاع السياسية والقضايا المهمة الحاسمة؛ والأخطار الجسيمة المهددة بالأمة الإسلامية، التي كانت تكفي لتشغل أصحاب الضمائر الحية، والقلوب الخفَّاقة، والعاملين في مجال الدعوة الإسلامية؛ وكيف منحت لهم فرص القيام برحلات طويلة إلى الدول الشرقية والغربية، للمشاركة في الحفلات التي عقدت فيها، بالإضافة إلى ما كان لهم من علاقة قوية مباشرة بأوضاع البلاد ومشاكلها.

ثم ما هي الجهود التي بذلت لترشيد الصحوة الإسلامية، وعرض الإسلام في صورته الأصيلة في الدول الغربية، واستخدام القلم لتحقيق الأهداف النبيلة السامية، وتقديم الأدب كأداة للبناء والإصلاح، لا كأداة للتدمير والإفساد.

بالإضافة إلى كل ذلك، يجد القُرَّاء في هذا الكتاب ذكريات الشخصيات التي لحقت بالرفيق الأعلى، ممن كان لهم تأثير على الأحداث، ودور في مجريات الأمور، وكان لوفياتهم دوي في الأوساط السياسية والدينية والعلمية، أو كانت لهم صلة شخصية أو عائلية بالمؤلف.

هكذا يساعد هذا الكتاب الذي لا يملك قيمة علمية، أدبية، تأليفية وتحليلية كبيرة، على فهم ما حدث في الهند في النصف الثاني للقرن العشرين؛ من أوضاع وأحداث، وعواطف وأحاسيس، وتفاعلات وارتسامات.. بل على التفاعل مع نبضات القلب، وهواجس النفس، واضطرابات الروح أيضاً؛ ويشعر القارئ كأنه يعيش في ذلك العصر، وفي خضمِّ تلك الأحداث، ويوفّر للمؤرخين والمحلّلين الجدد معلومات ووثائق لم تتناولها الأقلام، ولم تنشرها الصحف والمجلات، إلا الجزء الضئيل منها؛ وكذلك يستطيع الوطنيون الصادقون والعاملون المخلصون أن يتعظوا بما جاء في هذه الحلقات الأربع من الحوادث والوقائع، ويحترسوا من الوقوع في الأخطاء؛ وأن تنشأ فيهم الواقعية، والاعتدال والاتزان، وبُعْدُ النظر، ورحابة الصدر، التي هي من أشد حاجات هذه البلاد، وهذه الملة التي تعيش بها.

أدعو الله سبحانه وتعالى أن ينفع الناس بهذا الجزء، الذي تجرَّأت على تأليفه، رغم شعوري بعجزي وتقصيري، وأن لا يعود هذا العمل خائباً، وهذه المحاولة فاشلة، وما ذلك على الله بعزيز[١].

* * *

(١) قد قام بعملية التعريب، ونقل المواد الكتابية من أردو إلى العربية، المحروس السيد جعفر مسعود الحسني الندوي، ابن الأستاذ واضح رشيد الحسني الندوي ـ الأستاذ بدار العلوم ندوة العلماء، ورئيس تحرير صحيفة (الرائد) وقد أحسن وأجاد، أطال الله بقاءه ووفّقه لما يحب ويرضى.
وقد جاء في هذا الجزء ما احتوى عليه الجزء الرابع والخامس من الأصل الأردي لـ(مسيرة الحياة).

ذكريــات

عام ١٩٨٨

حادثة استشهاد الرئيس محمد ضياء الحق

نعت الإذاعات الدولية بصفة عامة، وإذاعة باكستان بصفة خاصة نبأ استشهاد رئيس دولة باكستان الأبيّ الغيور الجنرال محمد ضياء الحق، الذي استشهد في حادثة تحطُّم طائرة باكستانية، كانت تقل عدداً وجيهاً من كبار ضباط القوات الباكستانية المسلحة، والسفير الأمريكي في إسلام آباد، بالإضافة إلى الرئيس المغفور له؛ وكان ذلك صدمة عنيفة هزت العالم الإسلامي كله.

وقع هذا الحادث المؤلم في الليل، فأخفى زملائي هذا النبأ المؤلم عني طول الليل، خوفاً مما يترك هذا الحادث من تأثير سيِّىء على قلبي وذهني، وقد تتأثر صحتي المتدهورة فعلاً به؛ لأنهم كانوا يعرفون ما كان للمرحوم في قلبي من حب واحترام وتقدير، وما كان يتبوّأ في نفسي من منزلة رفيعة ومكانة عالية، وكم كنت أرى بقاءه على منصب الرياسة في دولة باكستان عنصراً حاسماً لمواصلة تقدم البلاد إلى المنهج الإسلامي للحكم، وإقرار الأمن والسلام في المنطقة، وتطبيق الشريعة المطهرة، وللحفاظ على شرف البلاد وكرامتها؛ فلما استيقظت في اليوم التالي حسب عادتي، فاجأني أحد أفراد عائلتي بهذا النبأ المحزن، فكان صدمة شخصية لي، وشعرت بخسارة مليّة عظيمة بفقد هذه الشخصية، التي قلما يجود بها الزمان.

وبدأت أفكر في ضخامة هذه الخسارة الفادحة، وأبعادها، وملابساتها من كل ناحية من نواحيها، وكنت أخشى في تلك الأيام أن لا تكون في هذه الحادثة الأليمة يد لجماعة سرّية، أو لفرد من أفراد تلك البلاد، وأن لا يكون

وراءها مؤامرة سياسية، أو عملية تخريبية، لأنه لو كان ذلك، لكان كُفراناً لنعمة عظيمة من نعم الله سبحانه وتعالى، ونكراناً للجميل، وجحوداً لفضل عظيم، أو إضاعة فرصة غالية لا تتاح إلا نادراً.

ولا شك أن حادثة من حوادث التخريب أو سلوكاً فردياً لنكران الجميل قد يوقع البلاد بكاملها في محنة وأزمة، لا تخرج منها إلا بعد مدة طويلة، ومعاقبة أليمة؛ وأن البحث عن الجديد، والحرص على تغيير النظام، والتسرُّع في الأمور والانفعال، وكفران النعمة، ونكران الجميل؛ قصة تعاد وتكرر في تاريخنا الإسلامي، وتشاهَد مظاهرها في مختلف الدول الإسلامية.

كنتُ أشرتُ في مقال كتبته عن وفاة الرئيس الجنرال محمد ضياء الحق إلى الاحتمال والخطر الذي كنت أخشاه، وقد تحقق الآن، وأخشى أن الذين يعارضونه، وينتقدونه ويشكُّون فيه، سيندمون على سلوكهم معه في حياته، ويلومون أنفسهم.. ولا ينفع الندم بعد فوات الأوان.

* * *

ندوة علمية حول المدائح النبوية
لرابطة الأدب الإسلامي في أورنج آباد

عقدت رابطة الأدب الإسلامي العالمية ندوة علمية حول المدائح النبوية في رحاب جامعة (كاشف العلوم) الواقعة في مدينة (أورنج آباد) في ٢٥/٢٦/٢٧ من صفر عام ١٤٠٩ هـ، الموافق ٧/٨/٩ من أكتوبر سنة ١٩٨٨م، فكانت مناسبة رائعة فريدة من نوعها لأهمية الموضوع، وتأثيره على القلوب، وكان من الطبيعي أن تقبل النفوس عليه، وتُعنى الصحف والمجلات بنشر تقاريره، ويحضر عدد كبير من العلماء والأدباء والشعراء، ومن مختلف أنحاء الهند وخارجها، فكانت الندوة مناسبة روحانية خاصة، تهبُّ فيها نفحات الحب لذات الرسول ﷺ، والهيام به؛ وشعر الناس عامة بهذه النفحات طيلة فترة انعقاد الاجتماعات للندوة، وقد أشرتُ في كلمتي الافتتاحية إلى أهمية هذه الندوة، فقلت:

« إن هذه الندوة التي نشارك فيها اليوم تحمل ميزة كبيرة، وهي أنها تنتمي إلى ذات الرسول ﷺ، الذي له المنَّة العظيمة على الأدب والشعر والمدنية والفلسفة، بالإضافة إلى منّته على النوع البشري والجيل البشري والبقاء البشري ».

وقلت: « إنَّ للنسبة مكانة عالية في العقيدة والنفس، فنسبة الكعبة ترجع إلى الله سبحانه وتعالى، فكان من أبسط معجزاتها أن أبرهة حينما تجاسر على أن يتوجه إلى بيت الله الحرام وأراد هدمه وتسويته بالأرض، ناله ـ بجنوده

وأفياله ـ غضب من الله، فأصبح كعصف مأكول. ومُزِّقت في التاريخ رسائل كثيرة، لكن الرسالة التي كان وجهها رسول الله ﷺ إلى ملك فارس، حينما خرقت بيده، فقال رسول الله ﷺ : «إن مملكته تمزق مثل ذلك»، وحدث ما قال».

أشرت في هذه الندوة أيضاً إلى حقيقة ثابتة، وهذه الحقيقة هي أن بقاء الإسلام في هذه البلاد ورقيّه يرجع إلى حد كبير إلى الارتباط بذات النبي ﷺ، فإن أرض هذه البلاد سُمّيت بأكّالة الأمم، وقد ذابت فيها ديانات وثقافات، ولكن الإسلام هو الدين الوحيد الذي بقي فيها، رغم العواصف الهوجاء، واحتفظ بشخصيته وقوته، وتأثيره على النفوس؛ وملامحه الذاتية الرفيعة، وسِرُّ بقائه في هذه البلاد، وصموده أمام هذه العواطف، يرجع إلى شعورها الإسلامي، وعاطفتها الدينية، وارتباطها بذات الرسول ﷺ، وحبها الغامر له، وهذه حقيقة تاريخية لا ينكرها إلاّ جاحد.

وقلت: «إن أدباء الهند وشعراءها مثّلوا دوراً رئيسياً بارزاً في دعم هذه الصلة وتوطيدها بذات الرسول ﷺ».

وتحدث في الحفلة الافتتاحية الدكتور عدنان علي رضا النحوي عضو رابطة الأدب الإسلامي، الذي قدم من الرياض للمشاركة في هذه الندوة، فأكد أهمية الانتماء الإسلامي، وإيجاد الرؤية الإسلامية العامة إزاء القضايا المختلفة في العالم الإسلامي، كقضية فلسطين، وأفغانستان.

ثم تحدث زميله الأستاذ محمد حسن بريغش عضو رابطة الأدب الإسلامي من الرياض وصرح في كلمته أنَّ الأدباء العرب أغفلوا المدائح النبوية بصفة عامة، بل حطّوا من شأنها، لأن أدباء العرب كانوا ينتمون إلى الكتلة العلمانية بصفة عامة، وقد كانت المدائح النبوية تحمل كل عنصر من عناصر التأثير الأولى، بل تفوق النماذج الأدبية الأخرى في التأثير على النفوس، ثم نوّه بالإلياذة الإسلامية المعروفة «بمجد الإسلام» لأحمد محرم، التي ألّفها تلبية لطلب الأستاذ

محب الدين الخطيب. ثم قدم الأستاذ رياض الدين الفاروقي مدير جامعة (كاشف العلوم) كلمة ترحيبية، نيابة عن رئيس لجنة الاستقبال، غلام محمد بتني.

وقدَّم الأستاذ محمد الرابع الندوي ـ سكرتير رابطة الأدب الإسلامي للمنطقة غير العربية ـ تقريراً موجزاً، استعرض فيه نشاطات الرابطة ومنجزاتها وما أحرزته من الرقي في مدة ثلاثة أعوام رغم قلة المواد.

وكان موضوع المقال الذي كنت أعددته لهذه المناسبة الكريمة الحبيبة: نماذج السيرة النبوية في المدائح النبوية في اللغة الأردية والفارسية، وصرحت في هذا المقال مشيراً إلى ما عُدَّه في المدائح النبوية التي كانت أُلِّفت في الأردية والفارسية، من منن الإسلام على الإنسانية، وما تركت البعثة المحمدية من تأثير عميق بعيد المدى على العقيدة والخلق والحضارة، والمدنية والعلم والفن، وعقل العالَم البشري.

إن المدائح النبوية في الهند تمتاز عن غيرها في القوة والتأثير، والرقة والعذوبة؛ لأنه تتجلّى فيها العاطفة أقوى وأروع، وتتفجر منابع القلب والحب والهيام، وتجيش عواطف الوفاء والشوق والحنان، لبُعد شعرائها عن مهد الإسلام ومبعث النبي الكريم ﷺ.

وأشرت في نهاية المقال إلى أن كثيراً من شعراء المدائح النبوية زلَّت أقدامهم في هذا الطريق، وأفرطوا لحبهم الغامر، وانحرفوا عن الاعتدال، وتخطَّوا حدود الشريعة في بعض الأحيان؛ وانتقدهم على ذلك من كان له معرفة صحيحة بعقيدة التوحيد، وطبيعة الإسلام، وتعاليم الشريعة بالحيطة والحذر، واعتبروا المؤثرات الخارجية، والتلوث بالأفكار والمعتقدات غير الإسلامية، والفلسفات المجاورة والمعاصرة، والأدب الحر، غير الملتزم بالعقيدة، عاملاً رئيسياً لهذا الانحراف، ونوَّهوا بالمدائح النبوية التي لا تتجاوز حدود عقيدة التوحيد الخالص، ولم تتعدَّ حدود الشريعة، وقدمت في هذا المقال نماذج من الشعر الأردي.

وتُقدَّر أهمية هذا الموضوع في نفوس المسلمين بالنسبة العالية للحضور، فقد حضر للاشتراك في هذه الندوة وفدٌ وجيهٌ من باكستان، كان يرأسه البروفيسور محمد أشرف سليماني، رئيس القسم العربي في جامعة (بشاور) سابقاً، ومن كبار تلاميذ العلاَّمة السيد سليمان الندوي، وقد تجشّم مشاق السفر الطويل المُضني رغم مرضه، وعجزه الكلي عن المشي، واحتياجه إلى مساعدة زملائه للتحرك والتنقل، لكنه احتمل كل ذلك نظراً لأهمية الموضوع، وتكريماً للمؤتمر، وتقديراً لعواطف المنظمين الودِّيَّة، وكذلك حضر للمشاركة فيها سعادة الأستاذ أحمد محمد جمال، والأستاذ محمد محمود الحافظ، نيابة عن رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، والدكتور عدنان علي رضا النحوي، والأستاذ محمد حسن بريغش من الرياض، وجاءت وفود من المدن المجاورة والمدن البعيدة، بجانب المندوبين من جامعات الهند المختلفة ومدارسها الإسلامية.

وبلغ عدد البحوث التي أُعدَّت لهذه الندوة أكثر من ٤٥ بحثاً، فكانت مناسبة عطرة مؤثرة على النفوس، صارت حديث المجالس، وكان ذكرها على لسان كل مسلم شهد الحفل أو سمع عنه، حتى علّق أحد الكُتّاب في الصحف المحلية: أنَّ جو السكينة والطمأنينة كان يسود المدينة خلال هذه الأيام التي عقدت فيها الندوة.

وقد كان انعقاد هذه الندوة، وحضور عدد كبير من العلماء فرصة غالية، فاغتنمتها المنظمات والمدارس الإسلامية الواقعة في المنطقة والمدن المجاورة، وعقدت اجتماعات دينية وحفلات في أماكن مختلفة للاستفادة من العلماء الذين حضروا بهذه المناسبة، فكانت الحفلات والاجتماعات التي عُقِدَتْ، وتنقل الوفود؛ تُسبغ على المدينة صبغة الاحتفال، أو المهرجان الإسلامي، وساعد على إيجاد هذا الجو طِيب المكان، وافتتاح الندوة يوم الجمعة، وموقع الاجتماع، فقد عُقد بجوار الجامع التاريخي العظيم الذي شيَّدَهُ الملك المسلم (عنبر)، وزيَّنه الإمبراطور المغولي العظيم (أورنك زيب عالمكَير) رحمه الله، وقضى فيه ٥٠ عاماً من حياته، وتوفي بجواره، ودفن في

حي (خلد آباد) بجوار المدينة، وبوفاته بدأت الحكومة الإسلامية في الهند تضعف ويضطرب حبل نظامها، وتنتثر لآلي العقد الذي نظمه هذا الحاكم الغيور، لذلك أسميتها بغرناطة الهند.. وقد رفع مكانتها ذكر الحبيب المصطفى ﷺ.

إن مدينة (أورنج آباد)، التي وهبها الله سبحانه وتعالى جمالاً طبيعياً، وثراءً غنياً باهراً، وتاريخاً عريقاً في القديم، قضى سكانها ثلاثة أيام في ذكر الرسول ﷺ، وفاح عبير هذا الذكر ورباه سائر أنحاء المدينة. وقد تجوَّلَت الوفود في مدينة (دولت آباد) التاريخية، التي شهدت معركة حاسمة بين قوات المسلمين وقوات (ديوكير) الهندوكية في عهد علاء الدين الخلجي، والتي حققت فيها القوات الإسلامية ـ رغم ضآلة عددها ـ انتصاراً مدهشاً.

ثم زارت مدينة (خلد آباد) - حيث يقع قبر الأمبراطور (أورنك زيب) والذي قال عنه الشاعر الكبير والصحفي العظيم (ظفر علي خان) وصدق:

«إن عينه لا تزال مفتوحة في الضريح، في انتظار حكومة إسلامية تقوم من جديد».

ثم زار الضيوف كهوف (اليورا= ALORA) المختلفة التاريخية، التي تُعرف بالنحوت الحجرية الباهرة، وكثرة التماثيل المنحوتة، والمعالم التاريخية الكثيرة، وتعتبر تذكاراً لعهد الظلم والاضطهاد، وعهد الجاهلية والوثنية، وتحكي البون الشاسع والفرق الهائل، الذي يوجد بين الأديان الوثنية، وحضارتها، وبين الإسلام الذي بُنيَ على عقيدة التوحيد، ويعارض الوثنية بجميع مظاهرها وألوانها وأشكالها، ويدعو إلى احترام الإنسان والإنسانية، والذي ما زال يوجد لتحسيناته وتعديلاته وأبعاده وانعكاساته، وأثره؛ ومنها آثار خالدة خلَّفها المسلمون في مركز الوثنية، وفي المدينة الممثلة عنها، بقدومهم إليها، وسيطرتهم عليها، وحكمهم فيها لمدة طويلة.

فكان اختيار هذه المدينة لعقد هذا المؤتمر اختياراً لائقاً مناسباً للغاية،

لمكانتها في التاريخ الإسلامي، ولجمالها الطبيعي، الذي تتميَّز به عن المدن الأخرى، وبكونها عاصمة لحكومة الإمبراطور المسلم (أورنك زيب عالمكير)، الذي اعتبره بعض المؤرخين الإسلاميين الكبار سادس الخلفاء الراشدين.

ولا شك أن طِيب المكان له تأثير كبير على النفوس، وكثيراً ما ألهم المكان الجميل ذكرى الحبيب كما قال الشاعر العربي:

ولما نزلنا منزلاً طلّة الندى ... أنيقاً وبستاناً من النّور حاليا
أجدّ لنا طيب المكان وحسنه ... مُنى فتمنّينا فكنت الأمانيا

* * *

تصعد نشاطات الحركات الطائفية

وتأثر الجو الوطني بالكراهية والحقد بين الهندوس والمسلمين

كانت الأوضاع تجري هادئة مُرضية، من حيث الإدارة، والحكومة، والحياة المدنية العامة؛ فإذا هي تثور وتفور، وتصبح بركاناً يكاد ينفجر بأي إثارة أو تحريك خفيف بسيط، مما يؤدي إلى اندلاع الاضطرابات الطائفية ووقوع المجازر البشرية، وهدم المساجد، والأماكن المقدّسة، وهتك الأعراض، وإراقة الدماء، وتصعد هذه النزعة في المناطق الشمالية والغربية لولاية (اترابراديش) المقاطعة الشمالية، حيث برزت قضية المسجد البابري (كما يعتقده المسلمون)، وقضية مولد راما (كما يدّعي الهنادك).

يعتبر المسلمون هذا المسجد الذي تمَّ بناؤه كمسجد، مسجداً من أول يومه، ولا تزال هذه القضية موضع البحث والدراسة في المحكمة العليا في ولاية اترابراديش، ويوجد لدى المسلمين أدلة قوية وشهادات ووثائق تؤيدهم في دعواهم، لكن تحولت هذه القضية بعدما تخطَّت الحدود القانونية والإدارية إلى قضية نزاع، وقضية كرامة، بين المسلمين والهنادك.

وكانت العاطفة التي اجتازت الحدود، وأصبحت طبيعة كلا الطرفين المتخاصمين وزعماء الأحزاب والخطباء المتحمّسين ـ هي السبب الذي من أجله بدأ الصراع في شأن المسجد والمعبد، وتهيّأت للمنظمات الهندوكية المتطرفة مثل منظمة «هندو بريشد»، وحركة «شيو سينا» فرصة لإثارة عواطف الهنادك الدينية، وحميتهم للمعابد الوثنية، وعدائهم للإسلام والمسلمين،

وأصبحت البلاد كلها تقف على فوهة بركان من أجلها.

وكذلك أيقظ قِصَر النظر لبعض الزعماء، والكلمات المثيرة المهيجة لبعض الخطباء ـ الشعور الديني فيهم، وأعادت إليهم حميتهم الدينية التي كانت قد ذبلت واضمحلّت، وكانت لا تزال تضعف بسرعة؛ فدبّت الحياة في عاطفتهم الدينية الذابلة النائمة، وجاشت في قلوبهم أُمنية إحياء دينهم، الذي كان قد فقد سيطرته على قلوبهم منذ مدة طويلة، وتجدّد من جديد ارتباطهم بدينهم، ومعتقداتهم وتقاليدهم، وتاريخهم المنسي، وركزت عنايتهم كلّها على الأساطير التي كانوا نسوها أو تناسوها، واستخدموا في ذلك المقالات المثيرة الملهبة التي نشرتها الصحف والمجلات الصادرة باللغة الهندية والإنجليزية.

وصعب على المسلمين أن يقضوا حياتهم في هذه البلاد بهدوء وطمأنينة، رغم أنَّهم كانوا يتمكّنون من أن يلعبوا دوراً رائداً لإنقاذ البلاد من الدمار والانهيار، وعزّ على الكُتّاب الإسلاميين والمثقّفين المسلمين أن يلفتوا عناية الطبقة الواعية لأكثرية هذه البلاد إلى دراسة الإسلام وتعاليمه، دراسة علمية إيجابية عادلة؛ وأشار بعض المثقفين المسلمين أيضاً إلى هذا الخطر الكبير، وبيّنوا عواقبه الوخيمة وأبعاده السيئة الخطرة، ووُفّقتُ أيضاً للإشارة إلى عواقبه ونتائجه، لكن تغلبت العاطفة على الوعي والرشد دائماً. وقد تعوّد المسلمون على أن ينساقوا مع الغرائز والعواطف في أمورهم، بدلاً من أن يستخدموا الوعي والرُّشد في شؤونهم؛ وسكوت المسؤولين في الحكومة على هذه القضية المهمة وإرجاؤها والتكاسل في معالجتها والبحث عن حل مناسب لها مما زاد الطين بلّة.

وهذه خسارة لا يمكن للمسلمين تداركها، وعقبة حالت دون الأعمال الدعوية والإصلاحية، ونشر رسالة المودّة والإخاء في هذه البلاد، التي حكم فيها المسلمون ألف سنة، وهي الآن أيضاً تحتاج إليهم، وتعقد آمالها

بناصيتهم، فلا بدّ من دراسة هذه القضية بدقة نظر وقلبٍ ثَلِج، واستعراض هذه الأوضاع استعراضاً حكيماً واقعياً جريئاً.

ولعلّ الله يُحدث بعد ذلك أمراً.

* * *

رحلتي إلى دولة الإمارات العربية المتحدة

سنحت لي فرصة لزيارة دولة الإمارات العربية المتّحدة في ١٩/ ربيع الثاني، الموافق ٢٨/ نوفمبر سنة ١٩٨٨م، على دعوة من الشيخ أحمد خليفة، الذي كان موضع ثقة سمو الشيخ زائد بن سلطان آل نهيان، رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة، وكان قد وجّه إليّ الدعوة أكثر من مرة عن طريق الدكتور تقي الدين الندوي، أستاذ الحديث بجامعة العين قبل ذلك، لكنني لم أتمكن من القيام بزيارة الإمارات وتلبية رغبته، لبعض مسؤولياتي، وأشغالي المتواصلة داخل البلاد؛ وفي هذه المرة انتهزت هذه الفرصة، فتوجّهت إلى دولة الإمارات العربية المتّحدة في طريق عودتي من المملكة العربية السعودية، ووصلت من جدة إلى أبوظبي وقت المساء، ونزلنا بفندق شيراتون، وقابلني في اليوم التالي وكيل وزارة الشؤون الإسلامية، وبعض المسؤولين عن الحكومة، ومدير الديوان الملكي الشيخ فيصل بن سلطان القاسمي في الفندق.

ثم غادرت أبوظبي إلى الشارقة في ٢١/ ربيع الثاني، الموافق ٣٠/ نوفمبر، والتقيت بسمو الشيخ سلطان القاسمي حاكم الشارقة، بعد وصولي إلى الشارقة على الفور، وتحدثت معه حول قضايا المسلمين الراهنة، ثم أدينا صلاة الظهر، واجتمعنا بصفوة من العلماء والدعاة والأئمة والقضاة لأبوظبي، وتناولنا الغداء معاً، ووصلت من هنا إلى منزل الدكتور سالم عبد الله علي المحمود، وأقمنا بمنزله خلال فترة إقامتي في دُبَيّ والشارقة.

وألقيت محاضرة في كلية الدراسات الإسلامية بدُبَيّ في نفس اليوم، وكان موضوع حديثي: «إنهم فتية آمنوا بربّهم»، وقد شرحت في كلمتي صفات

الفتية المؤمنين، ودورهم ومنهجهم، وقلت: إن هذه الآية الكريمة تقدم درساً للشباب المثقفين، الذين يملكون همّة عالية، وذكاءً حادّاً، وينتمون إلى أسر كريمة ثرية حاكمة، وتنير وعيهم، وتقوي حميتهم، وتدعم إباءهم وأنفتهم؛ وتُقَدِّم إلى الذين تتوفر لديهم فرص العمل، وتتوافر وسائل الراحة، والعيش، ورغد الحياة، وأدوات البذخ والترف، وذرائع العز والمجد، وإمكانات الوصول إلى السلطة: قدوة وأسوة لهؤلاء الشباب الذين آمنوا بربهم فزادهم إيماناً، ونماذج لعلو الهمة، وبعد النظر، والزهد في الحياة، والاقتصاد في المعيشة، والتشبث بالعقيدة، والإعراض عن المنصب والجاه، والعزوف عن الحياة الناعمة الرغيدة، وتفضيلهم الآخرة على الدنيا.

وكان رئيس هذه الحفلة الكاتب الإسلامي المعروف، وعميد الكلية الشيخ محمود الديك، وقام بالتعريف عن المحاضر.

وجاء الشيخ سعيد لوتاه، رئيس بنك دبيّ الإسلامي بنفسه إلى مقرّي، وهو رجل يمتاز بحميته الدينية، وجهده المستمر، وله خدمات جليلة في مجال الاقتصاد الإسلامي، وتعليم الشباب تعليماً دينياً، ويحترز عن السمعة والمظاهر كل الاحتراز، ويقضي الحياة ببساطة وسذاجة، فأدعو الله أن يقويه، وينصره، ويبارك في أعماله، ويتقبلها؛ وتبادلنا وجهات النظر في جوّ ودّي أخوي.

وفي اليوم التالي أقام الشيخ سيف أحمد الغرير حفلة الغداء في منزله، وهو يُعدّ من كبار التجار، ومن وجهاء دبيّ وأعيانها، ويقوم بينه وبين المنتمين إلى ندوة العلماء، والمؤسسات الأخرى التابعة لها؛ اهتمامٌ خاصّ، ويمدّ يد التعاون إليها.

وألقيتُ محاضرة في قاعة المحاضرات في الشارقة بعد صلاة المغرب في نفس اليوم، أعربت فيها عن انطباعاتي عن الحضارة والمدنية، اللتين بلغتا ذروتهما في الرقي والازدهار، وتخطتا حدود حياة الأقوام والملل والأديان.

وقد تأثر قلبي، وأهمّني ما شاهدت من نضارة المدنية، والإقبال الزائد عليها، والتهافت على الزخارف، وأسباب النعيم، والحرص على محاكاة حياة المترفين الغافلين عن الآخرة، وتجدّدت في ذهني ذكريات وقصص حياة المسلمين العرب من السلف، التي كانت تتسم بالبساطة والسذاجة، والتضحية والفداء، والزهد والقناعة، والجرأة والبطولة، والغيرة والأنفة، والتمسُّك بالشخصية الإسلامية العربية، والاحتفاظ بها، مقابل الحضارة الرومية والإيرانية المعاصرة لهم، والتي كانت بلغت قمَّتها في الرقي والسعة، والنضارة والجودة، والسحر والجاذبية؛ وفي تقدُّم الحياة الصناعية، واختراع أدوات الراحة والزينة، والكماليات.

فأكّدت على ضرورة إخضاع هذه المدنية المزخرفة اللامعة للأهداف والمبادئ، وعلى ضرورة إخضاع الحضارة الحاضرة للشخصيّة الإسلامية لتساير العصر وتسد حاجاته ومتطلّباته.

وختمت هذه المحاضرة بالآية الكريمة، التي كان ختم بها سيدنا حسن بن علي بن أبي طالب كلمته، التي ألقاها على رغبة من الأمير معاوية رضي الله عنه، عند تنازله عن الخلافة، وكان يهدف بذلك ليعرف الناس أن ما حدث حدث بالإرادة والإيقان؛ وختمت حديثي بهذه الآية كما جاء في حديثه: ﴿ وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴾.

وعدت إلى منزلي بعد المحاضرة، وجعلت أستعدُّ للعودة إلى دلهي، وكان موعد إقلاع الطائرة المتّجهة إلى دلهي الساعة الحادية عشرة ليلاً، وكان قد اتّصل بي سمو الشيخ سلطان القاسمي، وأخبرنا بقدومه إلى المطار لتوديعنا، وبذلت جهدي لمنعه، ولكنه وصل إلى المطار لمروءته، وكرمه، وحسن خلقه، وتكريماً لضيف بلاده، فجزاه الله عنّا خير الجزاء.

ورافقني الأخ الكريم محمد عثمان المهندس إلى مطار جدة، وكان قد رافقني في رحلة دبيّ من جدّة، وهكذا وهو يساعدني في سائر رحلاتي

الخارجية، كما تفضل الشيخ سيف الغرير وأخوه الشيخ مروان الغرير، وأشرفا على إكمال إجراءات السفر، وتوفير التسهيلات اللازمة، إلى موعد إقلاع الطائرة، ولم يغادر إلا بعد الاطمئنان على إكمال إجراءات المغادرة، فنشكرهم جميعاً على هذا الاهتمام؛ وأقلعت الطائرة في موعدها، ووصلنا في ٢/ ديسمبر يوم الجمعة، في الساعة الثالثة والنصف بتوقيت الهند المحلّي.

وهكذا تمّت هذه الرحلة المباركة الطيبة، وتوجّهت إلى لكهنؤ، بطائرة المساء في اليوم نفسه، وتأخرت الطائرة ثلاث ساعات، فوصلنا متأخّرين في الليل.

محاضرة ترشيد الصحوة الإسلامية:

اتصل بي الدكتور تقي الدين الندوي على الهاتف، وسألني عن عنوان المحاضرة التي كان من المقرّر أن ألقيها في أبوظبي في ٢٠/ ربيع الآخر الموافق ٢٩/ نوفمبر، وكان قد أعلن عنها من قبل، وألقى الله في روعي أن تكون هذه المحاضرة حول عنوان: «الصحوة الإسلامية المعاصرة، والحديث عن الحاجة إلى ترشيدها». ووفّقني الله في اختيار هذا الموضوع توفيقاً كبيراً، فجاءت المحاضرة في حينها، وطابقت مقتضى الحال، وتستحق هذه المحاضرة أن تعدّ من خيرة محاضراتي، وأهمها، وذلك من توفيق الله وحاجة العصر.

اختيرت للمحاضرة القاعة الفسيحة للمجمع الثقافي، وكانت القاعة مكتظّة كُلّياً بالحاضرين، وكان في مقدّمتهم وعلى رأسهم الشيخ خليفة السويدي، أحد المقرّبين إلى رئيس دولة الإمارات العربية المتّحدة، سمو الشيخ زائد بن سلطان آل نهيّان، واشترك في هذه الجلسة أعضاء مجلس الأمناء للمجمع الثقافي، والمسؤولون، والمهتمّون بالشؤون الإسلامية، ونشرت صحيفة (الاتحاد) الغرّاء، الصادرة في أبوظبي ملخّصاً للمحاضرة فيما بعد.

مقتطفات من أهم نقاط المحاضرة:

(١) الصحوة الإسلامية مسؤولية كبيرة وأمانة دقيقة:

إن الصحوة الإسلامية في الحقيقة مسؤولية كبيرة، وأمانة دقيقة جليلة، فإنها إذا وُجدت فهي كالسّهم إذا طاش وأخطأ الهدف، فإنه لا ينسب هذا الخطأ إلى القوس، ولا يحمل على مصادفة أو فلتة، بل إلى الرامي، فإخفاق السهم في إصابته الهدف، إنما يأتي من ضعف الساعد وعدم قدرة الرامي، وكذلك الصحوة إذا اتّخذت منهجاً غير دقيق، وغير مخطّط تخطيطاً دقيقاً جامعاً، أفقدت الثقة أو أضعفتها بصلاحية الإسلام في إنشاء الصحوة الصالحة القويّة.

(٢) الصحوة من طبيعة الإسلام وواجباته، وحاجات البشرية الدائمة:

الصحوة في الحقيقة من طبيعة الإسلام، يجب أن تمتد وتتسلسل وتتصل اتصالاً مستمراً، لأن هذه الأمة هي الأمة المختارة، والأمة الأخيرة المبعوثة للإنسانية جمعاء، وهو تعبير نبوي عن هذه الأمة، وقد أُثِرَ عن الرسول عليه الصلاة والسلام أنه قال لبعض كبار الصحابة:

«إنما بعثتم ميسّرين ولم تُبعثوا معسّرين»(١).

ولا أبلَغ ولا أوضح من قول الله تعالى:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

(٣) شروط سلامة الصحوة الإسلامية:

أ ـ أن تكون موافقة للعقيدة الإسلامية الصحيحة:

إنّ أول شرط لسلامة هذه الصحوة، وجدارتها بالثقة والاحترام والدفاع،

---

(١) أخرجه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه.

هو أن تكون الصحوة موافقة للعقيدة الإسلامية، المنبثقة من الكتاب والسنة، بحيث تتفق وعمل رسول الله ﷺ، وأسوته وأسوة الخلفاء الراشدين من بعده، وفَهْمُ الراسخين في العلم، وعقيدة الجمهور من المسلمين، ولا تنساق في التيّارات السياسية والاتجاهات المرتجلة، أو تكون مجرّد ردّ فعل في مواجهة أوضاع محلّية، أو مجرد وعود لإقامة حكومة إسلامية، أو سيادة سياسية، وعرض لإمكانياتها.

ب ـ التوسُّع في الدراسة الدينية، وتغذية الشباب المثقف بالغذاء الفكري الصالح القوي الدسم:

والمعيار الثاني أن تتصف هذه الصحوة بشيء من التوسُّع، والتعمُّق في الدراسة الدينية، وفي فهم الكتاب والسنة، ويُعنَى بالشباب المثقّف ـ الذين يزداد عددهم في هذه الصحوات ـ عناية خاصة، فيُغَذّوا بالغذاء الفكري الصالح القويّ الدسم، الذي ينوّر عقولهم، ويعيد فيهم الثقة بصلاحية الإسلام للقيادة وحلِّ مشاكل الحياة، ويجب أن يُحثّوا على الارتباط القوي العميق الإيماني والعملي بالقرآن الكريم، ودراسة السيرة النبوية، وتاريخ الإسلام الأول، وتاريخ الإصلاح والتجديد وقادتهما. . الذي يشغل مواهبهم، وينير لهم السبل لتوجيه طاقاتهم توجيهاً قيادياً سليماً.

جـ ـ أن يقترن بالصحوة الوعي المدني، وفهم القضايا المعاصرة والحركات والتيارات العاملة النشيطة:

ويرافق الصحوة ويقترن بها الوعي المدني، وفهم القضايا المعاصرة والحركات والتيارات العاملة النشيطة، وموقفها من الإسلام، وأثرها في الحياة، وخطرها على مستقبل هذا الدين، والجيل الإسلامي، والاطّلاع على أهداف القيادات التي تريد أن تسيطر على هذه البلاد والبيئات.

د ـ العناية ببقاء الشعور بأهمية الجهاد في سبيل الله وفضله:

كذلك تجب العناية ببقاء الشعور بأهمية الجهاد في المفهوم القرآني

الشرعي الإسلامي، وإحلاله المحل اللائق من العقل والعاطفة، ومن الإكبار والإجلال والغبطة على من اتّصف به، ومَثَّل به دوراً بارزاً، والحرص على تقليدهم، والحنين إلى الشهادة، فإنها ثروة إيمانية، تمتاز بها هذه الأمة من بين الأمم قديماً وحديثاً، وهي مصدر خوارق وروائع من البطولة والفداء.

هـ ـ ضرورة كون الصحوة إيجابية، والتوقي من المجابهة وإثارة المشاكل والمعارضات من غير ضرورة:

ويجب أن لا تكون هذه الحركة سلبية محضة، تشرع إلى مجابهة الحكومات والطاقات ذات القوى والوسائل، وتحدث لها مشكلات وعراقيل في الخطوة الأولى، فتُضيع بذلك كثيراً من طاقاتها وأوقاتها، وتُنشىء لها أعداءً؛ وقد تجاهد في غير جهاد وفي غير عدو.. بل يجب أن تكون إيجابية أكثر منها سلبية.

و ـ أهمّية الزهد والقناعة، والعزوف عن حُبّ الغلوّ، والتنافس في الدنيا في تاريخ الإصلاح والدعوة:

ويجب أن يتصف قادة الصحوة الإسلامية بشيء من العزوف عن المناصب والرئاسات، والحياة الرغيدة الناعمة، ومنافسة أرباب المناصب والجاه، ويتّسمون بسمة الزهد والقناعة والتوكُّل، حسب طاقاتهم، وفي الحدود الشرعية، من غير رهبانية وغلوّ، على قدم السلف الصالح وأصحاب العزيمة.

(٤) كيف تقع حركات إصلاحية جذرية فريسة الجمود، الذي تنشأ لإزالته، وتفقد الحيوية والحركية:

ومن عِبَر التاريخ المتكررة، ودروسه التي يجب أن يُنتفع بها، أن حركات إصلاحية جذرية قامت لإزالة الجمود الطارئ على العقول والتفكير والحياة، وإزالة الطحلب[١] عن سطح ماء النهر الإسلامي الجاري، والقضاء على التقيُّد

---

(١) الطحلب: خُضرة تعلو الماء المزمن الركود.

ببعض التقاليد العرفية، ومقاييسها ومطالبها التي ما أنزل الله بها من سلطان، قامت لتحريك العقول والطاقات في المجتمع الإسلامي، لفهم قضايا العصر، وتحقيق مُتطلّباته الصحيحة المقبولة، ومسايرة العصر، بل قيادته قيادة صالحة رشيدة، والبرهنة على صلاحية الإسلام لقيادة كل عصر وحل مشكلاته، وقدرته على إجابة كل سؤال، ومواجهة كل تحدّ.

من عِبَر التاريخ أن كثيراً من هذه الحركات الإصلاحية الجذرية - ولا أقول الثورية - وقعت على مر الزمن فريسة الجمود والركود اللذَيْن نشأت لمحاربتهما، وأصبحت أسيرة منهجها الأول، الذي كان مطابقاً لوضع العصر الذي نشأت فيه، محققاً لمتطلبات حركة إصلاحية في إطار خاص محدود، وتمسّكت بالخطوط والحدود، التي رسمها قادة هذه الحركة في الماضي عن إخلاص ووعي، إجابة لنداء العصر، وتطبيقاً لما أنبأ به الرسول ﷺ بقوله: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين»[1]، وتمسّكت بهذه الخطوط والحدود، تمسك الناس بالمنصوص القطعي، الذي لا يقبل حذفاً ولا زيادة، ولا مرونة ولا توسُّعاً، وسيطر على العاملين في مجال هذه الدعوة والحركة: الركودُ الفكري، والتطرُّف في بعض الأحيان، والجمود على منهجهم كنصوص الشريعة القطعية والآيات القرآنية.

السبب في ذلك:

وقد كان ذلك؛ لأن هذه الحركة قد فقدت عنصر النُّموّ والقدرة على استعراض المحيط، وطبيعة العصر وقضاياه الطريفة المتجدّدة، والقدرة على التطبيق بين المنهج الإصلاحي و واقع الحياة ومتطلّباته؛ ومن الحقائق أنّ

---

(١) مشكاة المصابيح (الفصل الثاني).

الإسلام استطاع أن يساير كل زمن، وهو يثبت جدارته لقيادة المجتمع البشري، والتطبيق بين تعاليمه وحاجات العصر، لوجود العلماء والقادة الذين لم يفقدوا ـ قط ـ النمو الفكري، والذكاء الممتاز، والقدرة على الاجتهاد واستنباط الأحكام من الأصول الدينية ومصادر الشريعة الأولى، في كل زمان، ومواجهة كل تحدٍّ في عصرهم ومصرهم، وتحقيق كل ما يطلبه الزمان وتحتاج إليه الأمة، بقدرة فائقة، وعبقرية باهرة، ولم يغمضوا عيونهم عن واقع الحياة، ولم يصمُّوا آذانهم على نداء العصر وطلبه، فبقي هذا الدين حيّاً خالداً، مقبولاً سائغاً، قادراً على قيادة المجتمع البشري وترشيده، وتسييره في دائرة الإسلام على الخط السليم، والصراط المستقيم.

* * *

ذكريــات

عام ١٩٨٩

رحلتي إلى تركيا وبريطانيا

كان قد تقرر عقد ندوة رابطة الأدب الإسلامي العالمية في استانبول بتركيا من ١٢ ـ١٦ من أغسطس سنة ١٩٨٩، وذلك لأن عدداً كبيراً من أعضاء الرابطة والأدباء العرب، والأساتذة في الجامعات العربية، يتوجّهون إلى تركيا للاصطياف، وبدأ الاتّجاه الإسلامي يتصاعد في مجالات حياتها المختلفة، من علمية وفكرية وأدبية، فتقرر أن تعقد ندوة رابطة الأدب الإسلامي العالمية، في هذا العام في تركيا، وعيّن موضوعها: «الأدب الإسلامي للأطفال».

نال الموضوع لطرافته اهتماماً كبيراً من الأدباء، الذين يحملون عاطفة دينية واتجاهاً إسلامياً، وأعربوا عن سرورهم وابتهاجهم على ذلك، وتولوا مسؤولية تنظيمها وإدارتها وضيافتها، وكان في مقدمتهم الروائي الشهير والكاتب المسرحي الكبير، ورئيس تحرير مجلة أدبية الأستاذ علي نار، ووجهت الدعوة إلى أعضاء الرابطة في الهند، والأساتذة ورؤساء أقسام اللغة العربية في الجامعات الهندية، للمشاركة في هذه الندوة، فحضرها الأستاذ محمد الرابع الحسني الندوي، رئيس فرع الرابطة في شبه القارة الهندية، والأستاذ سعيد الأعظمي الندوي عضو الرابطة، ورئيس تحرير مجلة «البعث الإسلامي»، والأستاذ نور عظيم الندوي، مدير مكتب الرابطة في الهند، بالإضافة إلى الدكتور السيد إبراهيم الندوي، رئيس قسم اللغة العربية بالجامعة العثمانية في حيدر آباد، والدكتور محسن العثماني الأستاذ في الدراسات الشرقية بجامعة نهرو في دلهي، والدكتور طُفَيل أحمد المدني، الأستاذ في قسم اللغة العربية بجامعة إله آباد، وكان يرافقني في هذه الرحلة المهندس غلام

محمد بجانب الأستاذ محمد الرابع الحسني، الذي يرافقني دائماً في رحلاتي الدولية، وكان يشارك في هذه الندوة كسكرتير الرابطة، فكانت مرافقة هذين الزميلين مرافقةً سعيدة، وفرّت لي أقصى وسائل الراحة والطمأنينة.

توجّهنا إلى استانبول عن طريق الكويت، وتوقفنا على المطار برهة، وقابلنا العزيز السيد إبراهيم الحسني، والسيد أحمد علي الحسني، والسيد بدر الحسن القاسمي، ثم واصلنا الرحلة إلى استانبول، وفي مطار استانبول حضر عدد وجيه من إخواننا الأتراك، وإخواننا الهنود الذين كانوا قد وصلوا إلى استانبول من قبل لاستقبالنا، وأنزلونا في فندق مكة الذي كان جوّه هادئاً، وثقافته شرقية.

عقدت الجلسة الافتتاحية لهذه الندوة في قاعة فندق مكة في ١٢/ من شهر أغسطس سنة ١٩٨٩م، وشارك فيها الشيخ يوسف جاسم الحجّي، وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت سابقاً، ومدير الهيئة الخيرية حالياً، والكاتب الإسلامي الكبير والداعية الأستاذ محمد قطب، والشاعر الإسلامي الأستاذ عبد الله بن إدريس، الأستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، والدكتور حسن الأمراني، الأستاذ بجامعة «وجدة» بالمغرب، والدكتور عبد الباسط بدر، الأستاذ في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وشاعر طَيْبَة الأستاذ ضياء الدين الصابوني، والأستاذ الشاعر عثمان ذكي، والأستاذ سلطان ذوق، رئيس فرع الرابطة في بنغلادش.

بدأت الجلسة الافتتاحية بتلاوة آيات من الذكر الحكيم، تلاها طالب تركي، كان يسمى بمحمد الفاتح، ثم ألقيت كلمتي كرئيس الندوة والرابطة، وبينت فيها حقيقة الأدب ودوره القيادي، وصرّحت بأن كلمة الأدب انتقلت من اللغة العربية إلى اللغة الأردية والتركية، وكان معناها في الزمن الماضي الخُلُق والمروءة، والقيم الإنسانية الرفيعة، وجاء في الحديث النبوي الشريف: «إن الله أدّبني فأحسن تأديبي»، وأنا أعتقد أنه لا يوجد في لغة غير إسلامية كلمة للأدب، تحتوي على معاني الحضارة والثقافة والخلق النبيلة، والقيم الإنسانية

الرفيعة، فينبغي للأدباء والكُتّاب أن لا يغفلوا هذا الجانب للأدب، ويضعوا الخلق موضع عنايتهم وتقديرهم، ولا سيما في هذه الأيام التي يستعمل فيها الأدب كأداة قوية مؤثرة للهدم والبناء، والإفساد والإصلاح، والخير والشر، ويجب علينا أن نقوم بدعم صلة الأدب بالخُلُق، إذا تسرّب إليها الضعف والذبول.

ثم تحدّث الأستاذ محمد قطب، وصرّح في كلمته مؤكداً على الحاجة إلى الأدب الإسلامي، أن عدداً كبيراً من الناس يُظلَمون ويُضطهَدون في إفريقيا وأوربا وآسيا وفي هذه الأيام، ويعانون آلاماً ومصائب عنيفة، وأشد أنواع العذاب، فيستطيع الكُتّاب الإسلاميون أن يعرضوا قضاياهم في كتاباتهم على مستوى رفيع من الأدب والفن، ويعتبر هذا العمل خدمة جليلة للإنسانية البائسة المنكوبة المضطهدة، ولَفَتَ انتباه المشاركين في هذه الندوة إلى أدب الأطفال.

وقُدِّمت في الجلسات الأخرى لهذه الندوة بحوث ومقالات حول أدب الأطفال، ونوقشت، وعُيِّنَت خصائص أدب الأطفال، وحدوده الفنية والنظرية في ضوء تعاليم الإسلام.

وتحدّث الأستاذ سعيد الأعظمي الندوي عن الخصائص الأدبية والفنية لكتابي قصص النبيين (١-٢-٣-٤-٥)، ونال بحثه إعجاباً وتقديراً على وجه العموم، ثم أصدرت قرارات مختلفة، كان من بينها قرار عقد مسابقة عالمية عن أدب الأطفال، في ضوء الأدب الإسلامي، وقرار منح جائزة ثمينة على أفضل ما يؤلَّف في هذا الموضوع من كتاب.

وعقدت احتفالات كثيرة غير جلسات الرابطة القانونية في مدينة استانبول، وعلى شاطئ بوسفور، وفي بيوت بعض أعيان البلد الإسلاميين؛ وأقام العزيز يوسف قره جه (الذي نقل كثيراً من مؤلفاتي ـ الكتب الإسلامية والدعوية ـ من اللغة الأردية إلى اللغة التركية، ويعتبر في الأوساط العلمية كمترجم بارع) مأدبة على مستوى عال في منزله، الذي يقع في زاوية بعيدة من المدينة.

وسنح لي خلال فترة انعقاد هذه الندوة إلقاء كلمة في مسجد واسع يدعى بسـلام، يقع في حي سـلطان جغلي، أمام تجمع كبيـر من المسؤولين في المدارس الدينية، والعاملين في حقل الدعوة الإسلامية، والمنتمين إلى جماعة الدعوة والتبليغ، الذين قدموا من المناطق البعيدة؛ لسماعهم اسم الخطيب، ودراستهم لبعض مؤلفاته المترجمة إلى اللغة التركية، وقد عقد هذه الحفلة بدون إعلان كبير، فأعتبر هذه الكلمة حصاد هذه الرحلة، ورسالة هذه الندوة إلى الشعب التركي، الذي كان يجري في عروقه الدم الإسلامي، والذي كان قد تمّ واجه في الزمن الماضي آلاماً شديدة، ومصائب عنيفة، وقضايا شائكة معقدة، ويقوم الآن أيضاً على مفرق محجة.

ألقيت هذه الكلمة باللغة الأردية، وقام بنقلها إلى اللغة التركية عالم تركي، درس في باكستان سبع سنوات، وتعلم هناك اللغة الأردية، وبرع فيها، وأبديتُ في هذه الكلمة اعترافي بالخدمات العظيمة والبطولات والتضحيات، التي قام بها الشعب التركي الأبيُّ الغيور، الذي كان قد شرَّفه الله بتولية الخلافة الإسلامية لمدة قرون.

وكانت الكلمة لموقعها، والبيئة التي ألقيت فيها، ووجود عدد وجيه من المثقفين الأتراك ـ مثيرة، يتأثّر بها القلب والوجدان. . ذكَّرتهم بماضيهم اللامع المشرق، وأشرت إلى المسؤولية التي تقع على كواهلهم للحفاظ على الإسلام، وبثِّ تعاليمه، وإعلاء كلمته، وأنذرتهم بالمؤامرات والدسائس التي ينسجها علماء الغرب ليقطعوا صلتهم بالدين، ويجعلوا هذه البلاد أندلساً ثانية، ولفتُّ أنظارهم إلى أن يعزموا على إحباط هذه المؤامرات، ويحتـالوا لها كل الاحتيـال.

وفيما يلي الجزء الأخير لهذه الكلمة تعميماً للنفع:

«تذكَّروا أيُّها الأخوان، إن أوروبا لم تعترف بتركيا قط، هي لقمة لم تتمكن من ابتلاعها، ولـم تستطع أن تقيئها، دفعت الدول الأوروبية ولايات

البلقان إلى محاربة تركيا، والقيام بالثورة عليها، واحتلت مناطق كثيرة لها، ثم لم تضمها الدول المتحالفة إلى نفسها في الحرب العالمية الأولى، سنة ١٩١٤ ـ ١٩١٨م، فاضطرت إلى أن تلحق بألمانيا، ثم وضعت الدول المتحالفة مشروعاً لتوزيع أراضيها، وتمزيق وحدتها، وجعلها دويلات صغيرة وأجزاء مبعثرة، وحاولت بذلك الاستيلاء على مناطقها الخارجية، فاستولت على سورية، وفلسطين ولبنان، والأردن (وكانت الشام تتضمن هذه الأجزاء كلّها) والعراق، لكنها لم تستطع قط أن تسيطر على تركيا مباشرة وتستولي عليها.

لكن الآن غيّرت أوروبا استراتيجيتها الحربية، فزحفت إلى العالم العربي بفلسفات جديدة، ونظام دراسي جديد، ووسائل الإعلام، والحضارة الغربية وثقافتها، والإلحاد والزندقة والتشكيك، بدلاً من القوة العسكرية، والأسلحة الحربية الفتّاكة، والدّبّابات والصواريخ المُدمّرة، إنها لا تستطيع أن ترى تركيا كدولة حرّة مستقلة، إنها وضعت الألغام تحت الأرض، وتحقق بوسائلها الداخلية ما لم تستطع أن تحققه بقواتها ومدافعها.

كتب المؤرخ الشهير والفلسفي الكبير «أرنولد توينبي» (ARNOLD TWENBEE) مشيراً إلى قصّة إحراق مكتبة الإسكندرية ـ سواء كانت هذه القصة حقيقة أم أسطورة ـ فلا يحتاج الآن أحد إلى إحراق مكتبة، أو محو لغة أو ثقافة، إنّما يكفي تغيير الخط، وبذلك يمكن قطع صلة أي بلد وشعبه بالماضي كلياً.

وتحاول أوروبا وعملاؤها أن يجعلوا تركيا أندلساً ثانية، فينبغي أن لا نخطو خطوة إلا بغاية من الحذر والحيطة، ولا ننسى وصية سيدنا عمرو بن العاص الحكيمة، بعدما فتح مصر بكاملها، في ظروف كان الإسلام ينتشر، وكان الشعب المصري القديم يقبل عليه ويعتنقه، وكانت لغة البلاد وثقافتها تتغير، حتى الخط كان يتغير، وكانت المساجد تُبنى، وشعائر الإسلام تُرفع، وكان لا يخشى في بادئ الأمر - أن تخرج مصر عن الحكم الإسلامي، بالنظر إلى اتصالها بالجزيرة العربية، وسيل الفتوحات والانتصارات الإسلامية، ونجاحها المتواصل، وتقدمها الباهر؛ لكنه قال للمسلمين بذكائه، وبُعد نظره، وفراسته التي حصلت له

من صحبة النبيّ ﷺ: «أنتم في رباط دائم لأن شعوب قارة إفريقيا كلها، والحكومات غير الإسلامية وسكّانها، ينظرون إليكم، وهم حريصون على أن تعود هذه البلاد إلى حالتها السابقة».

فالسؤال الآن: ما هي الحيلة التي يجب أن نلجأ إليها لدعم علاقة هذه البلاد وشعبها المسلم بالإسلام؟ فأقدِّم لذلك ثلاث نقاط في ضوء دراستي العميقة للتاريخ وخبرتي الواسعة، وتدبري في القرآن وتأمُّلاتي فيه، وأرجو أن تستمعوا لها وتهتموا بها.

١ ـ تحريك الإيمان في نفوس الشعب التركي المسلم، وإثارة الشعور الديني فيه، وتقوية العقيدة التي لا تزال شررها كامنة في رمادها على كل حال، فإن تمسُّك هذا الشعب المسلم بالإسلام وتحمُّسه له، وارتباطه به، هو السُّور القويّ الرفيع، وحصن الإسلام المنيع، الذي لا تتجرأ من أجله الحكومات والقيادات المسلمة على أن تختار طريق الكفر، وتتنحّى عن الصراط السويّ، وتلقي بلادها وشعوبها المسلمة التي خضعت لها، في حضن الإلحاد والزندقة، فإذا هدم هذا السور ـ لا سمح الله بذلك ـ، وانقطعت هذه الصلة الروحية العاطفية بالإسلام، فلا ضمان لبقاء الإسلام والحفاظ عليه، ولا نستطيع أن نمنع هذه البلاد من أن تصبح أندلساً ثانية وتركستان الروسية.

هذه مواد خام يمكن أن يصاغ منها العلماء والدعاة والأدباء والكتّاب، وقادة الفكر، وولاة الأمور في العالم الإسلامي، ومجموعة بشرية عني بها الأنبياء والرسل، وبذل فيها الأولياء والعارفون جهوداً جبّارة، وهي تمتاز عن المجموعات البشرية، والشعوب الدينية المختلفة، بالحب والإخلاص، والعاطفة والحماس، والموهبة والكفاءة، والإيثار والتضحية في هذا الزمن أيضاً. ولكنه ينبغي أن يكون للإسلام مئة في المئة، فلا يجدي العمل بالدين عشرة في المئة، أو العشرين في المئة؛ إن هذه النسبة يمكن أن تنفع في التعليم، ووظائف الحكومة، ومجالات الحياة الأخرى، لكنها لا تنفع في الدين.

إنَّ العقيدة والالتزام بالفرائض والواجبات، واختيار بعض شعائر الدين والرموز، لا تكفي وحدها ، إنما ينبغي أن تكون الحياة بكاملها إسلامية، والمدنية إسلامية، والأحوال الشخصية إسلامية، وتؤدى حقوق المخلوق بجانب حقوق الخالق، بالإضافة إلى العاطفة الدينية، والحب الخالص للإسلام.

إن الإيمان سور قوي، وحارس كبير، حصن حصين، لا يمكن فتحه بيسر، فأول ما يجب عليكم: أن تجعلوا الشعب كله مسلماً كاملاً، واختاروا لذلك طريقاً عاماً، وأن تتحملوا متاعب السفر، وإلقاء الكلمات، والقيام بالدعوة والإرشاد، واتعظوا بعمل سيدنا أبي أيوب الأنصاري، إنه كما قلت: رأى الخروج من المدينة المنورة ـ التي يتمنى كل مسلم أن توافيه المنية، وهو في هذه المدينة الطيبة، فيدفن في أرضها الطاهرة؛ للدعوة إلى الله وإعلاء كلمته، ونشر دينه ـ أمراً ضرورياً رغم ما كان له من شرف، شرف ضيافة رسول الله ﷺ، وشرف صحبته في كل وقت، والعبادات الجليلة التي وفَّقه الله سبحانه وتعالى لها، وتوجَّه إلى مكان بعيد كقسطنطينية، بعدما طوى مسافة طويلة، ودُفن هناك.

٢ ـ والشيء الثاني: هو تأمين بقاء جيلكم الجديد على الإسلام.. أخشى أن لا يأتي بعدكم جيل لا يعرف إلا اللغة التركية، ولا يدرس إلا في المدارس الحكومية، ولا يعرف عن الإسلام شيئاً، لو أصبحتم قوَّامين بالليل، وأولياء لله سبحانه وتعالى ـ ليته يكون ذلك ـ، لكن إذا أغفلتم تعليم أبنائكم تعليماً دينياً، فالخطر باقٍ.. من يعمر المساجد بعدكم؟ وكيف تبقى هذه السلسلة التي حصلت لكم بجهود الغزاة والفاتحين، والعلماء الربَّانيين، والدُّعاة المُخلصين؟ انظروا إلى سيدنا يعقوب عليه السلام، الذي كان في جيل ثالث من الأنبياء، إنه لم يكتفِ بذلك، بل جمع أبناءه وأحفاده، وقال لهم: «ما تعبدون من بعدي؟».

٣ ـ إن نشاطاتكم الدعوية والإصلاحية، وأعمالكم وفق الشريعة

المطهرة، ودراستكم للحديث والفقه واللغة العربية في المدارس الدينية، وحفظكم القرآن الكريم، وعنايتكم بالحفاظ على عقيدة أبنائكم وإيمانهم . . . كلها مباركة، لكن هناك أمر آخر لا يقلُّ عنها أهمية، هو أنَّ الطبقة التي تدرس في الكليّات والجامعات ـ وهم أكثر عدداً ونفوذاً ـ والشباب الذين يعودون من أوروبا بعدما درسوا في جامعاتها، هم الذين يملكون زمام البلاد، ويستولون عليها، ويقومون بإدارتها، ويضعون لها القوانين، ويعيّنون لها الاتجاه، ويسيطرون على وسائل الإعلام ونظام التعليم، ويجعلون الحسن قبيحاً، والقبيح حسناً، ويسمحون لما يحبونه، ويمنعون ما يكرهونه، ويعتبرونه معارضاً للقانون ولمصلحة البلاد؛ إنهم إذا وصلوا إلى مناصب التشريع، وسيطروا على إدارة البلاد ونظامها، فيخضع لهم الشعب كله، وثقافته ومدنيته، وشؤونه الاجتماعية، ومستقبل جيله الجديد، حتى الفرائض الدينية، والشعائر الاجتماعية، وإدارة المساجد والمدارس، والأحوال الشخصيّة الإسلامية تخضع لأوامرهم.

ووقعت هذه التطورات في كثير من الدول الإسلامية الحرَّة، التي يُشكِّل المسلمون أغلبية سكَّانها، وكانت تعرف كمراكز للدعوة الإسلامية في زمن ما، وتوجد فيها الآن أيضاً جامعات دينية كبرى، لا حاجة لنا إلى سرد أسمائها؛ لأنكم تستطيعون أن تعرفوها بأنفسكم، فلذلك أقول لكم بكل صراحة أن لا تُعرِضوا عن هذه الطبقة، ولا تقطعوا صلتكم بها، واسعوا إلى أن ترسّخوا في أذهانهم عظمة الإسلام والحاجة إلى فهمه، طبقاً لنفسيتهم ومستواهم العلمي والفكري، وأقنعوا عقولهم بخلوده، وصدق تعاليمه، وصلاحيته للقيادة، في كل عصر ومصر، ولا تنسوا أن هذا العصر عصر الأفكار والنظريات، والعلاقات الدولية، فلا بدّ من العمل على المستوى العلمي والفكري، وإقناع الطبقة الجديدة، التي تصل إلى كراسيّ الحكم، وتتولى منصب القيادة والتوجيه، بأن الإسلام هو المنقذ الوحيد للعالم، والمنهج الفريد لقضاء الحياة

السعيدة الهنيئة، وإلا فتجري الحياة إلى طريق الانتحار، من أجل أنها نسيت خالقها، ونسيت بذلك نفسها، وصدق الله العظيم القائل:

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ [الحشر: ١٩].

* * *

زيارة لندن وأكسفورد

كان من المقرر أن أسافر من تركيا إلى لندن للمشاركة في الجلسة الإدارية للمركز الإسلامي بأكسفورد الذي سبق ذكره في الجزء الأول والثاني في «مسيرة الحياة» أكثر من مرة. في ٢٣/ أغسطس سنة ١٩٨٩م، وكانت عطلة المهندس غلام محمد الحيدر أبادي كادت تنتهي، فاضطر للعودة إلى حيدرآباد على الفور، فوصل إليَّ الأخ الكريم محمد عثمان ليحُلَّ مكانه، ويساعدني في هذه الرحلة ويريحني، وهو هندي الأصل، ويحمل الجنسية الأمريكية، ويحمل عاطفة دينية قوية، وهو كبير المهندسين في المطارات السعودية، وقد أبدى رغبته في أن يرافقني في الرحلات الخارجية ليساعدني طوعياً، وقد رافقني فعلاً في رحلاتي، وخلال فترة إقامتي بالمملكة السعودية، وكثيراً ما كان يرافقني في السفر إلى الرياض، والعودة منها، فوصل إلى استنبول في اليوم الذي كان من المقرر أن يغادر فيه المهندس غلام محمد الحيدرآبادي إلى الهند، وحمل معه الأدوية التي وصفها لي الدكتور أشرف الدين في جدة، فاطمأن قلبي بقدومه في الموعد، وسافرت مع المرافقَين: العزيز الأستاذ محمد الرابع الندوي، والمهندس محمد عثمان الحيدر آبادي.

كان قد وصل إلى أكسفورد للمشاركة في الجلسة الإدارية للمركز الإسلامي جميع أعضائه تقريباً، وكان من بينهم معالي الدكتور عبد الله عمر نصيف الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرّمة، والعالم الباحث الكبير الدكتور يوسف القرضاوي، عميد كلية الشريعة بجامعة قطر ونائب رئيس هذا المركز، والمؤرخ الشهير الدكتور خليق أحمد النظامي مدير جامعة عليجراه الإسلامية سابقاً، والداعية الإسلامي الكبير الشيخ عبد العزيز العلي المُطوّع.

وانعقدت جلسات المؤتمر حسب الجدول المقرر بنظام، وتمّ فيها صياغة الخطة القادمة، ودرس الأعضاء وضع المركز الاقتصادي، وبحثوا طرق تحقيق الاكتفاء الذاتي، وتمَّ إنشاء وقف للمركز، وركّز المشاركون في هذه الجلسة اهتمامهم على النقاط الثلاث الآتية بصفة خاصة:

١ ـ إصدار مجلة دورية باللغة الإنجليزية على المستوى العالي.

٢ ـ وضع كتاب يوثق به عن التاريخ الإسلامي.

٣ ـ إعداد خريطة تاريخية عن الإسلام باللغة الإنجليزية، على المستوى الرفيع.

وقُرِّر أيضاً توسيع نطاق الحفلات، التي يلقي فيها العلماء الكبار والشخصيات العلمية البارزة في العالم الإسلامي محاضرات، حول موضوعات إسلامية، وجرى تبادل الآراء ووجهات النظر في إمكانيات تقديم المِنَح الدراسية لمن يقوم بدراسة جوانب الفكر الإسلامي المفيدة، ويقوم بالتحقيق عليها، وكان من بواعث الارتياح أن المركز الإسلامي قد حصل على مبنى فسيح، يتكوَّن من عدّة غرف وقاعة للمؤتمر، بالإضافة إلى توفير تسهيلات للمكتب، ويشتغل فيه الموظفون على رواتب شهرية معقولة.

مقالة (المحسن الأعظم للإنسانية والواجب الخلقي للعالم المتمدّن الشريف):

كان يعزُّ عليَّ أولاً أن أسافر إلى بريطانيا في هذه الظروف، ويشقّ، عليّ بل كنت أعتبر ذلك ضد الغيرة الإيمانية والأنفة الدينية، أن أشارك في الجلسة الإدارية للمركز الذي يقع في البلد الذي يعيش فيه سلمان رشدي[1]. ولا يعيش بِحُرِّية فحسب، بل يجول ويمرح، لا في بريطانيا فحسب، بل في نفس البلد

---

(١) صاحب كتاب في الإنجليزية فيه إهانة للرسول ﷺ، وافتراء عليه، وإنكار كون القرآن منزَّلاً من الله ومعجزة، وقد هددته حكومة إيران، وعيَّنت جائزة كبيرة لمن يقتله.

الذي يقع فيه المركز؛ وما اتخذته الحكومة في تلك البلاد من إجراءات لتأمين سلامته وراحته، وخصصت له من ميزانية لهذا الغرض، ولم تستطع الدول الإسلامية الحُرّة إلاَّ أن تعرب عن استنكارها وكراهيتها وسخطها على ما صدر منه، ما عدا حكومة إيران التي أصدرت فتوى بقتله.

لا أملك أنا والمسلمون في الهند ـ الذين منحهم الله سبحانه وتعالى حظّاً كبيراً من حُبّ النبي ﷺ، ونصيباً وافراً من الحمية الدينية، التي يغتبط بها كثير من الدول الإسلامية العربية، وتعتبرها نموذجاً لنفسها ـ ما تملكه الدول الإسلامية العربية، التي يبلغ عددها عشرات، من وسائل وإمكانيات.

لكنني عزمت رغم كل ذلك على أن أسافر ببحث علمي قيّم، إذا اضطرتني الظروف إلى الرحلة إلى بريطانيا، يثبت أن منة سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد بن عبد الله الأمين ﷺ؛ لم تكن على المسلمين والعالم الإسلامي فحسب، إنما كانت منته على الإنسانية بأسرها.

ونال الجيل الجديد الذي فقد جدارته للبقاء على وجه الأرض، من أجل الحياة الوحشية البهيمية، والجري وراء النفس، وجحود خالقه وعصيان ربه، قسطاً طويلاً للحياة بعد القرن السادس المسيحي، بفضل بعثة الرسول ﷺ، ودعوته، وتعاليمه، وجهود أصحابه الذين نشؤوا في عهده، وتربّوا عليه.

وكان قد رفع الجيل الجديد قضية مدعمة بالأدلة إلى محكمة ربه، ضد نفسه، وكان ينبغي أن يحكم عليه بالإعدام لذلك، وكان من المتوقع والمعقول، أن يطوى بساط هذا العالم الواسع المعمور، فقمت مستعجلاً بإعداد بحث دقيق على منهج علمي دقيق، بمراجعة المصادر الموثوق بها، بحضور قلب، وذهن مفتوح، باللغة الأردية، ودعمته بمقتطفات المؤرخين الأوروبيين، الذين يملكون منزلة رفيعة، ولهم وزن في الأوساط العلمية والأدبية، وأثبتُّ فيه أن العالم المتحضر كان يلفظ نفسه الأخير في القرن السادس المسيحي، من أجل موقف حكوماته الخاطىء، وانهيار المجتمعات

وتحطّمها، وعدم وجود حركة إصلاحية دينية قوية، وجماعة من المصلحين والمعالجين للإنسان.

وأكتفي هنا بمقتطفين يصوران الوضع السائد في ذلك العهد إلى حدٍّ كبير.

يقول (روبـرت بريفال):

«لقد غشي أوروبا ليل حالك، من القرن الخامس إلى القرن العاشر، وكان هذا الليل يزداد ظلاماً وسواداً، وقد كانت همجية ذلك العهد أشدّ هولاً، وأفظع من همجية العهد القديم، لأنها كانت تشبه جثة حضارة كبيرة قد تعفّنت، وكانت معالم هذه الحضارة تنطمس، وكان قد قضي عليها بالزوال، وقد أصبحت الأقطار الكبيرة التي ازدهرت فيها هذه الحضارة ولمعت، وأنتجت، وبلغت ذروتها في الماضي، كإيطاليا، وفرنسا، فريسة الدمار والفوضى والخراب».

ويضيف (ج،ج، دينس) إلى ذلك، فيكتب عن العالم المتمدن كله:

«كان العالم المتحضر في القرنين الخامس والسادس للميلاد، واقفاً على حافة الفوضى والدمار، وكان يبدو أن الحضارة التي نمت وترعرعت وازدهرت وأثمرت في مدة أربعة آلاف سنة، على وشك الانهيار والاندثار، ويرجع الإنسان مرة ثانية إلى تلك الوحشية والبربرية، التي تتقاتل فيها القبائل وتتناحر؛ وتندلع نيران الحرب بين الفِرَق والأحزاب، ويُفْقَد الأمن والسلام.. لقد فقدت الأنظمة القبلية القديمة قوة سيطرتها، وزالت سلطتها وهمجيتها، وكانت التقاليد والطقوس التي تبنتها المسيحية، وحافظت عليها، تؤدي إلى التشتت والتمـزّق والهـلاك، بدل الوحدة والتضامن والتماسـك والنظام.. كان ذلك العصر محزناً مؤلماً، فقد كانت الحضارة التي أظلت العالم كشجرة باسقة كثيفة وارفة الظلال، والتي أثمرت أغصانها العلوم والفنون والآداب ـ قد تآكلت جذورها.

ثم ذكرت بعثة النبي ﷺ بعدما قدّمت هذه المقتطفات، وصورت العالم

الذي كان قبل بعثة النبي ﷺ وبعدها بمدة قصيرة، تصويراً يبعث على الخجل والندم، وبينت المآثر الأساسية الغالية العشر لرسالة محمد ﷺ وتعاليمه، التي كان لها دور كبير بارز في قيادة الجيل البشري وتوجيهه، وإصلاحه وبنائه، ورقيّه، وولدت عالماً مشرقاً زاهياً محل العالم الشاحب المنخور الذابل.

ثم ذكرت شهادات المؤرخين الأوروبيين البارزين، واعترافاتهم بدور رسالة محمد ﷺ، القيادي الثوري، أذكر هنا شهادة واحدة منها:

يكتب (جان وليم درير) بصدد تاريخ أوروبا العلمي والفكري:

«لقد ولد في مكة إحدى مدن جزيرة العرب، عام ٥٦٩ للميلاد، بعد أربعة أعوام من موت حستين، رجل عظيم كان له أكبر تأثير على الجيل البشري كله»، ثم ذكرت هجوم التتار الذي لم يقدر حجمه، ولم تعرف مساحته على وجه العموم على العالم المتحضّر، في القرن الثالث عشر للميلاد، واعتبره كثير من الناس محدوداً في تركستان وإيران والعراق.

فيكتب (هيرالدليمب) مؤرخ چنكيزخان، وهو مؤرخ أوروبي موثوق به: «كان يتوغّل الفرسان المغول في أوروبا، ويدوسونها بأقدامهم، وكان قد هرب (بول سلاس) ملك بولندا، و(بيلا) ملك النمسا من ساحة القتال منهزمين، وقتل (ديوك هينري) من ساليسيا مقاتلاً، مع فرسانه اليونانيين في (ليك نتس)، وكانت الحرب هذه قد تجاوزت كل الحدود، وبلغت في ضخامتها إلى حد الحرب العالمية الثانية.. إنها كانت مجزرة عامة لنوع البشر، لم يكن هدفها إلا إبادة الناس والقضاء عليهم».

يقول (هيرالدليمب):

«إن حملة چنكيز خان وغارته الشعواء المدمّرة ألحقت بالمدينة صدمة عنيفة، وخسائر فادحة، وقضت على الحضارة والثقافة في نصف الكرة الأرضية، حتى عادتا بعد موتهما إلى الحياة من جديد، واهتزّت حكومة خوارزم، وخلافة بغداد، ومملكة روسيا، ودولة بولندا لأيام، لو استمرّت هذه

السلسلة الدامية، التي لا يستطيع أحد أن يقارعها عسكرياً، لتمّ القضاء على الثروة العلمية والخلقية والفكرية، التي كانت تبذل عليها جهود جبارة منذ آلاف السنين، وفقاً لبيان المؤرخين الأوروبيين، ولاضطر العالم إلى أن يبدأ رحلته العلمية والفكرية والحضارية من جديد.

ومن الصعب أن يقال: إن استئناف هذه الحياة كان يمكن أم لا، لكن ظهرت معجزة في هذه الظروف، التي كان يسود فيها اليأس، واعتنق التتار الإسلام بأسرهم، وتحضّروا، وتأدَّبوا كأي إنسان مثقف، وأقبلوا على العلم وقدّروه وعزّروه، وحافظوا على الإنسانية واحترموها ونصروها، وأسّسوا الحضارة. وأنشؤوا الحكومات الواسعة والمتحضّرة.

ولا تستطيع أوروبا التي تعتز بحضارتها اعتزازاً كبيراً أن تتخلى عن هذه المنة العظيمة أبداً، إنها ازدهرت وارتفعت في ظل تأثير الإسلام العالمي، الذي ذكرته بإيجاز، وفي ظل صيانة النوع البشري من المحاولات التي بُذِلَت، والغارات التي شنّت للقضاء على الإنسانية، ويتنفس اليوم أيضاً بطمأنينة وهدوء في ظلها، وتعكف على تطوير العلم والفن وتوسيع نطاقهما، ونحن جالسون في هذا الوقت في جوّ يسوده الهدوء والطمأنينة.

ثم انتقدت في هذا البحث الفكرة السطحية العامة التي لا ترى فرض الحظر على حرية الرأي، أو فرض الحظر على حرية الفرد، وتعتبره عملية استبداد وإجبار. والتي لجأت إليها حكومة بريطانيا، ومنحت سلمان رشدي حرية لإبداء عواطفه وآرائه المعارضة للواقع، المؤلمة للقلب، المفسدة للأخلاق، والمنكرة للجميل.

قُدِّم في هذا البحث بيانان لرجال القانون الأوروبيين، عينا فيهما حدوداً لحرية الرأي الذاتي، ووضعا لها شروطاً، وصرّحا أنه لا ينبغي أن يعطى أحد حرية مطلقة.

فقال (سينزبليك استون) في كلمته التي ألقاها في أمريكا: إن الكتابات الخطيرة الإجرامية ـ التي تعتبر بعد مرافعة محايدة عادلة ـ ذات ضرر وخسارة، تلزم المعاقبة والتعزير عليها للحفاظ على الأمن والسلام والسلطة والديانة، لأنها هي الأسس التي تقوم عليها الحرية المدنية، فضمير الفرد حر، مكفولة له الحرية، لكن التعزير على استخدامها السيِّئ من أهداف القوانين الجنائية».

وذكر في هذا البحث أن المفكرين الأوربيين قد أكّدوا على القيام بواجب الشكر والامتنان، والاعتراف بالفضل والإحسان، واعتبروا ذلك من ميزات الطبيعة البشرية، ومن مقتضيات الكرم والنبل.

وفي نهاية الجلسة أنشدت قصيدة قوية مثيرة للدكتور محمد إقبال لترويح الأذهان، وإنعاش الروح والقلب، وإزالة السآمة والملل.

وأقدّم هنا ترجمة للبيتين الأولين منها، فيقول الدكتور محمد إقبال:

«اكتست صحراء العرب بفضل هذا النبي الأميّ ﷺ حُلّة أنيقة، وأنبتت زهرة يانعة، إن عاطفة الحرية نشأت في ظل هذا النبي ﷺ، بل ترعرعت ونمت في حجره، وهكذا كان يوم زهو العالم المعاصر مديناً لأمسه».

قدم هذا البحث مساء الثاني والعشرين من شهر أغسطس سنة ١٩٨٩ للميلاد، في قاعة المركز الإسلامي بجامعة أكسفورد بالإنجليزية، وقدمت أيضاً ملخص هذا البحث باللغة العربية نظراً لحضور عدد كبير من إخواننا العرب، وكان قد حضر بهذه المناسبة عدد وجيه من المثقفين الذين ينتمون إلى الهند وباكستان، وبريطانيا وإفريقيا، ونال هذا البحث آذاناً صاغية وقلوباً واعية.

وقدّم هذا البحث نفسه في المركز الإسلامي العالمي، الذي يقع في شارع الحديقة بلندن، بالأردية والعربية، ونال إعجاب المستمعين إليه، والشيء الذي يجدر بالذكر هنا هو أنه لم يأتِ اسم سلمان رشدي في أي موضع في هذا البحث، لأنه كان لا يليق بأن يُذكر، لكن الذين كانوا يستمعون لهذا البحث

كانوا يعرفون الواقع الذي دفع إلى عرض هذا البحث، وإلى من يشار إليه بوصفه سيِّئ الأدب. . الوقح، الماجن.

عدت بعدما انتهيت من حفلة المركز الإسلامي بجامعة أكسفورد، مع مرافقي العزيز الأستاذ محمد الرابع الحسني الندوي، والعزيز محمد عثمان الحيدر آبادي إلى منزل مضيفي القديم، الأستاذ محمد مسرور طبقاً لعادتي، وكان من المقرر أن أسافر إلى الجزائر من هنا، للمشاركة في الملتقى الفكري الذي كان يُقام في التاسع والعشرين من شهر أغسطس إلى الخامس من شهر سبتمبر سنة ١٩٨٩م، بعنوان: «نحو مجتمع إسلامي معاصر»، كنت أرسلت مقالتي بهذا العنوان من الهند من قبل، وكانت المقاعد قد تمّ حجزها لي وللأستاذ محمد الرابع الحسني الندوي، لكن لم يستطع المهندس محمد عثمان الحيدر آبادي أن يحجز مقعده رغم ما بذل لذلك من مجهود كبير، وكانت صحتي متدهورة في ذلك الحين، فلذلك قرّرت أن لا أشارك في هذا الملتقى، وأخبرت المسؤولين عن الملتقى بذلك، ورجعنا سالمين بحمد الله سبحانه وتعالى، من لندن إلى دلهي مباشرة.

* * *

حركة وضع حجر الأساس لمسقط رأس راما

وعواقب اضطرابات (بهاكلفور) الطائفية

كان قد دنا موعد الانتخابات العامة، وكان يقتضي أن يكون الجو هادئاً معتدلاً متّزناً، واعياً في البلاد، لكن انفجر هياج حركة بناء معبد راما في أرجاء الهند كلها، ولاسيما في ولاية أترابراديش، وهُـزّت البلاد كلها هزّاً عنيفاً، وكان يبدو كأنّ زلزالاً عنيفاً هزّ المنطقة أو بركاناً انفجر، وانطلقت منظمات الأغلبية المتطرّفة كمنظمة شيوسينا، ومنظمة وشوهندوبريشد، ومنظمة (آر ايس ايس)، بحُرِّية مطلقة، تنفخ النار، ولم يكن هناك أي رادع في إشعالها لنيران العصبية والكراهة، وإثارتها للعاطفة الدينية السلبية في قلوب رجال الأغلبية في البلاد كلها، وبث كراهية المسلمين بإلقاء الكلمات المثيرة العاطفية، وكانت تروّج وتشيع أن مصير هذه البلاد، وعزّ الشعب الهندوكي يتوقف على هذه القضية، وكان لا ينبغي أن يُسمح لقادة الحركات المتطرفة بإصدار حكم قاطع، واتّخاذ خطوات حاسمة في قضية كانت مرفوعة إلى المحكمة لإصدار حكمها، ولكن الحملة استمرّت، وتكثّفت وتفاقمت، وكانت الإعلانات والبيانات، والتصريحات في الاجتماعات تعطي انطباعاً بأن المسجد البابري سيهدم يوماً، ويبنى على أنقاضه معبد راما.

وفي جانب آخر، لم تتخذ الحكومة المركزية أي إجراء يُرضي الفريق المنكوب، عندما حدثت الاضطرابات الطائفية الدامية العنيفة في بلدة (بهاكلفور)، ولم تبدِ عزمها على منع حدوث مثل هذه الأحداث المؤلمة في المستقبل، ولم تتخذ حتى إجراء إقصاء رجال أجهزة الأمن وضبّاط الشرطة،

والمسؤولين عن الإدارة في الولاية، أو تأديبهم أو إدانتهم، بعد أن تلوّثت أيديهم بدماء الأبرياء، وزاد الطين بلّة ما أفادت به الأنباء، التي أفادت أن (راجيف غاندي) رئيس وزراء الهند في ذلك الحين، حينما قام بزيارة ولاية (بهار) إثر هذه الاضطرابات الطائفية، أمر بإعادة الموظفين المعزولين إلى مناصبهم ووظائفهم، بدلاً من أن يعاقبهم أو يفصلهم عن العمل، ويتّخذ لهم إجراءات تأديبية، فجرح ذلك مشاعر المسلمين وأحاسيسهم مزيداً، وشعروا بأن الحكومة تتغاضى عن هذه القضية وتتغافل.

إن الحكومات والأنظمة التي لا تقوم على المبادئ والمُثُل، وعلى المستوى الرفيع من الخلق، وعلى الحق المحض، والعدل والقسط، بل تعتبر الفوز في الانتخابات غايتها المقدمة على كل شيء، وتعتبر كسب تأييد العامة، واستمالة الناخبين بأي ثمن، هدفَها الأصيل، تضطر إلى أن تغمض عينها عن الحقائق الثابتة، والقيم الخلقية، والمقتضيات القانونية والديمقراطية والعدل، ولا يهمها إلا أن تتولى الحكم والقيادة مرة ثانية، لكن التاريخ يشهد بأن هذا المنطق ربما ينقلب، ويأتي بنتائج معكوسة، ففقدت هذه الحكومة تأييد العنصر الذي كانت تحسبه أنه لم يعد يقدر على أن يلعب دوراً حاسماً في الانتخابات المقبلة، ولم تكسب تأييد العنصر الذي كانت تعتبره أداة ضغط لترجيح الكفة، لإخفاق الحكومة في الاستجابة لمطالبه، بصفتها حكومة ديمقراطية علمانية، فظهرت النتيجة أن خسرت في هذه الصفقة، وكان نصيبها الخيبة والفشل، ويبدو أن الحكومة المركزية (من أجل ما أشار عليها مستشارها، ويذكر في هذا الصدد اسم وزير الداخلية سابقاً السيد بوتا سنكه) اختارت منهجاً سياسياً محضاً، ولم تتخذ ضد المنظمتين المتطرفتين موقفاً يليق بسياسة هذه البلاد العلمانية، ويقتنع به المسلمون.

اضطرب المسلمون في هذه الأوضاع، وازداد سخطهم على الحزب والحاكم وكراهيتهم له، وفقدت الحكومة ثقتهم، حتى عزّ على الذين كانوا موضع ثقة المسلمين، وكانت لهم مكانة في نفوسهم إلى حد ما، أن يلفظوا

كلمة تؤيّد المؤتمر الوطني.

وكنت أنا وفضيلة الشيخ منّة الله الرحماني الأمين العام لهيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند، وأعضاؤها الآخرون، والعلماء الكبار، والقادة الدينيون، نشعر ونعترف بمدى عناية راجيف غاندي شخصياً بقضية المرأة المطلّقة المسلمة، وأنه كيف قام بتغيير هذا القانون باتّخاذ خطوة جريئة، حسب ما طالبت به هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية.

وإن الطائفة التي ينتمي إليها المسؤولون عن هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية وأعضاءها، هي طائفة تعتبر الشكر والامتنان والعرفان بالجميل واجباً دينياً خلقياً، وذلك من تقاليدها وطبيعتها الدينية، لكن الوضع كان مكهرباً للغاية، وكان رد فعل المسلمين عنيفاً، وعواطفهم ثائرة مضطرمة من جرّاء ما حدث في بلدة «بهاكلفور» من اضطرابات طائفية، ولم يُمحَ أثرها من الأذهان، وما حدث في «أيودهيا» من حادث وضع حجر الأساس لمعبد راما.

فلم يكن أحد يستطيع في مثل هذا الوضع أن يؤيّد المؤتمر الوطني، أو يشير على أحد بتأييد الحكومة المركزية، ولم أجد في نفسي أيضاً ذلك الجنوح أو الميل، الذي كان ينتابني لتأييد حكومة المؤتمر الوطني، وخاصة بعد قضية المرأة المسلمة المطلّقة، ونتيجة لهذا الوضع غير الطبيعي، والتيار المعارض للمؤتمر الوطني، وتأثير الأقلية المسلمة وعدم اقتناعها، ثم إقصاء الحزب الحاكم عن الحكم في الانتخابات العامة، التي جرت في الفترة ما بين ٢٤ ـ ٢٦ فبراير سنة ١٩٨٩م، وإن كان راجيف غاندي فاز فيها شخصياً، وفاز عدد كبير من مرشحي حزبه، لكن لم يستطع المؤتمر الوطني إحراز الأغلبية التي تؤهله لتأليف الحكومة، وحلَّ مكانه حزب جنتا الائتلافي، ونجح في تشكيل حكومة تحت رئاسة المستر (وي بي سنكه)، بتأييد من أحزاب مختلفة، وإن كان هذا الائتلاف يشتمل على بعض القادة، الذين كانوا يُعرَفون بعدائهم للإسلام والمسلمين، وميولهم إلى الطائفية، وكانوا يريدون سيطرة الهنادك على هذه البلاد كلّياً، إلاّ أنّ المستر (وي بي سنكه) عُيِّن رئيس وزراء الهند الجديد.

كان هذا التحوّل في القيادة السياسية مفاجأة، ولم تكن هذه النتائج متوقعة، فكان من الطبيعي أن تكون موضع حذر واهتمام لأصحاب الفكر بصفة عامة، وأهل الوعي والشعور من المسلمين بصفة خاصة، وكانت الظروف الجديدة تؤدّي إلى اضطراب نفسي، كما بعثت على الآمال والتطلُّعات لدى بعض الدوائر، فكان بعضهم يبدي سروره وبهجته على هذا التعبير، وآخرون يبدون اليأس والقنوط، وعلّق بعضهم بالحكومة المركزية الجديدة الآمال، وطرأ على الآخرين اليأس وجعلوا يتشاءمون منها.

فرأيت من واجبي في هذه الظروف العويصة أن تُزال الشكوك والأوهام، وتُعدّ الأذهان لاستقبال العهد الجديد، وتعين جهة العمل للاستفادة من هذا التغير والاعتبار منه، وأرشد إلى الدرس الذي يجب على الحكومة نفسها، والشعب الهندي أن يتلقاه من تغير الحكومة، وما هو المنهج الصحيح الذي ينبغي للحكومة الجديدة أن تختاره، فكتبت بهذا الصدد مقالاً بعد إعلان نتائج الانتخابات بعدة أيام تحت عنوان: «درس من انتقال الحكم، والمنهج الصالح لقيادة البلاد»، وأرسلت هذا المقال إلى الصحف والمجلاّت المختلفة، ونشرته صحف كثيرة، ثم نقل هذا المقال إلى اللغة الإنجليزيـة، وسلمته إلى السيد محمد يونس سليم، ليقدّمه هو بنفسه إلى المحترم (وي بي سنكه) رئيس وزراء الهند آنذاك، ويتأكد من أنه قرأه كله في حضوره، وهكذا حَدث، فقرأ رئيس الوزراء الجديد هذا المقال كله بين يديه، ووضع العلامات على نقاط هذا المقال المهمة، وتلقيت رسالة منه، يصرّح فيها أنه يوافق على أكثر ما جاء في هذا المقال، وسيسعى للعمل به، وهذا المقال يعتبر وثيقة تاريخية، يعرف به المؤرخ القادم أوضاع ذلك العصر، وعواطف المسلمين، ووجهات النظر الإيجابية البنّاءة، وذلك ليساعد على تسجيل التاريخ، فأكتفي هنا بمقتبسات من هذا المقال:

تغيُّر النظام السياسي عنصر يبعث على التفاؤل:

إنَّ تحوُّل الحكومة وانتقال القيادة السياسية والسلطة وإدارة البلاد من

حزب إلى حزب آخر ليس أمراً غريباً، ولا بدعاً في أي بلد ديمقراطي، بل هو أمر متوقع وعلامة صالحة للنظام الديمقراطي، فإن بقاء السلطة والإدارة في أيدي رجال حزب واحد إلى مدة طويلة سواء كانوا جديرين به أم غير جديرين، يشير إلى أن البلاد تبع لحزب واحد، وأن شعبها تحت رحمة جماعة واحدة، سواء رضي بها أم لم يرضَ، وسواء اعتنى ذلك النظام بمشاكله أو أهملها، ولو انفلت زمام السلطة والحكومة (نتيجة لأخطائه وإخفاقه، أو بتأثير دعاية مكثفة من المعارضة) وانتقل الحكم إلى حزب آخر، فهذا التغيير يثبت أن في إمكان الحزب السابق أن يستعيد مكانته المفقودة باجتهاده وبجهوده المجددة وفهمه للواقع، وتصرفه حسب الظروف، وإعادة الثقة في النفوس، بإثبات كفاءته لحل المشاكل، كذلك لا يستغرب إذا فقد الحزب الحاكم القيادة، إذا أصيب بنفس الأدواء والعلل التي كانت قد أصابت الحزب الحاكم السابق، ولم يفِ بالوعود.

وبهذا الاعتبار فإن النظام الديمقراطي لا يهيّئ للأحزاب السياسية فرص بذل الجهود والمجاهدة المتواصلة للتمكن على عرش القيادة فحسب، بل إنه يدفع الأحزاب المختلفة إلى إعداد نفسها للصالح الأصلح، والنافع الأنفع، ولإثبات صلاحيتها للاضطلاع بأعباء السلطة، ولا شكَّ في أنَّ هذا الوضع يخدم مصالح البلاد والشعب، فإن استيلاء حزب واحد على منصة القيادة وسيطرته على الإدارة إلى مدة طويلة بلا جدارة واستحقاق، يولّد مفاسد ونقائص متنوعة في النظام، ويولّد هذا الاحتكار السياسي في الحكومة الديمقراطية، والحزب الحاكم الدستوري الأدواء والعلل التي كانت تتولد في النظام الوراثي للحكم، وفي الأسرة الحاكمة في القديم، وتاريخ كل بلد مليء بشواهدها وأمثالها، ويبدو أنّه فطرة الإنسان التي فطر عليها، ومحاولة التجنب منها والتغلّب عليها أمر غير طبيعي ومستبعد.

الحاجة إلى التوعية العامة :

إن الوضع السائد اليوم يتطلب أن تبذل جهود موسعة على المستوى

الشعبي، ولا تقتصر على الإجراءات الرسمية والسياسية، فإن من مأساة أكبر حزب سياسي (المؤتمر الوطني الهندي، الذي بفضله وتحت رايته نالت البلاد الحرية) أنه قصَر جهوده ونشاطه على أعمال الحكومة والإدارة، إنه بدأ كحركة شاملة على النطاق الشعبي وكان فيه سرُّ قوته، ولكن الحزب الوطني انكمش إلى حزب رسمي محدود، لا تعنيه إلا أمور الحكومة والإدارة، فالحاجة ملحّة الآن إلى القيام بجولات ورحلات في مدن مختلفة من البلاد، وإلى إلقاء الخطب، وعقد ندوات ولقاءات شعبية، واستخدام المطابع ووسائل الإعلام لتعبئة الرأي العام، وتكوين الذهن ضد هذا الاتجاه، ولا بد من تنقية الكتب الدراسية المقررة للمدارس الرسمية من الدروس والمواد التي تسمم عقول الناشئة من الطلاب، وتزرع فيها الكراهية الطائفية التي تنمو في الذهن بمرور الأيام وتقدّم العمر، وأن توضع في المقررات من مستوى المدارس الثانوية إلى الجامعات، الدروس والمواد الدراسية التي تزرع في القلوب احترام الإنسانية، والمحبة الصادقة للوطن، والصداقة الإنسانية، وتحسّن أداء حقوق الجار.

تحديد نشاطات الجماعات التي تبث الكراهية :

ولا يتمّ هذا العمل إلا إذا قامت الحكومة بوضع حد لنشاطات الطوائف والجماعات، التي تحمل الأفكار والاتجاهات التي تتنافى مع روح التضامن القومي، ولا تسمح لها بأن تعبث بعواطف الشعب وتهيجه وتلهبه باسم الدين والعقيدة.

ومن الحقيقة المُرّة أن بلادنا العظيمة تمرّ حتى الآن بعهد الطفولة، بالنسبة إلى الوعي السياسي وبعد النظر، ومن أجل ذلك يجب تحديد عقد الحفلات الدينية، والنعرات والهتافات الدينية، التي تسبب حدوث الاضطرابات الطائفية في أغلب الأحيان، وتولد التنافر والتصادم والصراعات الطائفية، فلا بدَّ من فرض الحظر عليها أو تحديد نشاطاتها.

إثارة الفتن الخامدة ليست في صالح البلاد :

ويبدو من المناسب أن ألفت نظر الحكومة إلى حقيقة أخرى، قد صرَّح بها كاتب هذه السطور في رسالة وجَّهها إلى رئيسة الوزراء الأسبق المحترمة «أندرا غاندي»، أن الرحلة بالتاريخ إلى الخلف تخلق مشاكل وأزمات معقّدة، لأنَّه كالأسد النائم، وإيقاظ هذا الحيوان المفترس ليس من الحكمة والفطنة، وكذلك مطالبة إعادة معابد الطوائف المختلفة إلى صورتها السابقة تهيج البلاد وتلهب المواطنين، كنت قد أشرت أولاً على المحترمة «أندرا غاندي»، ثم قلت لابنها المستر «راجيف غاندي» أن تعلن الحكومة بكل صراحة أن معابد كل طائفة تبقى على حالها كما كانت قبل تقسيم البلاد (١٥ أغسطس سنة ١٩٤٧م)، ولا يسمح لطائفة ما بتحويل معبد طائفة أخرى إلى صورته القديمة المزعومة.

ونودُّ أن نشير على الحكومة والإدارة الجديدة أن لا تسمح بتغيير أو تحويل هذه المعابد، ولا تسمح لطائفة بالاستيلاء عليها والأماكن المقدّسة الأخرى، وأن تسافر بالتاريخ إلى الأمام لا إلى الخلف، لأن الحياة تتدفق بالقوة والحيوية، والعالم يتقدّم بسير حثيث، وبلادنا التي تواجه قضايا ومشاكل معقدة، في حاجة إلى تجنب أعمال تزيد الوضع تعقُّداً. لقد كانت هذه البلاد جديرة بأن تتبنّى الود، والصداقة، والأمن والسلام، والقيم الخلقية، وعليها أن تمثّل دورها في العالم للقيادة الخلقية، التي تضمحل في العالم اليوم، وأخفقت الدول الكبرى في إثباتها وإقرارها.

إصلاح الجهاز الإداري :

بالإضافة إلى ذلك أريد أن أسترعي انتباهكم أيضاً إلى اضطراب حبل النظام، وعدم الشعور بالمسؤولية، وفشوّ الرشوة، والحبّ للمال والجاه في هذه البلاد قد بلغ ذروته، فينبغي أن تُشَنّ حملة شعبية لعموم البلاد، والقيام بحركة خلقية، وتنشيط الجهاز الإداري، وتوعية المسؤولين عنه، وإيقاظ

الشعور بالمسؤولية، بحيث يشعر الموظّفون الرسميون والإداريون بأن لا مجال لذلك في هذه الحكومة، وذلك يعيد إلى الشعب الثقة بنفسه، ويزيد الاحترام للحكومة، ويؤدي إلى تغيُّر رائع، لايكون في صالح البلاد فحسب، بل يكون في صالح الحزب الحاكم أيضاً.

الطريق إلى الفوز الدائم :

وأخيراً أريد أن ألفت نظركم كرجل متديّن، ناصح، يؤمن بالصدق والإخلاص، ويطَّلع على تاريخ الأمم والدول، إلى هذه الحقيقة: إن النجاح الحقيقي والنصر الدائم يضمر في الإخلاص والصدق، والعمل بالمبادىء والأصول، وإن كان يبدو خلاف ذلك بادىء الأمر، وفي النظر السطحي العابر، وينبغي أن لا ننسى أن الشيء الذي يثير غضب فاطر هذا الكون وخالق البشر، والذي يتفق عليه جميع الأديان، هو الظلم، والبربرية، وسفك الدماء، وعدم الثقة، وهذا هو الشيء الذي كان أمراً حاسماً، تقرَّر عليه مصير الدول الكبرى، والإمبراطوريات التي لها جولة وصولة.

أرجو أن تنال هذه النقاط والنصائح المخلصة شيئاً من التفكير وإمعان النظر منكم، ولم يدفعني إلى تسجيل ذلك إلا الإخلاص، وحُبُّ البلاد، ومرارة الخبرات السابقة، والشعور بالخطر المستقبلي لهذه البلاد؛ وليس وراءها أيّ هدف سياسي، أو أيّ مصلحة شخصية، أو رغبة في الحصول على العزّ والمنصب.



ذكـريــات

عام ١٩٩٠

الرحلة إلى الحجاز

كان من المُقرَّر أن تُعقَد دورة المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي في ٢٧ يناير سنة ١٩٩٠م، المصادف ٢٩ جمادى الآخرة سنة ١٤١٠هـ، وخلال فترة انعقاد هذه الدورة تعقد أيضاً اجتماعات المجلس العالمي للمساجد والمجمع الفقهي، وأنا عضو في جميع هذه المجالس الثلاثة، واتّخذت الرابطة إجراءات سفري، وكان يرافقني في هذه الرحلة العزيز الأستاذ محمد الرابع الحسني الندوي، واخترنا طريق بومباي للسفر إلى السعودية من أجل بعض التسهيلات هناك، فتوجهنا من لكهنؤ إلى بومباي، في ٢٣يناير سنة ١٩٩٠م، ومن ثم إلى جدّة، وشاركنا في اجتماعات المجلس العالمي للمساجد بعدما شاركنا في جلسات المجلس التأسيسي.

ولم نتمكن من الحضور في جلسات المجمع الفقهي، لأني كنت على عجلة لبعض الأسباب القاهرة للعودة إلى الهند، وكانت أوضاع الهند تستدعي عودتي عاجلاً، فتوجهنا إلى المدينة المنورة مع نخبة من إخواننا وأصدقائنا، ومكثنا هناك أسبوعاً كاملاً، أدَّينا خلاله صلاة الجمعة في مسجد النبي ﷺ، واكتفينا بالحضور إلى طيبة، والحضور في المسجد النبوي والصلاة والسلام على النبي ﷺ.

لكننا قد ذهبنا إلى مستشفى الملك فهد، لعيادة صديقنا الفاضل الشيخ محمود الحافظ، بصورة استثنائية، لأنه كان مصاباً بمرض خطير، ويعاني من ألم شديد[1].

(١) حمدت الله على هذا التوفيق، فقد انتقل إلى رحمة الله بعد أيام من هذه الزيارة.

ثم عدنا من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة، وتوجَّهنا إلى الرياض في طائرة شخصية لسعادة خالد زينل، مع سعادة الشيخ ومعالي الدكتور عبد الله عمر نصيف، وعالمين كبيرين من تاشقند، وأقمنا هناك في قصر المؤتمرات وقابلنا خلال هذه الزيارة القصيرة عدداً من المسؤولين، وكان من بينهم، صاحب السمو الأمير عبد الله بن عبد العزيز آل سعود (ولي العهد)، وسمو الأمير سلمان (حاكم الرياض)، وسمو الأمير أحمد(نائب وزير الداخلية).

وكان قد تقرر لقاؤنا مع خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز، لكن صادف قدوم العاهل الأردني الملك حسين، في ذلك الوقت الذي حُدّد لنا للقاء حول أمور مهمة عاجلة، فلم تتحقق هذه الزيارة.

واجتمعنا خلال هذه الفترة التي دامت ثلاثة أيام بأعضاء رابطة الأدب الإسلامي العالمية، وعقدت عدة لقاءات، وزرنا جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية على دعوة من مديرها الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، وكان هناك حفل وداع للمتخرّجين ـ من الوافدين ـ من هذه الجامعة في الليل، فطلب مني معالي الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي أن ألقي كلمة في هذه المناسبة، فألقيت كلمة استجابة لطلبه، ودعوت المتخرجين إلى الشعور بمسؤوليتهم التي وقعت على كواهلهم، وتأدية هذه المسؤولية بعد عودتهم إلى بلادهم، وأن يمثّلوا العلم والدين تمثيلاً صحيحاً، ويقاوموا الأخطار والتحدّيات التي تحدق بالمجتمع الإسلامي، ويشتغلوا بالدعوة والإرشاد، ويقوموا بتنقية دينهم من الشوائب، ويقدّموا صورة صادقة نزيهة للحياة الإسلامية، ويضعوا قول الخليفة الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنه نصب أعينهم، وهو: «أينقص الدين وأنا حيّ؟!».

ثم رجعنا من الرياض إلى مكة المكرمة، وتوجهنا من جدة إلى بومباي في ١٨/ يناير، ومن هنا إلى لكهنؤ في ٢٠/ فبراير.

وكان مما تمتاز به هذه الرحلة؛ هو أن أتيحت لنا فرصة للحضور في

الحفلات الترحيبية الثلاث، وإلقاء الكلمات فيها على خلاف العادة، وذلك لأنه قد قدم الدكتور فرحان أحمد النظامي (الأمين العام للمركز الإسلامي بأكسفورد) إلى الحجاز بهذه المناسبة، فأراد هو نفسه ومعالي الدكتور عبد الله عمر نصيف أن ينتهز هذه الفرصة للتعريف بالمركز الإسلامي، فأقام في منزله بجدة حفلاً، ودعا وجهاء مدينة جدة وأعيانها وتجّارها الكبار إلى الحضور فيه.

فقمت بالتعريف بالمركز الإسلامي باللغة العربية، كما قدّم الدكتور فرحان أحمد النظامي كلمة باللغة الإنجليزية، ذكر فيها أهمية المركز الإسلامي والحاجة إلى إنشائه، وبعد ذلك عقد سماحة الشيخ خالد زينل اجتماعاً في منزله، حضره أعيان مدينة جدة والتجار الكبار، الذين يملكون عاطفة دينية، وشعوراً إسلامياً، وألقيت أنا والدكتور فرحان أحمد النظامي كلمة في هذه الجلسة أيضاً، وقدّم الدكتور عبد الله عمر نصيف كلمة في التعريف بنا وبالمركز الإسلامي للمشاركين في هذه الجلسة.

وبصرف النظر عن هذا الهدف المنشود، دعا سعادة الشيخ إبراهيم أمين فودة، الذي كان أول مدير للإذاعة السعودية، وخلال اشتغاله بهذا المنصب كانت أذيعت سلسلة من خطبي من الإذاعة السعودية، على دعوة من معالي الشيخ محمد سرور الصبان وزير المالية سابقاً، والأمين العام الأول لرابطة العالم الإسلامي، وكان عنوانها العام: «بين العالم وجزيرة العرب»، وكنت ألقيت محاضرة بعنوان: «من غار حراء»، ومحاضرة أخرى حول «الدكتور محمد إقبال»، فدعا الشيخ إبراهيم فودة أعيان مكة المكرمة ووجهاءها ونخبة من أدبائها وشعرائها وكتّابها، وكان يهدف بذلك إلى أن يقوم بالتعريف بالضيف والتكريم له والترحيب به، فأنشدت القصائد، وألقيت الكلمات الترحيبية، وألقيت أيضاً كلمة شكر.

وبدأت كلمتي بقولي: إن من معجزات بعثة النبي ﷺ المحضة، ومعجزة القرآن الكريم الخالدة الخالصة، أن يتمكن رجل هندي من الردّ على كلمات أمثالكم من العلماء والأدباء، باللغة العربية الفصحى مع أنه لم يولد في بلد

عربي بل ينتمي إلى بلد يعتز بلغته وثقافته منذ قرون طويلة، ويتعصب لها، بحيث أصبح من العسير أن تبقى لغة (أُردو) تزدهر، رغم أنها لغة نشأت في ذلك البلد، وذلك بفضل الجهود الجبَّارة التي قام بها علماء هذا البلد في خدمة اللغة والعلوم الدينية، جهوداً يندر نظيرها في العالم العربي.

فالعالم الفاضل السيد مرتضى البلكَرامي (المعروف بالزبيدي) ألّف شرحاً في عشرة مجلّدات باسم «تاج العروس في شرح القاموس المحيط»، وهو أشهر قاموس بالعربية، وألّف الشيخ العلاّمة محمد علي التهانوي على المصطلحات العلمية كتاباً بعنوان: «كشّاف اصطلاحات الفنون»، وهو كتاب اعتبر من أدقّ الكتب وأوسعها وأوثقها في هذا الموضوع، فلو كان في العالم خمسون دولة عربية، لغتها الرسمية والعلمية اللغة العربية، ويرجى من الإلمام بها والإتقان فيها لمصالح سياسية ومنافع مادّية.. لما جذبت رجلاً مسلماً هندياً إلى تعلمها والنطق بها والكتابة فيها، مثل ما جذبته هذه اللغة بصفتها لغة القرآن الكريم، ولغة النبي ﷺ؛ وهذا كله مما أفاض علينا محمد ﷺ، الذي ولد في هذه الأرض المباركة الطيبة.

وفي ليلة ٢٢/ من شهر رجب، المطابق ١٨/ فبراير، جمع الشيخ عبد الله علي بصفر، في دار واسعة ـ نخبة من كبار العلماء وقادة الفكر والعاملين في حقل الدعوة الإسلامية، وألقيت بهذه المناسبة كلمة مفصّلة، وكان موضوعها «حاجة العالم الإسلامي إلى مجتمع مثالي»، ونقدم هنا قطعاً من هذه المحاضرة، لما تحويه من معانٍ عميقة، وحقائق راهنة، وتوجيهات مثيرة.

حاجة العالم المعاصر إلى مجتمع مثالي إسلامي أفضل:

إن الحاجة الكبرى اليوم أيها السادة، هي وجود مجتمع مثالي نموذجي، يرضاه الله تبارك وتعالى، ويكون في صالح الإنسانية، ويكون نموذجاً، بل مرآة للتعاليم الإسلامية في العقائد أولاً، ثم الأخلاق والمعاملات وشعب الحياة.

هذا المجتمع مفقود، لا أقول معدوم، وإني أعيذ نفسي أن أقول هذه الكلمة، ولكنه مجتمع مطلوب في الواقع، ومجتمع محتاج إليه، إنه لا يغيّر وضع العالم في هذا الوقت شيء، مثل ما يغيّر وجود هذا المجتمع المثالي الإسلامي؛ وإنّ الإسلام ما شقَّ طريقه إلى الأمام، كما تعرفونه جميعاً ـ ولا أقول إني أزيد في معلوماتكم ـ ما شقَّ طريقه إلى الأمام، وما فتح الله له هذه الفتوح العظيمة، التي لا تزال موضع دهشة المؤرّخين والمبصّرين والناقدين، ولم يستطع الإسلام أن ينشىء نمطاً جديداً من الحياة، وأن يجلب الشعوب والأمم، والعقول والقلوب، والنفوس والأرواح، في كمّ وكيف ليس لهما مثال في التاريخ الإنساني، لم يستطع الإسلام أن يُنجز أو يحقّق هذا المطلوب، ويصل إلى ما وصل إليه في الماضي، ولا تزال له آثار باقية ـ بمجرَّد تعاليمه وتوجيهاته، ولا بمبادئه ومُثُله؛ بل بالمجتمع الحيّ المتحرّك الذي يسعى على القَدم، ويتكلَّم باللسان، ويعمل باليد، ويُشعَرُ بوجوده في الحياة في الخارج.

لقد كان هذا المجتمع مفقوداً بل معدوماً منذ قرون، بل منذ آلاف السنين، وكانت التعاليم الخُلُقيّة في الصحف السماوية، إذا كانت هذه الصحف السماوية على أصلها، وإلا ضاع منها الكثير وحرّف منها الكثير، ولكن لم يكن يوجد مجتمع يتنفّس فيه الإنسان، ويشمُّ فيه رائحة الإيمان، ويشعر بالنَّفَس الإيماني والشعور الإيماني، وتملأ جوارحه، وتغمر قلبه نفحات ربّانية، نفحات روحانية، يشعر في ذلك بالسعادة الحقيقية، ويشعر بأنه انتقل من الجحيم إلى الجنة، ومن الشقاء إلى السعادة، ومن العذاب إلى النعيم.

هذا المجتمع الذي أوجده محمد ﷺ، كان منطلَقُه المدينة المنوَّرة، ثم امتدّ هذا المجتمع حتى تخطَّى الحدود، وبلغ أقصى الأرض، هذا المجتمع هو الذي جلب القلوب والنفوس إليه، وكان أكبر برهان؛ وإن ألف برهان في جانب، وألف دليل عقلي في جانب.. ووجود هذا المجتمع، ووجود هؤلاء الأشخاص الذين كانوا يمثّلون هذا المجتمع عملياً كان كافياً.

كان الإنسان إذا دخل هذا المجتمع، انجذب إلى هذا المجتمع بقلبه وقالبه، وعشق هذا المجتمع، وما أحبَّ أن يفارق هذا المجتمع، وأراد أن يعيش فيه ويموت فيه.. يُروى عن سيدنا الإمام ابن شهاب الزُّهري، وهو من كبار التابعين، وممن عليه الاعتماد في رواية الحديث، يقول: «لما كانت الهُدنة، ووضعت الحرب أوزارها، وأمن الناس، وكلم الناس بعضهم بعضاً، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، ولقد دخل في تلك السنتين مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر».

لقد ارتقت المدنية كما تعرفون، إنها وصلت إلى أوجها، إلى آخر نقطة، واستطاع الإنسان أن يسبح في الجو، واستطاع أن يصل إلى القمر، كما يقول الدكتور محمد إقبال، «إن الذي أسر أشعة الشمس، ووصل إلى القمر، لم يعد يحسن أن يمشي على الأرض كإنسان».

إن القادمين من الغرب لا يدهشون إذا دخلوا مطاعمنا وفنادقنا، عندهم فنادق أكبر وأرقى من هذه الفنادق ومن هذه المنازل، ولكنهم يجلّون ويقدّرون ويخشعون ـ في بعض الأحيان ـ إذا رأوا هناك حياة صادقة بسيطة، بعيدة عن التصنُّع والتزخرف والتأنّق الزائد، وعن البهرجة الماديّة وعن المظاهر اللمّاعة؛ لأن الحقيقة تغلب على المظاهر، أمّا إذا كانت المظاهر غالبة على الحقائق، فهم الذين اخترعوا هذه المظاهر، ومنهم استوردنا هذه المظاهر، وهم أهل البضاعة، فلا يقيمون لها وزناً كبيراً، أما إذا دخلوا هنا ورأوا السكينة تغشى المدينة كلها، بدأت قلوبهم تشعرهم بأنها تشعر بسكينة، تشعر بالخشوع لله تبارك وتعالى، تشعر بالاحترام للإنسانية، تشعر بالتواضع والبساطة، هناك يخضعون ويدخلون في الإسلام أفواجاً، وهكذا دخل الناس في الإسلام أفواجاً، رأوا حياة بعيدة عن مخيّلاتهم، وبعيدة عن تجاربهم كلَّ البُعد.. هؤلاء بشر مثلنا لا فرق بيننا وبينهم، يجوعون ويعطشون ويمرضون ويصحّون، هم خاضعون للنواميس البشرية، ولكنّهم كأنّ هناك عالماً آخر أمامهم.

إن الثورة في النظام الشيوعي من أهم الأحداث وأعظم الثورات التي وقعت في هذا القرن، الثورة التي حدثت في الاتحاد السوفيتي، الذي كان الداعي الأول للاشتراكية والشيوعية، وأكبر مختبر لنظامها، ومنطلقاً لنشاطاتها ودعواتها نظرياً وأصولياً، عملياً وتطبيقياً، فقد حدثت هذه الثورة في هذه السنة ١٩٩٠م، بعدما تولى الرئيس ميخائيل غورباتشوف حكم البلاد، وتولى قيادة الحزب الاشتراكي، وأخذ في الإشراف على الأمور الإدارية للبلاد.

كان هذا الحادث غريباً بعيداً عن الخيال، لم يكن أحد يستطيع أن يتصوّره أو يتنبّأ به قبل مدة قريبة، وكانت الأوضاع تشير إلى بقاء ذلك النظام لمدّة طويلة، كأكبر مختبر ناجح مثالي، وأكبر داعٍ متحمّس قوي للنظام الاشتراكي، إلى أمد بعيد، إن لم يمتدّ إلى يوم القيامة، وإن الدول الأوروبية التي قبلت هذا النظام، وحملت لواءه قد قُرّر مصيرها، وخُتم على حظّها.

لكن انقلبت القيادة في الاتحاد السوفياتي رأساً على عقب فجأة، ولم يكن هذا التغيير سياسياً أو إدارياً محضاً، إنما كان فكرياً وأصولياً، وأبدى دولة غورباتشوف معارضة للنظام الاشتراكي القديم، واتخذ إجراءات تصحيحية، وصرّح بأنّ النظام الاشتراكي قد باء بالفشل، وأنه لم يستطع أن يمنح البلاد الرفاهية والرخاء، وينشئ الحماس والنشاط في العمل، والذي يحتاج إليه كل مجتمع وكل دولة.

وفي الواقع كان يعرف المطّلعون على الطبيعة البشرية، وعلى حقائق الحياة، وعلى الارتباط بين الأسباب والمسبّبات، أن البلاد التي يُنزع من أهلها حقُّ الملكية نزعاً كليّاً، ويتلقى ـ ـ منهم الأرزاق والرَّواتب بالتساوي كالسُّجناء والأيتام، يفقد شعبها النشاط والحماس، والدوافع التي تدعو إلى التنافس والتسابق في العمل، وتصبح البلاد كلّها مصنعاً للآلات والماكينات، ومعملاً لا روح فيه ولا حياة، ولا ضمير فيه ولا وعي، فيبدأ عمله بأمر آمر، ويتوقف عنه بمانع، ويفتقر للقيام بعمله إلى الزيت والكهرباء، لكن كان لا يستطيع أحد

أن يتصوّر أن هذه الثورة تحدث بهذه السرعة، رغم وجود نظام دقيق للمخابرات فيها، والحصار المفروض عليها، ونظام حكم شبه عسكري يسيطر عليها، ويقوم بإدارتها، يحاول فصلها عن العالم، لكن عملت قدرة الله تبارك وتعالى وحكمته، وحدثت هذه الثورة التي كان لا يخطر ببال أحد أن تقع.

واعترف السيد ميخائيل غورباتشوف بإخفاق هذا النظام ونقصه، ودعا إلى إصلاحه وإجراء التعديل فيه، وأعطى الاتحاد السوفيتي اتجاهاً جديداً، تزعزع به كيان الدول التي خضعت لهذا النظام، وكانت قد اتّخذت ماركس إماماً وقائداً لها، وعرف فيما بعد أن كثيراً من هذه الدول كان لا يرضى بهذا النظام غير الطبيعي، ولا يطمئن إليه من قبل، لكنه كان لا يتجرَّأ على تغيير هذا الوضع.

ومما أثار الدهشة، هو التأليف بين ألمانيا الشرقية وألمانيا الغربية، واتحادهما في دولة واحدة، رغم ما كانت بينهما من فجوة سياسية نظرية واسعة، كان من الصعب تقلصها، وكان بعيداً عن القياس فيما يبدو.

زرت مدينة برلين، عاصمة ألمانيا الغربية في عام ١٩٦٤م، خلال رحلتي إلى أوروبا، وزرت أيضاً مدينة برلين الشرقية، وشاهدت هناك النظام الاشتراكي، وأدركت أنه نظام غير طبيعي، وأنه نظام صناعي، نظام قاهر، نظام مفروض بالقوة، فرأيت وجوهاً شاحبة حزينة كئيبة، وجواً يسوده عدم الثقة والطمأنينة، وقضاء الحياة على طراز واحد لا يعرف التغيُّر والتطوُّر، وحذراً في التحدُّث واللقاء، وقد سمعنا أن كثيراً من أهل ألمانيا الشرقية، الذين يتبرَّمون من هذه الحياة الصناعية، يتخطَّون جدار برلين، الذي يفصل ألمانيا الشرقية عن ألمانيا الغربية، ويخاطرون بحياتهم للدخول في ألمانيا الغربية، ويدفع كثير منهم لذلك ثمناً باهظاً في بعض الأحيان.

وقد كنا سمعنا أيضاً أن النوافذ والشبابيك في البيوت في ألمانيا الشرقية،

التي كان يمكن بها رؤية حياة شعب ألمانيا الغربية ورخائه، وهنائه وحرّيته في الرأي والعمل والتنقُّل من مكان إلى مكان، وكسب الأموال والأكل والشرب، قد أُغلقت، لكن تغيَّر هذا الوضع، ورفَض هذان الشعبان الجزئيان هذا التقسيم الصناعي غير الطبيعي وتآلفا.

ومما يسرُّني أن بعض الدول الإسلامية العربية، التي كانت قبلت إشراف النظام الاشتراكي، واستيلاء الاتحاد السوفيتي، وكان يُخشى أن يؤثر على الدول المجاورة لها، أو يسيطر عليها عسكرياً أو سياسياً، واليمن الجنوبي أكبر مثال له، وقد سيطر على النظام فيه الغلاة من الاشتراكيين، الذين كانت تصدر منهم في بعض الأحيان أعمال نالت من شعائر الدين وأساءت إلى العاملين في مجال الدعوة الإسلامية وقست معهم ـ قد تخلَّصت منه.

كنت عرفت خلال زيارتي لدولة اليمن الشمالي في مايو سنة ١٩٨٤م أن قوّات اليمن الجنوبي الشيوعي زحفت إلى اليمن الشمالي (الذي كان مهداً للإيمان والفقه والحكمة والخشية والرقة، حسبما قال النبي ﷺ)، وكان يبدو أن قوات اليمن الشمالي لا تتمكن من مقاومتها والذود عن بلادها، وإنها سوف لا تقوى على مقاومة الغزاة.. لكن نهضت جماعة من الشباب الذين كان رائدهم الوعي الإسلامي، والعاطفة الإيمانية، وكانوا يدركون أخطار سيطرة الشيوعية وأبعادها، وكانوا يعرفون أنه لا يبقى شيء إذا غلبوا على الأمر وتسلَّموا زمام الأمور، ويصعب عندئذ قضاء الحياة الإسلامية بحرية؛ فتصدَّوا للدفاع عن دينهم، وقاوموا الزاحفين باسم ربّهم، فأيّدهم الله ونصرهم. ولعلّ من نتائج هذه الثورة الرائعة المباركة الطيبة أن تم التأليف بين اليمن الجنوبي واليمن الشمالي.

وهكذا جعلت تبرز علامات الحرية المدنية، وآثار الظهور والرقي في ألبانيا وبلغاريا حيث يسكن عدد كبير من المسلمين والأتراك؛ لكن لا يتمكن أحد من أن يقول إلى متى تستمرُّ هذه التطوّرات وإلى أين تصل، وكم يتاح

للمسلمين فرص للانتفاع بها؟.

تختلف آراء الناس عن هذه الثورة التي وقعت في روسيا وتتضارب، فيقول بعضهم: إن قرينة ميخائيل غورباتشوف هي امرأة مسلمة، ويدل على ذلك اسمها «رئيسة»، وأنها هي التي أثَّرت على زوجها؛ لكنه أفادني بعض العلماء الروس القادمين من تاشقند في طائرة متجهة من الرياض إلى جدة، أثناء رحلتي إلى الحجاز، التي مضى ذكرها في الصفحات الأولى لهذا الكتاب، وكانوا يستطيعون التكلُّم باللغة العربية، وكانت جمعتنا هذه الطائرة، فقالوا: إن اسم رئيسة لا يخص بالنساء المسلمات، بل إنه يطلق أيضاً على النساء غير المسلمات في روسيا، فالسبب الرئيسي لهذه الثورة هو الشعور بخيبة النظام الاشتراكي، وتجربته المريرة، فادعوا الله سبحانه وتعالى أن يبلغ هذا التطور الفكري، وهذه الخطوة الجريئة، ذروة الرقي والتقدُّم، وأن يزول سحر الفكر الروسي، والنظام الاشتراكي ودعاويه عن العالم كله، وأن يعرف الناس أنهم لا يستطيعون أن يكسبوا بها تلك المنافع، ويحقّقوا تلك الأهداف التي تنازلوا لها عن إيمانهم وعقيدتهم وأخلاقهم.

فباستيلاء هذا النظام في بلادٍ ما، تذوب أسس الأخلاق، وتنهار دعائم الفضيلة، وتتلاشى قدرة العمل، ولا يُقضى على الدين وتعاليمه وشعائره فحسب، بل يقضى على البلاد اقتصادياً ومعيشةً، وتتحول البلاد إلى سجن فسيح أو دار أيتام راقية.

* * *

المأساة الأخيرة في العالم العربي

دراستها من الناحية الدينية والخلقية المبدئية والدعوية
وتحليل أسبابها وانعكاساتها

كانت أعمال حركة «رسالة الإنسانية»، بوسائل وإمكانيات محدودة، تجري بنشاط، وتتوسَّع آفاقها إلى نهاية شهر يوليو ١٩٩٠م، وقد كان مؤتمر دلهي التاريخي المنعقد في ١٧/ مارس ١٩٩٠م، واجتماع لكهنؤ الناجح ـ الذي انعقد في ٢/ يوليو ١٩٩٠م ـ خير مثال للقبول والشعبية التي كانت تنالها هذه الحركة، وتأثيرها على النفوس، ومما يدل على هذه الشعبية المتصاعدة، الخطابات التي انهالت على مكتب الحركة، والطلبات التي تلقاها المسؤولون بعقد هذه الاجتماعات في المدن الهندية الأخرى، وكانت هذه الرسائل تشفّ عن حرص المواطنين على تصعيد هذه الحركة وتعميمها، وعن رغبتهم الملحة في حضور مثل هذه الاجتماعات.

وكان مما يبعث على التفاؤل الكبير، أن هذه الحركة بدأت تنال تأييد المثقفين، وأصحاب الأذهان الخالية من العصبية الطائفية من السياسيين، وأصحاب الضمائر الحرة من المواطنين من غير المسلمين، وتسترعي استجابتهم لدعوتها استجابة حارّة؛ فأخذت هذه الدوائر تتوسَّع، ولمع بريق الأمل على أفق الهند بأن الضمير الوطني سينتصر نهائياً، وأنه يمكن معالجة هذا الوضع غير الطبيعي، الذي يهدد سلامة البلاد في شكل الاضطرابات الطائفية، وسفك دماء الأبرياء، وأنَّ القوى الفعّالة الواعية ستدرك الخطورة، وتتصدى لها، وتبذل مجهوداً، وتصبح مركزاً موحداً لتغيير هذا الوضع.

وبجانب هذه التطلُّعات برز هناك عامل استبشار آخر، لا يقل عن

انتصار، بالنسبة للملّة الإسلامية في الهند، حالها ومستقبلها، وهو أن المسلمين في هذه البلاد بدؤوا ـ مرة أخرى ـ يشعرون بضرورة العودة إلى تمثيل دورهم كدعاة الحق، وحُماة الإنسانية، ومعلّمي الأخلاق، وبدؤوا يفكّرون من هذه الزاوية، فكان هذا الشعور مَعْقِداً للأمل، بأن المسلمين سيستعيدون في هذه البلاد مرة أخرى دورهم القيادي بجدارة واستحقاق، وأنهم سيكسبون ثقة المواطنين كمجدّفين لسفينة البلاد، وكمنقذين لها من الشقاء والدمار.

ويعتقد الناس أن جبهة خدمة الإنسان والإخلاص في حب الوطن كانت قد أصبحت مكشوفة غير محروسة، منذ زمن بعيد، وأن المسلمين الذين يؤمنون بأن الله «رب العالمين»، وأن محمداً رسول الله «رحمة للعالمين»، هم أجدر وأحق بأن يتولوا هذه الزعامة، وكان يتوقع أن هذه الحركة الإنسانية والمجهود الإنساني سيؤدي إلى إزالة سوء التفاهم وعدم الثقة والكراهية بين المسلمين وغيرهم من الطبقات، ويكشف زيف الدّعايات والأباطيل الشائعة عنهم، التي ألقت ظلالها الكثيفة عن طريق التاريخ المزوَّر، والمصلحة السياسية، وبالتالي تنجو البلاد من الخطر المحدق بها، النابع من الاضطرابات الطائفية، وإراقة الدماء، والأعمال والأفعال التي تثير غضب الله وسخطه، وتجلب عقابه.

كذلك كان مما يبشّر بخير، ويبعث على التفاؤل الكثير أنّ العالم العربي، الذي كان الداعي الأول إلى الإسلام، والذي يشمل الأماكن المقدسة المباركة، وهو الحارس الأمين لها، وهو المختبر الأول لاحترام الإنسانية، وهو مهد العدل والمساواة، وهو مهد الدعوة إلى الأمن والسلام، يعيش منذ مدة بأمن وسلام وثقة متبادلة، ورفاهية ورخاء، واحترام للإنسانية، وهو في موقف لتوجيه الدعوة إلى العدل والإنصاف، واحترام الإنسان، والتعايُش السلمي، إلى العالم الخارجي، وأن يقدّم له من واقع الحياة ما فيه نموذج وقدوة، وهو يحمل كفاءة لأن يحتلّ المنصّة العالمية لتوجيه هذه الدعوة، ويتولّى مرة أخرى منصب الإمامة والقيادة الإنسانية.

كان هذا هو الوضع السائد إلى آخر يوليو ١٩٩٠م، فكانت الآمال معقودة، وكان العاملون في مجال الدعوة والإرشاد متفائلين، رافعي الرأس، وكان في عيونهم بريق الأمل، فإذا بالعالم يهتز في ٢/ أغسطس ١٩٩٠م، بحادثة مروّعة لم تنكّس رؤوس الدعاة إلى العدل والاحترام الإنساني فحسب؛ بل نكّست رأس الملّة الإسلامية بكاملها، داخل الهند وخارجها، وغضت بصرها، وتندّى لها جبينها، وإني كدارس متواضع للتاريخ الإسلامي، ومؤلّف فيه، لا أذكر أنّ المسلمين من حيث الملّة أُصيبوا بمثل هذه الصدمة العنيفة، التي أدّت إلى خجل وذلّة ومهانة منذ قرون عديدة.

وتزيد هذه المأساة شدة وطأة، أنها وقعت في منطقة عربية مجاورة للمنطقة التي كان منها الإشعاع الأول لاحترام الإنسان، والعدل والإحسان، وجزاء الإحسان بالإحسان، والكرامة، ونجدة المظلوم والضعيف، وتطور هذا الإشعاع إلى حركة عالمية، ودعوة طبّقت الآفاق، أعني بذلك الغزو العراقي المفاجىء للكويت، الذي أذاعته محطّات العالم ووسائل الإعلام العالمية كصاعقة.

إنَّ خطورة هذا الحادث المؤلم، وضخامته وتأثيره السيِّئ على الضمير الإسلامي والإنساني، ترجع إلى أسباب عديدة منها:

١ ـ إن غزو بلد عظيم كالعراق لبلد صغير كالكويت، بعد أن حقق ذلك البلد انتصاراً على بلد عظيم واسع الأطراف كإيران، يقدم مثالاً سيئاً لا يتطابق مع التعاليم الإسلامية الخلُقية والتقاليد الإسلامية فحسب، بل إنه يتنافى مع الضمير الإنساني، ومبادئ الأخلاق العامة، ويعتبر جزءاً مذموماً ومرادفاً للقرصنة، ومما يزيد خطورة أن كلا البلدين ـ المعتدي منهما والمعتدى عليه ـ بلد مسلم وعربي، ثم إنه اعتداء لبلد على بلد كانت له منة وفضل عليه في العهد القريب، في وقت المحنة والبلاء، وكان قد أجزل العطاء عليه ولم تكن له جريمة يستحق بها هذا العقاب.

٢ ـ تعاقبت بعد غزو العراق للكويت، الأعمال والتصرُّفات الشنيعة والمخزية التي لا يوجد لها نظير إلا في تاريخ الغزاة والفاتحين الجبابرة المستبدين في تايخ الحروب، والفتوح المماثلة، وقد أشار القرآن الكريم إليها بلسان ملكة سبأ، فأصبحت خالدة إلى يوم القيامة.

﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [النمل: ٣٤]

٣ ـ ثم إن القائد العراقي الرئيس صدّام حسين، كان ينسخ كل ما سجّله من بطولات وانتصارات وتضحيات خلال حربه مع إيران، على شروط إيران من طرف واحد؛ وطرح بذلك جانب الحائط ما خاضه من معارك ضارية معها لرفض هذه الشروط، وما ضحّى به شعبه من نفوس غالية تبلغ مئات الألوف، وما تسبب عنها من خسائر جسيمة؛ وكان تنازله بمثابة إساءة إلى تلك الأرواح الغالية، وذهبت دماء خيرة الشباب ومعاناتهم سدى، واستحقّ أن يُسأل: ﴿ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾.

إننا نقرأ هذه الآية الكريمة: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣]، فكنّا نعتقد ـ وتلك حقيقة ـ أن الله تبارك وتعالى وصف في هذه الآية الكريمة عاقبة الأعمال في الآخرة، وأنه ذكر مصير بعض النفوس التي لم تصدر منها الأعمال الصالحة لنيل رضا الله، وإنما كانت لغرض من أغراض الدنيا، فحبطت أعمالها، وبهذه التجربة مع الرئيس العراقي في صدد التضحيات التي بُذلت في الحرب مع إيران، علمنا مصداقية هذه الآية على الحياة الدنيا كذلك، وأن صاحب العمل ـ نفسه ـ يُعامل أحياناً بالنسبة لأعماله هذه المعاملة، ويلجأ إلى موقف مضاد أو معكوس، تحبط به أعماله الجليلة، فتصبح منجزاته هباء منثوراً.

٤ ـ كان الرئيس صدام يُعقد به الأمل، في بعض الأوساط المتفائلة، لعلّ الله تبارك وتعالى يوفِّقه ليمثل دوراً قيادياً، يعيد إلى المسلمين والعرب عزّتهم وكرامتهم، وأنه يجمع طاقاته وكفاءاته، ويقوم بتعبئة ما تتوفر لديه من إمكانات،

ليشكّل جبهة ضدّ إسرائيل، أو يوفّقه الله تبارك وتعالى للاجتهاد من أجل توحيد الصفوف وترصيفها لمواجهة إسرائيل، فيتمُّ على يديه تحرير فلسطين واسترداد القدس.

ولكن خابت هذه الآمال والتطلُّعات، ولم تلبث هذه الأماني إلاّ وقد انقلب هذا البطل المغوار على إخوته وأشقائه، وفتح جبهة جديدة داخل البلاد العربية، فزحزح كل ما يعتقد به المسلمون من أمل وثقة، بل بتعبير أصح: إنه حطَّم جميع هذه الآمال المعقودة به، وخابت فيه الظنون.

٥ ـ إن غزو العراق للكويت، وعدم إصغائه إلى نداء القادة العرب والمسلمين وعدم إنصاته لنصيحتهم، وتماديه في موقفه، وتغاضيه عن جميع المخاطر التي تترتب من مثل هذا الموقف الطائش، قد أثارت شبهات ومخاوف، بأن يسوقه طمعه أو طموحه ـ لا قدّر الله ـ إلى التعرُّض للجزيرة العربية، بالأخص إلى التعرُّض للملكة العربية السعودية، التي تتولّى خدمة الحرمين الشريفين وحفظهما وصيانتهما، والاحتفاظ بقداستهما، والتي أنجزت تلك الخدمة التاريخية، التي لا يوجد لها نظير في تاريخ القرون الماضية، في تأمين الأمن والسلامة للأماكن المقدّسة، ورعاية ضيوف الرحمن وحسن وفادتهم، وتوفير وسائل الراحة والأمان، وخاصة توفير مياه الشرب، والمواصلات، فلا يطمع في المساس بها، فتقع هذه المنطقة المحروسة عرضة لمطامعه، وهوسه للقيادة والحُكم، الذي لا يستبعد من أي قائد كان في نشوة الانتصار العسكري، أو كانت وراءه قوّة عسكرية قاهرة.

وقد أشار شاعر الإسلام العلاَّمة محمد إقبال في شعر له إلى هذه الحقيقة التي يصدقها غزو العراق للكويت؛ يقول:

«هذه رسالة التاريخ الخالدة، إن نشوة القوة تنذر بخطر جسيم».

كانت هذه المخاوف والشبهات التي لا تعتبر من المستحيل في تاريخ القوى الطامحة، هي التي حملت حكومة المملكة العربية السعودية على

الاستعانة بالولايات المتحدة، وبريطانيا، لتهيئة الوقاية العسكرية، وكم تمنَّى المسلمون في العالم، وخاصة المسلمون في القارة الهندية (الذين تجرعوا مرارة السلطة الأوروبية) لو كانت إحدى الدول الإسلامية قادرة على الدفاع بنفسها عن جزيرة العرب، والحرمين الشريفين، بمساعدة المملكة العربية السعودية عسكرياً في هذه الفرصة الغالية، وتعتبر الدفاع عن هذه الأماكن المقدّسة، أكثر شرفاً وسعادة واعتزازاً من الدفاع عن بلدها، وتعدّه وسيلة للقربى عند الله ونيل رضاه.

٦ ـ ولو قيل في تبرير غزو العراق للكويت، وطمعه في البلد العربي الآخر: إن هذه البلدان العربية والإمارات الخليجية كانت تستدعي مثل هذه الإجراءات التأديبية منذ زمن، وأنه كان نتيجة لحياة الترف والبذخ فيها، وأن القرآن الكريم قد أشار إلى نتائجها السيئة وأنذر منها، فإني أقول باعتذار، وأرى نفسي مضطراً إليه: إنه لم يتجرّأ أحد في الشطر الأخير من القرن الميلادي الجاري (١٩٤٠ـ١٩٩٠م)، ليس في بلاد العجم، بل في العالم العربي كله على نقد الأحوال السائدة في هذه المناطق كما وفق الله تعالى لذلك هذا العبد الضعيف، وقد صرَّح بذلك في كتاباته التي ألقاها في مناسبات عديدة، ويرى ذلك من واجبه الدّيني.

أقول: إن علاج هذه الأوضاع لم يكن طريقه الصحيح أن يغزو بلد كبير بلداً صغيراً غزواً مباغتاً، ويستولي عليه بلا هدف معين للدعوة والإصلاح وتصحيح الأمور، وإنما كان علاجها الدعوة الإسلامية والحركة الهادفة للإصلاح، والمجهود المخلص والجدّي لإحياء الدين، والجهد لإنشاء نظام إسلامي صحيح في البلاد، ومنهج إسلامي للحياة، وإنشاء نظام صالح للتعليم والتربية (يقوم بصياغة ذهن الشباب والنشء الجديد)، وإيجاد مجتمع إسلامي مثالي، وبيئة إسلامية صالحة تجذب القلوب، وتؤلف النفوس، وتكون قدوة للآخرين، ومثالاً لهم، يقتدى به.

ولكن مع الأسف الشديد، إن البلد الغازي، العراق ـ كما تدل عليه

معلوماتي ودراستي ـ لا يتصف بأي وصف من هذه الأوصاف، أو أيّ سمة من هذه السمات، فلا مبرر له شرعياً ولا خلقياً لاقتحام مثل هذه المجازفة.

لقد أقلق هذا الحادث ذهني وفكري، وأقضّ مضجعي إلى حد لا أذكر أني تأثرت مثله قبل حدوث هذه الفاجعة في حياتي، لأني ـ ذلك فضل من الله، وتقدير العزيز العليم ـ منذ أن تطوَّرت فيَّ القدرة على الكتابة، والخطابة والدراسة، كرّست ما كنت أملكه من قدرة محدودة للتعبير، وما توفّر لي من وقت، على قضايا العالم العربي، وكانت الأمة العربية والدول العربية، مجال عملي وشغلي الشاغل، وموضع دراستي، وخطابي، وكانت معظم مؤلفاتي وكتاباتي باللغة العربية أصالة، ثم نقلت هذه المؤلفات إلى اللغات الأخرى، وأستعير هنا ما قاله شاعر الإسلام محمد إقبال تحديثاً بالنعمة، وتعبيراً عن حقيقة الحال:

«إن كان مزماري عجمياً، فإن ألحانه عربية، ونغمي عربي».

ولصلتي بهذه المنطقة قلبياً وفكرياً، كان من الطبيعي تألّمي بهذه الحادثة المفجعة، وما يترتّب عليها من أخطار، وتهديدات للدول العربية المجاورة، وخاصة أرض الجزيرة العربية، المحبوبة إلى النفس، والأماكن المقدّسة، والحرَمان الشريفان، فقد عشت فيهما قلبياً وفكرياً وذهنياً، في الحقيقة والأحلام.

إنّ ما يتعلّق بالجزيرة العربية، والحجاز المقدّس، والحرمين الشريفين ـ زادهما الله شرفاً وحرمة ـ، وما يتعلّق بمستقبلها وحرمتها وكرامتها وقداستها، ووقايتها من المكروه بطريق غيبية: حقيقة من حقائق التاريخ؛ فإنها مهبط الوحي ومطلع الدين الأخير الخالد، والملجأ الأخير له.. ويشهد القرآن، ويشهد التاريخ أنها بقيت مصونة ومأمونة، منذ حادثة الفيل وغزو جيش أبرهة، وحتى بعد زوال الخلافة العثمانية، التي كان سلطانها وخليفتها يَعُدُّ ذلك من شرفه وسعادته أن يصف نفسه بخادم الحرمين الشريفين، وبعد استيلاء الدول الاستعمارية الأوروبية لمعظم البلدان العربية والإسلامية، بقيت على كرامتها وحرمتها، وظلّت هذه الأماكن في عيون المسلمين أغلى وأثمن وأكرم من

أوطانهم، ولا يزال يرنُّ في أذني ما قاله العلاَّمة محمد إقبال:

«فليتّحد المسلمون في العالم لحماية الحرم، من ساحل النيل إلى سفوح كاشغر».

إني واثق برحمة الله تعالى التي أحاطت دائماً بهذا الدين الأخير، والدين المقبول عند الله، وهو الإسلام، ويشهد به التاريخ؛ أن هذه السحب المتراكمة ستنقشع، وستزول المخاوف والشبهات، وسيطلع من خلال هذه السحب الكثيفة، والظلام الحالك، ضوء جديد، وينير الطريق ويبعث على الطمأنينة والسكينة، ويعيد الشرف والعزة والكرامة، والدعوة إلى الحق، وإنقاذ الإنسانية، وسيقول ممثل هذه الإنسانية التائهة للدعاة الأولين إلى الإسلام والحاملين للقرآن، وحرَّاس الحرم:

«لقد دمّرت القوى الطاغية الإفرنجية هذا العالم، فانهض يا عامر الحرم وابدأ بتعمير عالم جديد».

ولكن هذا الهدف لا يتحقَّق، وهذا الحلم لا يتحوَّل إلى حقيقة إلا بإحداث انقلاب في الحياة والسيرة والسلوك والأخلاق، ليس في العالم العربي وحده، بل في سائر أنحاء العالم الإسلامي، وفي المجتمعات الإسلامية.. إنه يتحقق بصياغة الحياة صياغة إسلامية، وسكبها في بوتقة التعاليم الإسلامية السمحة.. إنه يطلب إعادة الإيمان بصدق الإسلام، وكونه منهجاً أبدياً للحياة، والدعوة إليه، واتّباعه في الحياة، وإيجاد حماس وعاطفة له في القلوب.. إنّه يحتاج إلى اتّباع حياةٍ وعد الله تعالى النصر عليها، والرحمة والفضل، وتجنُّب ما يسخط الله من أعمال وعادات وسلوك؛ وصدق الله العظيم حيث قال:

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠].



قضيـة المسجد البابـري

ذكرتُ في الصفحات السابقة المحاولات التي كان يبذلها معالي يونس سليم حاكم ولاية بهار، «وسري كانت» حاكم ولاية أنداهرابراديش من مارس ١٩٩٠م، لإيجاد حل لقضية المسجد البابري، ومعبد راما، يكون مقبولاً لدى الطرفين.

وقد سافرت مع زميلي الشيخ عبد الكريم باريكه، ومعالي يونس سليم ومعالي «شري كانت» حاكمي ولايتي بهار وأنداهرابراديش إلى «مدراس» لمقابلة شنكر آجارية (كبير القساوسة والرهبان الهندوس) في كانجي بورم، ولتبادل وجهات النظر معه، وجرت المفاوضات معه في هذا الصدد، وواصل هذان الحاكمان مجهوداتهما، رغم اشتغالهما بمسؤوليات رسمية، وتابعا اتصالهما بكلا الزعيمين الدينيين العظيمين في الولاية الجنوبية للهند، ويستحقان لذلك الثناء والشكر.

كان قد تقرر في الأسبوع الثالث من شهر أغسطس عقد أربعة اجتماعات، في رحاب ندوة العلماء بمدينة لكهنؤ، وكان لا بد لي من الحضور في هذه الاجتماعات الأربعة، كمسؤول عنها، أخبرت فجأة بقدوم هذين الحاكمين إلى لكهنؤ، لإجراء مزيد من المفاوضات للتوصل إلى نتيجة مرضية وحل مقبول، فرحّبت بهما، نظراً لأهمية هذه القضية وخطورتها، والأخطار التي تتعرّض لها الهند، إذا لم تحل هذه القضية بصورة مُرْضية، تقنع الطرفين.

ووصل الضيفـان إلى لكهنـؤ، ونزلا في قصـر حاكم الولايـة، وزارا دار

العلوم ندوة العلماء مرتين، في هذه الأيام التي كنت مشغولاً فيها، وجرت المفاوضات بيني وبينهما، وساعدني فيها الشيخ عبد الكريم باريكه في ١٩ ـ٢٠/ أغسطس في ندوة العلماء بعد صلاة المغرب، واستغرق هذا اللقاء الخطة التي كانا يحملانها، فأضفت إليها عدة نقاط، لأنني شعرت من دراسة هذه الخطة بأن المسلمين سوف لا يقبلونها كما هي، رغم كونها موفقة إلى حد ما، ولا يطمئنون بصيانة المسجد البابري، لأن الحكومة والإدارة لا تتولى المسؤولية، لأنها لم تكن فريقاً في هذه المعاهدة، وإنما كانت بين المسلمين وبين الزعيمين الدينيين الهندوكيين، اللذين كانا يتحمّلان مسؤولية وقاية المسجد من أيدي المتطرّفين الهنادك، وإقناع الأغلبية من أهل هذه البلاد، وعدم اتّخاذ أي إجراء عدواني من قبلهم.

فأردت لذلك أن تتحمل الحكومة مسؤولية وقاية المسجد مسؤولية كاملة، بطريق أن تعلن أنه أثر تاريخي، ويستخدم هذان الزعيمان نفوذهما وتأثيرهما الديني والخلقي، وصرّحت لهما كما كنت صرحت من قبل أنه لا بد من إقناع اللجنة التي كُوِّنت لصيانة المسجد البابري والاحتفاظ به، وكسب ثقة أعضائها، وبدون ذلك تصعب تصفية هذه القضية، وتهيئة الجو بهدوء وثقة وطمأنينة، ووافقا على تبادل الآراء مع المسؤولين عن لجنة العمل لوقاية المسجد، فوجهت في هذه الأيام ـ التي كانت أشغالي فيها كثيرة ـ الدعوة إلى ثلاث شخصيّات كبيرة من لكهنؤ، كانوا في قيادة حركة استعادة المسجد، وإلى مسؤول كبير للحركة، كان في لكهنؤ بغرض المشاركة في جلسة المجلس الاستشاري، لتبادل وجهات النظر، وقدم الحاكمان مرّتين، واستمرّ اللقاء والمفاوضات ساعات، لكننا لم نتمكن من التوصل إلى نتيجة تقبلها الحكومة، وتساعد على تصفية القضية، وحل المشكلة، وتهيئة الجو.

أكتب وأنا أعتذر أنني ما وجدت في هذه الشخصيات الموقّرة معالجة واقعية للقضية، وإدراكاً بالأخطار التي يواجهونها، ونظرة واقعية كان ينبغي أن توجد في معالجة الوقائع والأحداث، ومعرفة مدى ما وصلت إليه العواطف

الدينية، وعاطفة الحفاظ على العز والشرف القومي، وكان يبدو أنه كانت أمامهم خطة لقوة فريقهم، وصلاحيته وعزائمه، وإمكانيات ما يعزّ على من يعرف التاريخ الماضي، ويستنبط منه النتائج العملية في عالم الحقائق والتجارب، ووجود مشاكل مختلفة، وقضايا متعدّدة ـ أن يتّفق معهم؛ فلذلك بقيت القضية على ما كانت عليه، ولم تأتِ هذه المحاولات التي بذلها الحاكمان بأي نتيجة رغم رحلاتهما الطويلة، وعنايتهما بهذه القضية، ورغم اهتمامي بالقضية وجهدي، ومشاركة الرجال المعنيين بالقضية.

* * *

الغزو العراقي للكويت

ومقترحات وملاحظات لمعالجة الأوضاع الناشئة عنه

انعقد مؤتمر رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرّمة، في أعقاب الغزو العراقي للكويت، وكان الجو مكهرباً يبعث على القلق والاهتمام، في العالم العربي الإسلامي بصفة عامة، وفي المملكة العربية السعودية وفي الحجاز ونجد بصفة خاصة، ونكس رأس الملّة الإسلامية بكاملها، وتندّى جبينها حياءً وخجلاً، وشوّه سمعة الإسلام، وأساء إليه.

وقصَرت في المقال الذي قدّمته في هذا المؤتمر على الإشارة إلى هذا الغزو اللاديني واللاخلقي واللامبدئي، الذي جاء في غير أوانه، وفي غير مكانه، وبدون أي مبرّر له، والذي يتنافى مع الضمير الإنساني، ومبادئ الأخلاق العامة، والقوانين الدولية، فضلاً عن التعاليم الإسلامية السامية النبيلة، وأكّدت بالإضافة إلى ذلك على ضرورة إيقاظ الوعي الديني، وإنشاء الحركة الإصلاحية، وأشرت إلى حياة البذخ والترف، ودعوت إلى هجرها.

ولم يكن يناسب لي في هذا الوقت القصير، وفي هذا الجو الذي يسوده الحزن والكآبة، وفي هذا البلد الذي يملأ أرجاءه القلق والاضطراب ـ أن أتعرض لنقد المجتمع الذي يوجد فيه العالم العربي الإسلامي، ولا سيما المملكة العربية السعودية، من الناحية الدينية والخلقية، والحديث عن الواقع بالتفصيل والصراحة، أو أشير إلى مواضع الضعف في الحياة لهذه الدول العربية الإسلامية، لأنّه يزيد العالم العربي ألماً، ويكون بمثابة إثارة جرحه وآلامه، ويبرّر للمعتدي اعتداءه، وللمؤيدين تأييدهم له، وقد كنت جرّبت ذلك في بلادي.

فاكتفيت في هذا المقال باستعراض هذا الاحتلال، ودراسة أبعاده وملابساته الخطيرة الدقيقة، والتحدّيات التي تبعث على القلق والاضطراب، وتهدد بسلامة هذه المناطق المقدّسة، وتنذر بتمزّق الوحدة العربية الإسلامية.

لقد سافرت إلى المملكة العربية السعودية عدة مرّات، ومكثت كل مرة أياماً وأسابيع، وتجوّلت خلالها في شوارعها، ومررتُ بأسواقها وشاهدتُ قصورها، وشهدتُ حفلاتها، وحضرت نواديها، وأقمت بفنادقها، والتقيت بأمرائها وأعيانها بحرية، لكنني رأيت كل مرة السباق في رفع مستوى الحياة، والشغف الزائد بالكماليات، والتظاهر بالثروة والمال، ووجدت المدينة أكبر زهواً ونضارة من قبل.

رحلت أوّل مرّة إلى المملكة العربية السعودية سنة ١٩٤٧م، وأقمت بالمدينة المنورة ثلاثة شهور، ثم رحلت إليها في عام ١٩٥٠ـ١٩٥١م، وقضيت في مكة المكرمة والمدينة المنورة أسابيع وشهوراً، وكانت المدينة المنورة ـ بما فيها من نور وبركة ـ تبدو وقتئذ مديرية يرجع تاريخها إلى عهد تركيا، لا تتراءى فيها المباني المشيّدة الشامخة إلا بعدد ضئيل، وكانت الحوانيت والأسواق بسيطة ساذجة، لكنها كانت مشحونة بالأدوات اللازمة، وكذلك كانت مدينة جدة التي كانت مقرّ السفارات للدول الخارجية، وأكبر ميناء في جزيرة العرب؛ لا تنفكّ هذه المدن الثلاث ترتقي وتزدهر لأسباب طبيعية، ولا تزال البضائع المستوردة، وأدوات الراحة والزينة تزداد يوماً فيوماً، وتبنى القصور الجميلة، والمباني الناطحة للسحاب بسرعة غريبة، وليس هذا أمراً يبعث على الدهشة، ويتعارض مع الطبيعة طبقاً لقانون الحياة والطبيعة البشرية.

لكن الذي بعث على القلق والاضطراب والدهشة والاستعجاب، هو ما رأيته من نضارة هذه المدن الثلاث ولا سيما عمران أسواق مدينة جدّة وازدحامها، والاستهانة بمال الله في سبيل اللذة والشهوة، والفخر والزينة، والجري وراء الحياة المصطنعة، والمادة والمظاهر، والغفلة عن الأخطار

المحدقة بالأمة الإسلامية، والابتعاد عن الحياة التي تمتاز بالمغامرة والمخاطرة، وتتّصف بالتقشّف والاقتصاد، وعدم المبالاة بتهيئة الأسباب لمقاومة كيد الأعداء وإحباط مؤامراتهم.

وبالجملة أستطيع أن أقول: إنني شعرت بحاجة إلى مجتمع مثالي أفضل، يمتاز بالبساطة والسذاجة، ويؤمن بمبادىء الأخلاق والروحانية، لا يعرف التكلُّف والتملُّق، وتتجدّد به ذكريات عهد الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، ويقدم نموذجاً لإيثار الباقية على الفانية، ويجتذب الذين لا يؤمنون إلا بالمادة والمظاهر إليه، ويسترعي انتباههم، ويضطرهم إلى أن يقدروه ويحترموه.

هزّ ذلك قلبي ومشاعري كدارس متواضع للقرآن الكريم، ودارس لتاريخ الأقوام والملل، وتاريخ المدنية العالمية القديم، وكمؤلف له، على أساس من العقيدة والإيمان، والحُبّ والإخلاص؛ ودفعني إلى أن أحذّر إخواننا العرب، ورؤساء الحكومات العربية، وقادة الحركات الإصلاحية والدعوية، والمسؤولين عن الدوائر الرسمية، ورجال الفكر والسياسة، بالأخطار المحدقة، وأدعوهم إلى الاعتبار من الحوادث والوقائع، والانتباه للحقائق الراهنة، وتغيير حياة الترف والدعة، والمجتمع المادي المحض، وتحديد مظاهر الثروة التي يسيل برؤيتها لعاب الدول المجاورة، التي لا تملك مثل هذه الوسائل والإمكانيات، وهي تطمع فيها، وترنو إليها بلهفة، وأطلب منهم أن يختاروا حياة الطهر والعفاف، والطاعات والعبادات، التي تجلب رحمة الله وبركته، ويتسلموا زمام توجيه العالم الإسلامي بل العالم البشري كله، وذلك يطابق ما قاموا به من أمجاد وبطولات، ويتطابق مع البعثة النبوية، والتعاليم الإسلامية، وهم أليق بذلك وأجدر ببعض مزاياهم وخصائصهم.

ومن المفاجأة أن خطر ببالي وأنا في جدّة أن الباب الأخير لكتابي «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» يدور حول هذا الموضوع، وهو «قيادة العالم العربي»، فلا بدَّ من أن يُنشَر ما جاء في هذا الباب في رسالة مستقلة، ويقدر

من عناوين ذلك الجزء، أنه كم يتطابق مع أوضاع الدول العربية الراهنة، فهذه العناوين كما يلي:

١ ـ أهمية العالم العربي.

٢ ـ تضحية شباب العرب قنطرة إلى سعادة البشرية.

٣ ـ الإيمان هو قوة العالم العربي.

٤ ـ العناية بالفروسية، والحياة العسكرية.

٥ ـ محاربة التبذير، والفرق الهائل بين الغني والصعلوك.

٦ ـ محمد رسول الله روح العالم العربي.

٧ ـ استقلال البلاد العربية في تجارتها وماليتها.

٨ ـ رجاء العالم الإسلامي في العالم العربي.

لم تزل تساورني هذه الأفكار، وتشغل بالي، ولكن لم تسنح لي فرصة لذلك خلال إقامتي بجدة ثلاثة أيام، وعاقتني عنه اللقاءات والحفلات والبرامج الأخرى خلال إقامتي بهذه المدينة، لكن لما غادرت إلى لكهنؤ صباح ٢٥/ سبتمبر، ووصلت إليها في ٢٦/ سبتمبر، بادرت إلى هذه المهمة، وسجّلت رسالة بعنوان «كيف يستعيد العرب مكانتهم اللائقة بهم، ويحافظون عليها» بالعربية، وقامت مطبعة ندوة العلماء بطبعها في مدة قصيرة، وأرسلت نسخاً منها إلى الأوساط العربية، ولا سيما في المملكة العربية السعودية؛ وأرجو الله تعالى أن تكون قد وجدت استجابة واهتماماً بها من القرّاء.

* * *

الأوضـاع الراهنـة في الهند

والمنهج المطلوب من المسلمين

في هذه الظروف التي تتصعّد فيها موجة الاضطرابات الطائفية، ويسود الخوف والذعر وعدم السلامة الذي لا يوجد له نظير في هذه البلاد، لا قبل استقلالها ولا بعد استقلالها، كانت الحاجة ماسة إلى أن يُقَدَّم إلى المسلمين الذين يعيشون في حالة نفسية تزعزع الثقة في النفس، وتغلب اليأس والقلق على النفوس -طريق إيجابي للعمل، في ضوء القرآن والسنة، وبالاستفادة من الأحداث والوقائع المعاصرة، وفي ضوء المحن والشدائد التي مرَّت بها الأمة الإسلامية في تاريخها الطويل، وتُوَجَّه الدعوة إلى أن ينيبوا إلى الله، ويتوكّلوا عليه، ويقوموا بإصلاح أحوالهم، وتغيير نمط حياتهم، وتحقيق متطلبات عصرهم، ويكونوا واقعيين جدّيين في أمورهم، ليزول عنهم هذا الخوف، ويتحسَّن هذا الجو، وينقشع هذا الضباب، وتُصان الأنفس والأرواح، ويحتفظ بالأموال والممتلكات، وتحفّهم الملائكة، وتنزل عليهم السكينة والبركة، ويكتب للشخصية الإسلامية البقاء.

وكان يطلب مني الشيخ محمد معين الندوي بصفة خاصة أن أوجّه اهتمامي إلى هذا الأمر، وقد كتب الأستاذ عتيق أحمد البستوي مقالاً على طلب منه لمعالجة هذا الموضوع، وطلب منّي أن أقدّم له، فكتبت استجابة لرغبته مقدّمة استفاضت فتحوّلت إلى رسالة مستقلة بدون قصد، ونشرت في صحيفة «تعميرحيات» الأردية، ثم قام قسم الدعوة والإرشاد لندوة العلماء بطبعها في

صورة رسالة منفصلة؛ وأقتبس هنا قطعاً مهمة من هذه الرسالة، لأنّها تلقي الضوء على الأوضاع التي كانت تمرُّ بها الهند في تلك الفترة العصيبة، وتدلُّ على مشاعر المسملين وأحاسيسهم، وانطباعاتهم وانعكاساتهم، التي كانت تختلج في نفوسهم في الشهور الأخيرة لسنة ١٩٩٠م، وإليكم الآن نص هذه الرسالة.

نصيحة إلى المسلمين في ظروف البلاد فوق العادة:

أما الناحية القانونية والإدارية لقضية المسجد البابري، ومسقط رأس راما، فلم يدّخر المسؤولون عن الهيئات والمنظمات المختلفة وسعاً في بذل المجهودات والمحاولات، لمعالجة هذه القضية المهمة الدقيقة الحساسة، ولم تتخلف هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية عن مساندة هذه المنظمات والهيئات، التي كانت قد أنشئت لصيانة المسجد البابري خاصة، فأصدرت في اجتماعها الذي عقد في ٣/ ديسمبر ١٩٩٠م، وكان قد حضره عدد كبير من الخبراء والمحامين والعلماء، وممثلي الجامعات والمدارس والهيئات المختلفة قراراً مفصّلاً، مضى ذكره مجملاً في الصفحات السابقة لهذا الكتاب.

وكذلك لا تزال ترفع الأصوات ضد الاضطرابات الطائفية ووقائع العنف، والاضطهاد، والاغتيال والإبادة، وسفك الدماء، وهتك الأعراض، وإحراق المنازل، ونهب الأموال، وعاصفة العصبيات الدينية، والكراهية المتصاعدة، التي لم تشهدها هذه البلاد في تاريخها الطويل.

فبذل ما بذل من المجهودات، وكان لابد من أن تبذل هذه المجهودات للاحتفاظ بالمسجد البابري، ووقايته من أيدي المتطرّفين من الهندوس، ولكن في الوقت نفسه، يجب على المسلمين أن يواجهوا هذه الأوضاع الخطيرة، ويصمدوا لها، واثقين بنصر الله، وأن يتّخذوا له منهجاً لجلب رحمة الله، وينزل نصره الذي وعده للمؤمنين.

فقدّمت في بداية هذه الرسالة صورة صادقة لذلك الوضع الذي لم يعرض الشخصية الإسلامية، والنشاطات الدعوية، والأعمال الإصلاحية، وسلامة البلاد وتأمينها، والمساجد والمدارس التي بُنيت على وجه أرضها، وشرف المسلمين وكرامتهم، ومجدهم وعزّهم، للخطر فحسب، إنما جُعلت الثروة الدينية والثروة العلمية التي تمتد جهودها قروناً طويلة عُرضة للخطر.

ثم أكّدت على ضرورة مكافحة هذا الوضع ببسالة وبطولة، وجرأة وواقعية، ودعم الصلة بالله تبارك وتعالى، والإنابة إليه، والرجاء منه، وإعادة الثقة والهمّة، لأنَّه قد جلب في كثير من الأحيان نصر الله وتأييده على عكس ما تقوله التخمينات والتقديرات، فتغير الوضع وتغيَّب الظلام، وحدثت ثورة بهرت الألباب وغيّرت مجرى التاريخ.

ثم قلت مستشهداً بالآيات البينات: إن المسلمين ليس من شأنهم اليأس، وإنما يحتاج ذلك إلى اتّخاذ خطوات جريئة، وإدخال تغييرات حاسمة في حياتهم، وذكرت الأمور الآتية:

١ ـ أن يدعموا صلتهم بالله، ويتضرّعوا إليه، ويستنصروه، ويستعضدوه، ويتوكّلوا عليه ويستغفروه؛ واستشهدت في هذا الصدد بالمنهج الذي سلكه النبي ﷺ في الساعات العصيبة المفزعة، فجاء في الحديث النبوي الشريف، أنه كان يفزع إلى الصلاة، ويأمر بها، عند الشدائد والنوازل.

٢ ـ أن يتجنّبوا المعاصي والذنوب، ويؤدّوا ما عليهم من الفرائض والحقوق، ويتحلّوا بشيء من الورع والتُّقى والعفاف والزهد، وقدَّمت في هذا الصدد مقتبساً من رسالة كتبها أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز إلى قائد جيش المسلمين، يقول فيها:

«إنَّ تقوى الله أفضل العُدّة، وأبلغ المكيدة، وأقوى القوة؛ وأن يكون من شيء من العدو أشد احتراساً منه لنفسه، ومن معه من معاصي الله، فإن الذنوب أخوف عندي على الناس من مكيدة عدوّهم، وإنّما نعادي عدوّنا وننتصر عليهم

بمعصيتهم، ولولا ذلك لم يكن لنا قوة بهم، لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدّتنا كعدّتهم، فلو استوينا نحن وهم في المعصية كانوا أفضل منّا في القوة والعدد، فإنا لا ننتصر عليهم بحقّنا ولا نغلبهم بقوتنا».

٣ ـ أن يؤدّوا مسؤولياتهم كدعاة وهداة، يقوموا بالتعريف عن الإسلام، وينتهزوا كل ما يُتاح لهم من فرص للدعوة إلى الله، وعرض الإسلام في صورته الأصيلة، وإزالة سوء التفاهم الذي يوجد بينهم وبين الهندوس، ويثير الحقد والكراهية، والسخط والامتعاض فيما بينهم، وذكرت في هذه المناسبة تقصير المسلمين في القيام بالدعوة، وأداء الأمانة، وتبليغ الرسالة، وحمل أعباء الخلافة، وبينت في هذا الصدد خبراتي وتجاربي الشخصية في هذا المجال، وأشرت إلى الكتب التي تساعد على تحقيق هذا الهدف، وتقنع عقول المعاندين بالبراهين والأدلة القاطعة.

٤ ـ استرعيت الانتباه إلى الاهتمام بأعمال حركة «رسالة الإنسانية»، وتوسيع نطاقها، وتعميق جذورها في هذه البلاد التي يعيش بها المسلمون كأقلّية، واعتبارها وسيلة ناجحة ووحيدة لتقريب الأذهان، وإزالة سوء التفاهم، وتهدئة الجو، وتأمين الحياة، وإقرار السلام، وصيانة العزّ والشرف إلى أبعد حدّ ممكن.

٥ ـ أن يتّصفوا بصفات يتميَّزون بها عن غيرهم، من الصبر والجلادة، والحلم والأناة والجود والكرم، والإيثار والتضحية، والعزم واليقين، والبطولة والبسالة، ويتحمّلوا الآلام والشدائد في سبيل الدين، ويفعلوا ذلك مؤمنين، محتسبين، واثقين بنصر الله وتأييده، ويتمنوا لقاء الله عزّ وجلّ، ويحنّوا إلى الشهادة، ويشتاقوا إلى الجنّة، ويدرسوا لذلك الكتب التي أُلّفت حول حياة الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، وعاداتهم ومناهجهم، ومآثرهم وأمجادهم.

٦ ـ أن يهتمّوا بتعليم أبنائهم تعليماً دينيّاً، وتربيتهم تربية إسلامية، فيعلّمونهم العقائد الإسلامية، والأحكام الشرعية، والأخلاق الفاضلة، ويُنَشِّئوا

فيهم الثقـة بالإسـلام، وشـموله وكمالـه، وصلاحيتـه لإنقاذ البشريّة التائهة، وإسعاف من يتعرّض للدمار والهلاك، ويهتمّوا بذلك أكثر من اهتمامهم بطعامهم وشرابهم، وثيابهم وسكنهم، وصحتهم ومرضهم، لأنّهم إذا أغفلوا ذلك، وتغاضوا عنه، ظهرت نتائج وخيمة وعواقب خطيرة، عميقة الجذور، بعيدة المدى، وواسعة الأطراف، ولا يمكن بدون ذلك أن يبقى النشء الجديد المسلم مسلماً يعتزُّ بدينه، ويفتخر بثقافته، ويعتبر الإسلام منقذاً للإنسانية البائسة المنكوبة المضطهدة، لأنّ المنهج التعليمي، والمقرَّرات الدراسية التي تخضع لها المدارس الحكومية في هذه الأيام، ووسائل الإعلام، والصحافة، والمجتمع، والبيئة، كلُّ ذلك يدعو إلى ارتداد دينيّ، وثقافيّ وذهني وعقائديّ.

* * *

وفد إسلامي من تركستان

في زيارة لدار العلوم ندوة العلماء

اتَّصل بي هاتفياً أحد المسؤولين عن مركز جماعة الدعوة والتبليغ بدلهي الجديدة، في الأسبوع الأول من شهر ديسمبر ١٩٩٠م، وأخبرني أن جماعة تركستانية، تضم كبار العلماء والدعاة قد وصلت إلى دلهي في جولة دعوية، بعد زيارة لجماعة الدعوة والتبليغ إلى روسيا في الأيام الماضية، ويرغب هؤلاء العلماء في زيارة لكهنؤ والاجتماع بي، وتبادل وجهات النظر حول أمور الدعوة، لأنّهم عرفوني عن طريق مؤلّفاتي ومقالاتي المنشورة بالعربية، فأبديت سروري ورغبتي في استقبالهم في لكهنؤ، وأبلغتهم برامجي في الرحلة والإقامة، ليمكن تحديد مواعيد السفر وإجراءاته، وقد سبق أن ذكرت أنّي التقيت بوفد العلماء الروس في طريقي من جدة إلى الرياض، وعلمت منهم أن كتابي «قصص النبيين للأطفال» يدرَّس في الاتحاد السوفييتي في مدارس عديدة، وأنّ مؤلّفاتي الأخرى معروفة هناك.

وصلت هذه الجماعة إلى لكهنؤ في ١٣/ ديسمبر، واستضافتها ندوة العلماء، وكنت وقتئذ في قريتي بمديرية رائي بريلي، فاتّصل بي العزيز محمد الرابع الحسني الندوي هاتفياً، وأخبرني أنَّ هذه الجماعة تتكوّن من كبار العلماء والمثقَّفين، ويمتاز بعضهم بحفظهم صفحات تلو صفحات، من كتابي «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»، فتوجّهت إلى لكهنؤ في ١٤/ ديسمبر،

ووصلت إلى ندوة العلماء بعد صلاة المغرب، وقد بدأت حفلة الترحيب بهم في مسجد ندوة العلماء الواسع.

ووصل أعضاء الوفد إلى دار الضيافة لمقابلتي، وكانوا تسعة أفراد، وكانوا ينتمون إلى مناطق مختلفة من أزبكستان، ومرغينان، وكرغستان، وتاجكستان، ونوكد، وسراوان، وكان ثلاثة منهم يشغلون منصب الإمامة والخطابة في ثلاثة مساجد كبيرة، وكان بعضهم يجيدون اللغة العربية، ويتكلّمون بها بسهولة، ولا سيما الشيخ عبد الوالي بن محمد ولي أندجاني، الذي كان يجيد التحدُّث بالعربية، ويتقن فيها، ويمتاز بدراسته الواسعة، ونظره العميق، وكان خطيباً وإماماً في جامع أزبكستان.

ألقيت في حفلة الترحيب في المسجد كلمة ضافية بالعربية، أبديت فيها أولاً سروري وابتهاجي على تحرّر هذه المناطق من مخالب الشيوعية الدموية، وعودتها إلى حظيرة الإسلام من جديد، وقلت: إنه كان لا يتجاسر أحد أن يتكهَّن قبل عدّة سنوات أن شمس الإسلام ستشرق فيها من جديد، وترفع فيها رايته، وتنفذ فيها شريعته، وتدرس فيها لغته، وتنطق بكلمته جهراً وعلانية؛ وصرّحت بأنّ هذا الانقلاب الذي وقع في هذه البلاد هو منحة عظيمة، ومسؤولية جسيمة في آن واحد، فلابدَّ من أداء الشكر على هذه المنحة، ولا بدّ من أداء هذه المسؤولية، التي تقع على كواهلهم بعدما استلموا زمام الأمور في هذه البلاد.

وردّ على كلمتي الشيخ عبد الوالي بن محمد ولي، وألقى كلمة قوية مؤثّرة بالعربية، وعلمت فيما بعد أنه قرأ معظم مؤلّفاتي، وهو من المعجبين بروائع إقبال بصفة خاصة، أما كتاب «قصص النبيين» فهو من مقرّرات عدة مدارس، ومقبول لدى الطلبة والطالبات، ويملأ فراغاً كبيراً، وكان اللقاء وُدّياً يغمره الحُبُّ والحنان، وكان السرور بادياً على أسارير وجوههم.

ثم قام أعضاء الوفد بجولة عامة في محيط ندوة العلماء، واجتمعوا بأساتذتها، وتحدَّثوا مع طلابها، ولاحظوا نشاطاتها التعليمية، وشاهدوا أقسامها المختلفة، واستعرضوا مقرراتها الدراسية، وأبدوا إعجابهم بها.

وفي اليوم الثاني عقدت حفلة تكريماً لهؤلاء الضيوف القادمين من تركستان في القاعة العباسية، وحضرها عدد كبير من الطلبة والأساتذة، وأعيان البلد والعاملين في مجال الدعوة والإصلاح، وبدأ الحفل بتلاوة آيات من الذكر الحكيم، ثم ألقى العزيز سلمان الحسيني الندوي (أستاذ قسم الحديث في دار العلوم ندوة العلماء) كلمة ترحيب.

ثم قدمت كلمتي، فتحدّثت فيها بإسهاب حول أهمية هذا الانقلاب وخلفيّاته، وأعدت فيها ما قلت في الحفلة السابقة من أن هذا الانقلاب نعمة عظيمة في جانب، واختبار كبير في جانب آخر، إنه نعمة لأنّ الإسلام نال به حياة جديدة، وزالت به العوائق التي كانت تحول دون قضاء الحياة الإسلامية تجربة، ودون العمل بما أوجبه الله تعالى، وبما جاء في كتابه وسنّة نبيّه من الأحكام الاجتماعية، ودون التظاهر بشعائر الدين، لكنه كذلك اختبار كبير، لأن هذه الفرصة السانحة فرصة غالية، فإذا لم تنتهز هذه الحرية والاستقلال، ولم يُبذل جهد لإبراز محاسن الإسلام الاجتماعية، ولم يعلم النشء الجديد التعاليم الإسلامية، ولم تكوّن أذهانهم لتوجيه هذه البلاد، وللمساهمة في ترقيتها وتطويرها، ولمسايرة ركب الحياة في هذا العصر، وفي هذه البلاد مثل روسيا، ولم يبذل مجهود للتوفيق بين تعاليم الإسلام ومبادئه الأساسية، وبين مقتضيات العصر الصالحة، فيُخشى أن تُضاع هذه الفرصة، وتنزع هذه الثروة.

وأكَّدت في هذا الصدد على أمرين مهمين:

أولهما: شنّ حملة لإيقاظ الوعي الديني، وإشعال الغيرة والحمية الدينية التي هي بمثابة سور غالٍ منيع، لصيانة الإسلام والاحتفاظ به في أي بلد، وتضمن

له البقاء. وذكرت في هذه المناسبة حركة الشيخ محمد إلياس رحمه الله، مؤسس جماعة الدعوة والتبليغ، ونشاطاته ومجهوداته الدعوية والإصلاحية.

وثانيهما: إعادة الثقة إلى الجيل الجديد بتعاليم الإسلام، وجدارته بالبقاء والقيادة، وإسعاف البشرية التائهة، وإنقاذها من الدمار والهلاك، وإقناعهم به عملياً وعقلياً، وترسيخ الاعتقاد في الأذهان بأن الإسلام لا يساير الزمن فحسب، وإنما يتمكن من قيادة الزمن وتوجيهه.

فلو لم تعد هذه الثقة بصلاحية الإسلام إلى الجيل الجديد والطبقة المثقفة الجديدة، لظلوا كما يقول ابن كثير: ممن لا يعرفون الإسلام حقيقة.

إن الإسلام كان قد مثّل دوراً بارزاً في عصر كان قد تخلّف فيه العلم والحضارة، وكان لم يشهد تقدماً في الصناعة، ولم يشهد رُقيّاً في المدنية، وكان لم تسخر فيه القوى الطبيعية، ولم تكتشف أشياء جديدة، وقام بتصحيح العقائد والأخلاق، بالحرب للمعتقدات القبيحة، والعادات الجاهلية، وقضى عليها.

لكنه لا يستطيع في هذا العصر الذي تقدّمت فيه العلوم الاقتصادية والاجتماعية، وتقدّمت فيه السياسة والفنون الأخرى تقدّماً كبيراً، أن يأتي بما أتى به من انقلاب في مجتمع متخلّف، هذه هي الفكرة التي تبعث اليأس في قلوب الشباب، وتأخذهم إلى طريق الردّة الفكرية.. وتحمل هذه النقطة أهمية بالغة في بلاد كروسيا التي تحرّرت حالياً من سيطرة النظام الشيوعي اللاديني، وبدأ فيها الانفتاح حديثاً.

وألقى الشيخ عبد الوالي بن محمد ولي أندجاني خطيب جامع أزبكستان كلمته بالعربية، وأشار فيه إلى كتابي «قصص النبيين للأطفال» بصفة خاصة، وصرّح بأنّ هذا الكتاب نال قبولاً ورواجاً في الدوائر التعليمية في روسيا.. وانتهى الحفل بالدعاء.

ومن العادة المتّبعة في دار العلوم ندوة العلماء، أن يقرأ طالب قطعة من كتاب في المسجد بعد انتهاء صلاة العصر مباشرة، ومن باب الصدف كانت القطعة التي قرأت في ذلك اليوم تدور حول فتح الأندلس، ودعاء البطل المجاهد طارق بن زياد، فقال لي الشيخ عبد الوالي بن محمد ولي وهو خارج من باب المسجد، بعد أداء صلاة العصر: أن هذه القطعة تبدو وكأنها مأخوذة من كتابك الشهير المعروف بروائع إقبال، وكان الأمر كذلك، وهذا ما يدلّ على ذوق هـؤلاء العلمـاء، وعنايتهم بالدراسـة، وشـغفهم بالمطالعـة، وهذا ما نفقده في بلادنا.

عاد هؤلاء العلماء إلى دلهي بعد ما شاركوا في الحفلة التي كانت عقدت في مركز جماعة الدعوة والتبليغ الذي يقع في وسط المدينة في ١٥/ ديسمبر ليلاً، وقضوا هناك يوماً، ثم توجّهوا إلى بومباي، ومن بومباي إلى جدة لتأدية العمرة والزيارة.

* * *

رسالة دعوية مخلصة

إلى جلالة الملك فهد بن عبد العزيز

إنّ الداعي الذي يشغل نفسه بالدعوة إلى الله، ويحمل في جنبه قلباً متألّماً، ويرتفع عن الأغراض والمصالح، ويكون صاحب فكر، ويسعى إلى رفع شأن المسلمين، وإصلاح أحوالهم في ضوء الكتاب والسنة، وبتوجيه من الشريعة السماوية، ويريد الامتثال بما أمر الله به في هذه الآية الكريمة ﴿ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [المائدة: ٨]؛ لا يستطيع بل لا يجوز له أن ترتكز جهوده على البلد الذي ولد فيه، والمجتمع الذي يعيش فيه، والشخصيات التي يرتبط بها، ويقصر مساعيه على تلك البيئة المحدودة، ولا يتجاوز عن ذلك في إسداء النصح، والعناية بالقضايا والمشاكل، والقيام بدراسة الأوضاع والظروف، فلا يحتسب إلا إياها، ولا يدين إلا بها، وتجري دعوته على اتّجاه واحد في إطار محدود.

بناء على ذلك كان من الطبيعي أن أشعر بالحاجة إلى أن أوجّه رسالة دعويّة مخلصة إيجابية إلى خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز حفظه الله ورعاه، الذي شرّفه الله تعالى بتولّيه الحرمين الشريفين وخدمتهما، وصيانتهما والاحتفاظ بهما، وأتاح له فرصة لتقديم نموذج للحكومة الإسلامية الراشدة، وقد سبق أن رفعت الصوت ضد الغزو العراقي، واستنكرت هذا العمل الإجرامي الشنيع استنكاراً شديداً، واحتججت عليه احتجاجاً عنيفاً على منابر مختلفة، وانتقدت نوايا الرئيس العراقي صدام حسين وتصوّراته البعثية، وأفكاره الشيوعية.

وقمت بذلك باعتباره فريضة دينية، وواجباً شرعياً على أساس دراساتي الشخصية، ومعلوماتي الواسعة، وأردت أن ألفت فيها نظر جلالة الملك فهد ابن عبد العزيز، إلى هذه المرحلة الدقيقة الخطيرة التي يمرُّ بها العالم العربي الإسلامي، وإلى الحاجة إلى بذل المجهودات والمحاولات، لإيجاد مجتمع مثالي أفضل إلى حد ممكن، وسدّ الثغرات التي تحول دون تأييد الله ونصره، وإلى الإنابة إليه، والاستغفار منه، وإلى الاستنارة بسير الخلفاء الراشدين، ولا سيّما سيرة سيدنا عمر بن عبد العزيز، والمجاهد الجليل السلطان صلاح الدين الأيوبي، رحمهما الله تعالى.

فكتبت إليه هذه الرسالة، التي تليق بمقامه الجليل، وتراعي ما حقَّقه من مآثر وأمجاد، وما قام به من بطولات وحسنات، وحاولت إيصالها إليه بوجه خاص، فقرأها وأمعن النظر فيها، وردّ عليها بتوقيعه ردّاً كريماً واقعياً، جدّد ذكرى الملك فيصل بن عبد العزيز الشهيد، وسلّمتني السفارة السعودية في (دلهي الجديدة) هذه الرسالة الملكية باهتمام بالغ.

وفيما يلي نص هاتين الرسالتين، ويعرف بهما مدى ما أدّيته من مسؤولية، وواجب شرعي، وفريضة دعوية، واحتساب ديني، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكّلت وإليه أنيب.

رسالتي إلى الملك فهد بن عبد العزيز، حفظه الله تعالى:

حضرة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز حفظه الله وقواه وحماه!

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

فإنَّ شعور هذا الكاتب ـ الفقير إلى رحمة الله ـ بواقع العالم الإسلامي الأليم، وما يواجهه مركز الإسلام ـ الجزيرة العربية بما فيها الحرمان الشريفان ـ والأقطار الإسلامية من تحدّيات وأخطار، يدفعه ـ وهو يتشرَّف بتقديم بعض

مؤلفاته إليكم - إلى توجيه هذه الرسالة المخلصة إلى من يعتبره الكاتبُ أجدر الناس وأقدرهم لمواجهة هذا الواقع الخطر ومعالجته، ولو استطاع أن يضع قلبه الخفّاق ومخّه المتألّم في هذه الرسالة المتواضعة، ويكتبها بدمعه ودمه بدل الحِبر الذي يكتب به، ولو استطاع أن يستغني عنها بالمثول والحديث الشفوي لفعل، ولكن الأوضاع في بلاده الآن وعدة عوائق أخرى، تمنعه من ذلك، فيستعين بهذه الرسالة المخلصة توكّلاً على الله، ثم اعتماداً على ألمعية المكتوب إليه، حفظه الله ورعاه، وفراسته وتقديره لكل ما يقدّم إليه من آمال وأعمال، وحقائق راهنة، ومتطلّبات مخلصة، فيقول وبالله التوفيق:

إنَّ العالم الإسلامي اليوم بصفة عامة، والجزيرة العربية والبلاد المقدّسة بصفة خاصة، تمرّ اليوم بمرحلة دقيقة عصيبة مصيرية، لا تتحمّل تأخير ساعة، ولا ادّخار مجهود في مواجهة هذا الواقع، ومعالجة هذا الوضع الخطير، وقد تفاقم الخطب، وكاد قول الله يصدق على الوضع الحاضر ﴿ بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ﴾ [القيامة: ٢٦ ـ ٢٧].

والفقير ضنا بوقتكم الثمين ومسؤولياتكم الضخمة يلخّص القول بقدر الإمكان، ففي ذكائكم ومعرفتكم للدين، ودراستكم وتأمّلاتكم في القرآن العظيم، والحديث النبويّ الشريف، والسيرة النبوية العطرة، وتاريخ الأمم والمجتمعات، ما يغني عن التطويل:

١ ـ إن أنفع شيء وأجداه في ضوء القرآن والسنة، وتاريخ الدعوات والقيادات والتطوّرات والانقلابات، هو الصلح مع الله، والإنابة إليه، وتغيير ما يمكن تغييره في حياة الفرد والمجتمع، وتطبيق ما يمكن تطبيقه في حياتهما، من الإصلاحات وإزالة المنكرات، وما يُبعد من رحمة الله، ويحول دون نصرته، من تناقضات أو تساهلات في الإطار الفردي والاجتماعي والإداري والسياسي، والقرآن شاهد على ذلك، وفي السنة الصحيحة والأسوة النبوية، وسيرة الخلفاء الراشدين، والملوك الصالحين، نماذج من ذلك ، لا تحتاج إلى تفصيل وتعيين أسماء وحوادث، وذلك أكبر مؤثّر، وجالب لرحمة الله تعالى، ومغيّر لمصير الأمم والمجتمعات عند الأزمات، لا يعادله شيء آخر من

الأسباب المادّية والطاقات العسكرية، وحماية الحكومات الكبيرة ومؤازرتها، مع أهمية ذلك كله.

٢ ـ ملء فراغين عظيمين في حاضر الأمة الإسلامية ـ بجميع شعوبها وأقطارها ـ قد جنيا على كيان الأمة الإسلامية، وشقّ الدعوة الإسلامية طريقها إلى الأمام، وتسخير القلوب والعقول بقبولها، بل وعلى التأمل فيها، وعرّضا حاضر هذه الأمة، ومستقبل الوجود الإسلامي لخطر الرّدة الحضارية والانحرافات العقائدية والسلوكية، لا بدّ من ملئهما في أقرب وقت:

أولاً: عدم وجود مجتمع إسلامي مثالي يرضاه الله تبارك وتعالى، ويكون نموذجاً، بل مرآة للتعاليم الإسلامية في العقائد أولاً، ثم في الأخلاق والمعاملات وشُعَب الحياة ثانياً، يتنفّس فيه الإنسان في طمأنينة وسكينة، ويشمّ فيه رائحة الإيمان، ويشعر بالسعادة الحقيقية، وكأنه انتقل من الجحيم إلى الجنة، ومن الشقاء إلى السعادة، ويرى فيه التعاليم الإسلامية والمبادئ الخلقية تُطبّق عملياً، ويرى الإسلام يسعى على قدميه، ويتكلّم بلسانه، ويسود على المجتمع، من المسجد إلى السوق، ومن المحاكم إلى البيوت، ومن العقائد والمعاملات؛ ذلك المجتمع المثالي فُقِد اليوم تقريباً، وإعادته من حاجات الإسلام، بل من حاجات العالم الأولى.

ومن المعلوم الظاهر أن الحكومة السعودية التي نشأت وقامت على الدعوة وسعدت بالوصاية على الحرمين الشريفين والبلاد المقدّسة، التي هي محطّ أنظار شعوب العالم، ومورد المسلمين السنوي الأكبر ـ بفضل الحج، ووجود الحرم المكّي الشريف، والمسجد النبويّ الشريف ـ أقدر على إبراز هذا المجتمع وتمثيله، ويقترن بذلك تأييد الله تبارك وتعالى ونصرته وحمايته.

ثانياً: والفراغ الثاني هو عدم وجود قيادة إيمانية دعوية قوية في العالم الإسلامي، تقترن بصفات الرجولة والطموح، وعلو الهمّة وبُعد النظر والقدرة

على مواجهة القوى العالمية الرئيسية القائدة، التي تملّكت زمام القيادة البشرية، وأصبحت تتحكّم في مصاير الشعوب والأقطار الإسلامية وغير الإسلامية، من غير حقّ ومبرّر، كما ينبغي أن تتّصف هذه القيادة بروح التضحية والبطولة والجلادة، وشيء من التقشُّف، والقدرة على المبادرات، وذلك لأن الناس ما زالوا مفطورين على حب روح الطموح والإقدام، وتحدّي القوى الكبيرة ـ ولو تظاهراً أو دعاية ـ لأنَّ ذلك ممّا يؤثّر في عقيدتهم واتّجاههم، إذا كان هؤلاء المتظاهرون أصحاب ضلال أو إلحاد ـ فضلاً عن الانحراف في السلوك والعمل ـ أو كانوا متّصلين بفكرة أو فلسفة إلحادية، أو مؤامرة مسيحية صليبية «كحزب البعث العربي»؛ فإن الناس، خصوصاً الشباب الطَّموح الكاره للقوى العالمية المؤيّدة لكل محاولة أو مخطط ضد الإسلام والمسلمين، أصبحوا يرحّبون بكل ما يواجه هذه القوى بشجاعة ـ ولو مصطنعة ـ أو تحدّ ـ ولو بلسان دعائي ـ فيؤثّر ذلك في العقيدة، وتعيين المواقف إزاء الحكومات الإسلامية، ولا شكّ أنّ وجود الفراغ من شيء ضروري وفي مصلحة معقولة، أمر غير طبيعي، لا يصلح للبقاء طويلاً.

فلابدّ من ملء هذا الفراغ، وصرف المتذمّرين من تأثير الطاقات الكبرى في السياسة العالمية، وقدرتها على التدخل في شؤون الأقطار الإسلامية، في سياستها وقيادتها، من الاندفاع إلى هؤلاء القادة الملحدين المتظاهرين، إلى قادة مخلصين متديّنين سليمين؛ والحكومة السعودية أجدر، بل وأقدر عليه بتشرفها بخدمة الحرمين الشريفين، ومركزها في الجزيرة العربية، وحملها للعقيدة الإسلامية الصحيحة، وبُعدها عن فساد العقيدة والبدع والمنكرات؛ وأنتم يا خادم الحرمين الشريفين، جديرون بذلك بما حباكم الله به من طيب المَحْتِد وكرامة المَوْلِد، وما عرف من تاريخ أسرتكم في القديم والحديث من اعتمادها على الله، وتحكيمها لكتابه، والتزامها بنهج رسول الله ﷺ.

وموجز القول: إنَّ العالم الإسلامي اليوم يرنو ببصره إلى من يمثّل دور الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز في نهاية القرن الإسلامي الأول، في زهده، وبساطة معيشته، وإقامة الحكم الصالح، والتأثير في المجتمع الإسلامي الواسع، وصرفه عن الترف وتقليد الأمم البطرة، العابدة للنفس والشهوات؛ إلى الاقتصاد في المعيشة والإقبال على الآخرة، والتمسُّك بالقِيَم والمُثُل الإسلامية، وقد تحقّق ذلك في سنتين وخمسة شهور لإخلاصه، وصرامته وقوة إرادته، وحياته الشخصية المثالية.

أو يرنو ببصره إلى السلطان المظفّر الصالح، المجاهد البطل، السلطان صلاح الدين الأيوبي رجل القرن السادس الهجري، الذي خضد شوكة الصليبيّين، واستردّ القدس وفلسطين، وحافظ على المملكة الإسلامية الواسعة، والبلاد المقدّسة، والأقطار العربية، وكل ذلك بإيمانه العميق المتغلغل في الأحشاء، وشغفه بالجهاد، وسيرته الإسلامية الصالحة، الزاهدة، وصموده وحكمته القيادية.

ولعلّ مشيئة الله قد هيّأت جلالتكم ـ وقد نشأتم في مهد الإسلام وعرين الأسود وموطن الأبطال ـ لتكونوا من هذا الطراز الفذّ، إذا صحَّ العزم، وقويت الإرادة، وحالف التوفيق الإلهي، ماشيء من ذلك على الله بعزيز، وسيكون ذلك اليوم أسعد يوم في تاريخ الإسلام والمسلمين منذ أمد بعيد، إذاً ينشد المسلمون:

هذا الذي كانت الأيام تنتظر   فليوفِ لله أقوام بما نذروا

وتفضّلوا بقبول فائق الاحترام ولائق التحية والسلام.

الداعي لكم ولأسرتكم، ولطول حياتكم وتوفيقكم

المخلص أبو الحسن الندوي

١٧/ جمادى الأولى ١٤١١هـ، ٦/ ١٢/ ١٩٩٠.

رد الملك فهد بن عبد العزيز على رسالتي:

فضيلة الشيخ أبو الحسن الندوي سلّمه الله،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

وبعد: فقد تلقّيت رسالتكم الطيّبة، بما تضمّنته من شعوركم الإسلامي المخلص عن واقع الأمة الإسلامية، وما تواجهه في هذه الظروف من تحدّيات في حاضرها ومستقبلها، وأشكر فضيلتكم على ما أشرتم إليه نحو المملكة العربية السعودية، ونحو شخصي، ونؤكّد لكم بأنّنا لم ولن ندّخر جهداً نستطيعه في سبيل رفعة الإسلام، وخدمة المسلمين في كل مكان، انطلاقاً من السياسة التي درجت عليها المملكة العربية السعودية، في السير على هدي كتاب الله الكريم، وسنّة رسوله المصطفى محمد ﷺ، في كلّ شأن من شؤونها.

إنّنا في هذه البلاد ندرك بأنه لا عزّ لهذه الأمّة ولا حياة ولا تقدّم إلاّ إذا التزمت بكتاب الله وهدي رسوله التزاماً صادقاً، واستنارت بسيرة الخلفاء الراشدين والتابعين والمصلحين، الذين عرفهم تاريخها، ولا شكّ بأنّ ما يقع لهذه الأمة من أحداث وأزمات هو اختبار لمدى إيمانها، والتزامها بما أمر الله به، وانتهائها عما نهى عنه.

وفي هذا الوقت الذي تجابه فيه الأمة الإسلامية هذه التحدّيات نرجو الله القدير، ونضرع إليه بأن يحقّق لها ما وعدها به من النصر والتمكين في الأرض، وأن يردّ عنها كيد الأعداء ويمنحها الثبات.

والله يرعاكم.

أخوكم

خادم الحرمين الشريفين

فهد بن عبد العزيز آل سعود

ملك المملكة العربية السعودية

الرياض في ١٢ شعبان ١٤١١ هـ

الموافق ٢٦ فبراير ١٩٩٠م

مجتمعنا على فوهة البركان

يكاد عام ١٩٩٠م ينقضي، ويبدأ عام ١٩٩١م، ولكن أوضاع البلاد، والنزعات والتحدّيات، والأخطار المحدقة ظلّت تتفاقم، وتزداد تعقّداً، وكانت المؤشّرات تدل على تدهور مزيد في الأوضاع، ويخف الأمل في أي تحسُّن، أو تخفيف في حدّة التوتر، ولم يكن يبدو أي عنصر يبشّر بالتحسّن أو بريق للأمل، يعقد به الآمال في هذا البلد المترامي الأطراف، الذي لعب دوراً رائداً غيَّر مجرى التاريخ في العصور الماضية؛ وكان السبب الرئيسي لهذا الوضع المتفاقم، أن البلاد كانت خالية من تلك النفوس التي تحمل ضميراً حرّاً، وقلباً إنسانياً حيّاً تقلقه أوضاع البلاد، ويحرّكه شقاء الإنسان، فيضطرب ويتصدّى لإنقاذه مرتفعاً عن المصالح السياسية والاقتصادية والحزبية؛ ويعالج هذه الأوضاع بإخلاص وبتكريس، وبروح التضحية والفداء.

ورأى كاتب هذه السطور من واجبه أن يؤدّي فريضة تحذير الذين يحملون الشعور الوطني، والضمير الحُرّ، من قادة هذه البلاد وزعمائها. . أن يقدّم لهم معالجته لهذه الأوضاع معالجة واقعية، ويحلل أسبابها، رغم أشغاله المكثّفة في مجالات الدعوة، والتعليم والبحث والتأليف، والخطابة في اللغة العربية والأردية، والتي يعتبرها غايته، وتلائم ذوقه وطبيعته.

تقرّر عقد اجتماع شامل للمسلمين والهندوس في دلهي، في الثاني عشر من ديسمبر سنة ١٩٩٠م، تحت إشراف وتنظيم الحكومة المركزية، ولم يستطع كاتب هذه السطور حضور هذا الاجتماع عملياً لبعض الموانع، ولكنه انتهز هذه الفرصة القيّمة وأعدّ رسالة خاصة بموضوع الاجتماع، وتحمل تصوّره، وتعكس موقفه إزاء القضية الراهنة، قرأها الدكتور يونس النجرامي (رئيس أكادمية أردو في ولاية أترابراديش سابقاً)، وكان عنوان هذه الكلمة «مجتمعنا

فوق فوهة البركان»، بينت في هذه الكلمة أربعة أسباب رئيسية، وصرّحت بأنّ هذا الوضع المتفاقم سيبقى ويستمر، ما لم يُتخذ إجراء لإزالة الدواعي والمحركات لهذا الوضع، وهي كما يلي:

١ ـ الكراهية الطائفية.

٢ ـ النزعة إلى الظلم والبربرية.

٣ ـ ضآلة القوى التي تقف في وجه قوى الظلم وتقاومه وتخاطر من أجله، وخاصة من طبقة القادة الدينيين.

٤ ـ الطبيعة السائدة للحصول على السلطة، والوصول إلى الحكم، مهما كلّف ذلك من ثمن وتضحية.

٥ ـ نكران الصدق والعدل.

٦ ـ منهج الانتخاب السائد الذي لا يُلتزم فيه بالقيم والمُثُل، ولا يُنظر فيه إلى مصلحة البلاد، وإنما يعتمد فيه على الوسائل التي تكسب تأييد أكبر عدد من الناخبين.

وفي الختام أوضحت بأني أقول ولا أعتذر لذلك، لأنني طالب ومؤلف متواضع لتاريخ البلاد وتاريخ العالم، وعلى الأساس العلمي ومعرفة التاريخ أقول: إن مجتمعنا الهندي لم يواجه الأخطار والتحدّيات بمثل هذه الخطورة والضخامة في أي عصر مضى، كما يواجه في هذا العصر منذ (٣٠ أو ٣٥ عاماً).

وختمت مقالي ببيت شعر لشاعر في اللغة الأردية، وكان مولانا آزاد معجباً به معناه:

«أخشى أن تموت أنت أيها القلب الحيّ، وما الحياة إلا عبارة عن حياتك».

* * *

ذكــريــات

عام ١٩٩١

حرب الخليج ومغامرة صدّام حسين

كانت أوضاع البلاد والعالم الإسلامي تستمرّ كما صوّرت وعبّرت عن انطباعاتي عليها في الصفحات السابقة، وكان بعض زعماء الملّة الإسلامية رغم ظروف اقتصادية وإدارية، وتعليمية ضيّقة، وقضايا ومشاكل عديدة؛ يواصلون كفاحهم من منابر مختلفة، وعن طريق مؤسّساتهم ومنظّماتهم الدينية والإصلاحية، لاحترام الإنسانية والتعايش، وصيانة المال والنفس، ويرفعون أصواتهم ضد الظلم والعدوان، إذ فوجئ العالم الإسلامي، وعلى الأخص العالم العربي المحدود، الذي ارتفع منه قروناً طويلة نداء إلى العالم كله، بقوة وصراحة لاحترام الإنسانية والعدل والمساواة والإيثار، والذي غيّر مجرى التاريخ، ووجّه العالم والجنس البشري إلى عهد جديد، ففوجئ العالم بحادث نكّس رؤوس العاملين لاحترام الإنسانية والعدل والمساواة والإيثار والتضحية، من أفراد الملّة الإسلامية، بل أخرس هذا الحادث ألسنتهم كما قال شاعر عربي:

ولو أن قومي أنطقتني رماحهم   نطقت ولكن الرّماح أجرّت

كان ذلك حادث احتلال العراق للكويت، في الثاني من أغسطس سنة ١٩٩١م، ومعاملته معاملة الفاتح القوي المستبد، مع المفتوح الضعيف المستكين، وقد كان العراق عاصمة الخلافة الإسلامية قروناً طويلة، ومعقلاً للثقافة الإسلامية ومركزاً للعلوم الإسلامية، وبلداً عربياً إسلامياً، أنجب أعلاماً في التربية والتزكية والعلم، وكان مولداً ومدفناً لكبار المشائخ الروحانيين والمربين الخُلقيين، وقد كانت بين البلدين صلات الدين واللغة والتاريخ، وحدثت هذه الغارة، كأنه لم تكن بينهما رابطة أو صلة تربطهما على أساس

الدين واللغة والثقافة والقرابة، وأخطر ما كان في تلك الغارة أنها أثارت مخاوف بأن البلد المعتدي قد يتعدّى إلى اتّخاذ إجراء عسكري ضدّ الحجاز الشريف، ويتصادم مع الحكومة السعودية في آخر الأمر.

وأدرك هذا الخطر، وشعر بخطورته وهوله بصفة خاصة، تلك الطبقة الدينية التي كانت على صلة بما يجري في العالم العربي من حركات واتّجاهات، وتاريخها ومنطلقاتها، وتعرف عواملها وأهدافها، ومنابعها الفكرية، وخاصة حركة القومية العربية التي عرفت بالبعث العربي؛ وكانت هذه الطبقة الدينية تخشى -على أساس معرفتها لأهداف هذه الحركة، وكما تدل عليه بيانات قادتها ومفكريها ومعظم المسيحيين- أنَّ هذا الإجراء إذا نجح واستمرَّ، فإنه لا يكون تمهيداً لعودة البلدان العربية فقط، (التي هي منبع الدعوة الإسلامية) إلى الجاهلية الأولى، بل إنها خطر على الحجاز المقدّس والجزيرة العربية، ولا يبقى أيّ تمييز بين الكفر والإيمان، والتوحيد والوثنية، والدين الإسلامي الحنيف والنصرانية واليهودية، وسوف لا يكون غريباً إذا تحقّق ذلك، أن تعاد أبطال الجاهلية العربية وقادتها إلى مكانة الشرف والاعتزاز، ويتعدّى الأمر إلى أن تتعرّض حرّية الحج للخطر (لا قدّر الله)، وأن تعاد ذكريات الجاهلية المنطمسة، ليس في منى وعرفات، بل في مكة المكرّمة نفسها.

وكان أهون شيء أن يتجرّأ صدّام حسين بعد النصر لتنصيب تماثيله في مكة المكرّمة، أو في المنطقة المجاورة لها، كما قام بتنصيبها في بغداد في مواضع كثيرة، وكما شوهد في الكويت بعد الاحتلال، وقد حكى بعض القادمين من الكويت بعد العمليات، أن المساجد تعرّضت للإهانة والاعتداء على حرمتها، وجرى عمل السلب والنهب بنطاق واسع. وقد أبديت موقفي في المقال الذي نشرته صحيفة «تعمير حياة» الأردية الصادرة من ندوة العلماء.

عقدت جمعية المثقفين المسلمين مؤتمراً للاحتجاج على هذا العنوان،

وتحدّثت في هذا المؤتمر بتفصيل، واستنكرت العدوان العراقي، وقلت: إن المأساة الكبرى التي ظهرت بإجراء صدّام حسين هي أنّ السُّمعة الخُلُقية، والدعوة الإنسانية للإسلام قد أُصيبت بضرر، لا يمكن أن تعود إلى حالتها في مدة قريبة، وقد نكّست رؤوس المسلمين خجلاً وحياءً، وكيف يسوغ لهم أن يشكوا ظلم غيرهم بعد أن اعتدى بلد كبير على بلد صغير مجاور يتكلّم لغته، ويتّبع دينه، واستولى عليه.

وقلت: إنه من مواطن الضعف لشبه القارّة الهندية (الهند وباكستان وبنغلاديش)، أنها تجعل كل شخص يتكلّم بلهجة شديدة ضدّ دولة غربية بطلاً، وتغضّ بصرها عن مساويه[1]، وأن المسلمين يغرمون بكل كلام فيه مخاطرة ومغامرة.

وقلت: إن المأساة الكبرى هي الخسارة التي لحقت بالدعوة الإسلامية بهذا الاعتداء، وقد تعذّر عليّ شخصياً كعامل في مجال رسالة الإنسانية أن أتكلّم بجرأة وشعور بالمسؤولية، وأقول لأحد أن لا يتعدّى على أحد، وأن لا يستولي على أرض أحد، أو يسيء إلى كرامته.

إن الجزيرة العربية هي الحرم الأكبر، لها كرامة خاصة، ومن الخزي أن تدنّس هذه الأرض بالقذائف، وتتعرّض سلامتها للخطر، وتدقّ صفّارات الإنذار في المدينة المنوّرة، إن العراق هو البلد الذي عاش فيه الفقهاء والمحدّثون، كالإمام أبي حنيفة، والإمام أحمد بن حنبل، والمشائخ الربّانيّون، كالشيخ

(١) استخدم صدّام حسين لمصلحة أو لغير مصلحة لهجة شديدة ضد أمريكا في بعض مواقع، وإن كان كاتب هذه السطور لا يحمل أي ليونة أو تأويل أو معذرة بالنسبة لأمريكا وسلوكها المعاند مع الدول الإسلامية، وحمايتها لإسرائيل والمؤامرات التي تدبّرها، وأنها بدون شكّ تعتبر القوة الإسلامية الصاعدة والقيادات الصالحة في أي جزء من العالم الإسلامي خطراً عليها، وتحاول إحباطها بعد سقوط الشيوعية والثورة في الاتحاد السوفيتي.

عبد القادر الجيلاني، والمعروف الكرخي، وبشر الحافي، وجنيد البغدادي، وربّانيّون آخرون. . فجّروا روافد العلم، ونوّروا العالم بروحانيتهم، كما قال الشاعر الأردي المعروف مولانا حالي مشيراً إلى بغداد ما معناه:

«ذلك البلد الذي كان مفخرة للعالم، وكان حكمها على البر والبحر، وكانت سمعتها عالية، وأن الذين كانوا يحكمون على النفوس، وطبق صيتهم الآفاق ينامون في مقابر بغداد».

يبدو أن الصليبيين والصهيونيين غيّروا استراتيجيتهم الحربية على أساس تجاربهم، فآثروا أن يستخدموا المنتسبين إلى البعث العربي، والمغرمين بدعوة القومية وقادتها للإجراء العسكري على جزيرة العرب، والدول العربية المجاورة، بدلاً من أن يقتحموا هذه المغامرة بأنفسهم، ويرتكبوا هذا الاعتداء، وأن يمهّدوا الطريق، ليصبح هؤلاء القادة والمنتسبون إلى القومية العربية أبطالاً، وأن يكتسبوا الاحترام، وتبجيل العرب والمسلمين، وأن يكونوا معقداً لآمال ـ خاصة لفلسطين ـ وينتهزوا فرصة لنفوذهم في هذه البلاد، التي هي معقل الإسلام ومركزه، لزعزعة ثقة العرب، ويحدثوا الضعف في العقيدة والعمل، ويحدثوا صلاحية العودة إلى الجاهلية الأولى، ويغرسوا الردّة في الأذهان، ويزيلوا النفور من الكفر والعار من الجاهلية، بل يمجّدوا في أذهانهم العهد الجاهلي.

إن هذه الخطّة دقيقة ومتينة وعميقة وخفيّة للغاية، لا يدركها إلا من كان يملك خبرة ومعرفة للعالم الإسلامي، ولحركات العالم العربي السابقة، وتاريخ المؤامرات، ودسائس سابقة، وأقول مُكرهاً إن هذه البلاد تفتقر إلى هذه المعرفة ، وتعاني من ضآلة وسائلها، وإنّ الدوائر الدينية لا توليها أهميّة كبيرة، كما يليق بها.

* * *

اغتيال المستر راجيف غاندي

فوجئت في الثاني والعشرين من شهر مايو سنة ١٩٩١م، بنبأ اغتيال رئيس وزراء الهند السابق، في حادث انفجار قنبلة[١]، وكانت هذه الحادثة الثالثة لهذه الأسرة[٢]، فأثار هذا النبأ المؤلم -الذي كان مفاجأة- الشكوك والشبهات حول مستقبل هذه البلاد، وسلامتها في جانب، وفي جانب آخر تجدّدت ذكريات اللقاءات المتكرّرة التي جرت بينه وبين المسؤولين عن هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية في صدد قضية المرأة المطلّقة المسلمة، وسلوكه الكريم، وواقعيته، وجرأته الخلقية، وجدّيته في معالجة هذه القضية، التي كان قد تظاهر بها، حينما قرر اتّخاذ قانون جديد للمرأة المطلّقة، في البرلمان، في ضوء حكم محكمة الاستئناف، استجابة لرغبة المسؤولين عن هيئة الأحوال الشخصية، وتحقيقاً لمطالب المسلمين في الهند، ورعاية عواطفهم ومشاعرهم. . الذي يتعذّر وجود نظيره فيما يصدره المسؤولون عن الحكومة، من أحكام وأوامر في وسط معارضة الأغلبية من سكّان هذه البلاد العنيفة، ودعاية الصحف والمجلاّت الصادرة باللغة الإنجليزية والهندية، التي كان يبدو منها أنّ اتّخاذ هذا القانون سيكون بمثابة شنّ غارة أو نزول صاعقة على هذه البلاد.

---

(١) لم يكن يتولى المستر راجيف غاندي رئاسة وزراء الهند وقتئذ، وكان المستر چندر شيكهر رئيس الوزراء في الهند.

(٢) سبق ذلك حادث اغتيال السيدة أندرا غاندي، وموت المستر سنجي غاندي في حادث تحطُّم الطائرة.

ولا بدّ من أن نذكر بهذه المناسبة أنني راعيت دوماً أن لا ألتقي بالمستر راجيف غاندي وحدي، والتزمت بذلك كلّما وُجّهت الدعوة إليّ للّقاء، أو شعرت بحاجة إلى الاجتماع به، فاصطحبت دائماً الشيخ منّة الله الرحماني (الأمين العام لهيئة الأحوال الشخصية الإسلامية)، لأنّه كان يملك خبرة طويلة، ونظراً عميقاً، ودراسة واسعة لهذه القضية وجوانبها المهمة؛ والأمر الثاني الذي اتفقنا عليه هو أن لا نتفاوض معه إلا على موضوع نفقة المرأة المسلمة، وأفادنا ذلك أن المستر راجيف غاندي اطمأنّ بنا، وأيقن أننا لم نأتِ إليه لهدف سياسي، أو لمصلحة شخصية، أو لرغبة في الحصول على منصب الزعامة، وكان من ذكائه وفطانته أنه عرف ذلك خلال اللقاء الأول بفراسته ووعيه السياسي، ورسخ ذلك في ذهنه أنه لا علاقة لنا بالسياسة، وأننا ننتمي إلى طبقة من العلماء، ولم يسُقْنا إليه إلاّ الحميّة الدينية، والوعي الديني، ومسؤولية العلم والدراسة.

* * *

مستقبل الأمة العربية الإسلامية بعد حرب الخليج
ودروس وعبر يجب أن يُنتفع بها، وفجوات وثغرات يجب أن تُسد

أثار الغزو العراقي للكويت الهمّ والقلق في الدول العربية والإسلامية، وسُمعَت أصداؤه فيها باستنكار، وكراهية واحتجاج؛ فقررت وزارة الأوقاف ورئاسة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في جمهورية مصر العربية عقد مؤتمر في القاهرة في الفترة ما بين ٣٥ـ٢٧/ إبريل سنة ١٩٩١م، لدراسة الأوضاع التي تمخّض عنها هذا الغزو، واستعراض نتائجه وأبعاده استعراضاً واقعياً عادلاً، ووجّهت الدعوة إليّ أيضاً للاشتراك في هذا المؤتمر، لكن لم أتمكّن من الحضور لتدهور صحّتي، وتزاحم أشغالي.

ثم إنّني أدركت أني لم أستطع زيارة مصر منذ أكثر من أربعين سنة، فقد كنت زرتها في عام ١٩٥١م، وأقمت بها خمسة شهور، فمرّت هذه الفترة الطويلة، ولم تسنح لي فرصة لزيارتها، والاجتماع بعلمائها ودعاتها، وطُبعت خلال هذه الفترة كتبي الكثيرة، ونُشرت في مصر بصفة خاصة، ونالت قبولاً ورواجاً في أوساطها العلمية والدعوية، فقامت صلتي بهذه الأوساط عن طريق هذه الكتب، ولا تزال هذه الصلة تنمو وتتوثّق بالرسائل المتبادلة، بيني وبين العاملين في مجالات العلوم والدعوة في مصر، وقد وُجّهت إليّ عدة دعوات لزيارتها لحضور مؤتمرات وندوات، وخاصة من الأزهر.

فشعرت أني إذا زرت مصر بعد هذا الغياب الطويل، فإنها ستسبب إقبال الناس الذين يعرفونني عن طريق مؤلّفاتي وأفكاري، على لقائي، لتبادل

وجهات النظر معي، وتتزاحم اللقاءات وطلبات الأوساط العلمية والإعلامية، والمسؤولين عن الحركات الإصلاحية، ورؤساء المنظمات المختلفة، ولا أستطيع لضعف صحّتي تحقيق مطالبهم، ورعاية عواطفهم وتلبية رغباتهم، وقد يسبب ذلك إرهاقاً لا أطيقه.

فرأيت من المناسب أن أرسل مقالاً مفصَّلاً واضحاً ـ بدلاً من أن أسافر بنفسي ـ أستعرض فيه الأوضاع استعراضاً واقعياً عادلاً، وأسترعي الانتباه إلى الاتّعاظ بها والتفطُّن لها، وأؤكد على ملء الفجوات وسدّ الثغرات، التي تمهّد الطريق لمثل هذه الخطوات والمؤامرات.

وأشرت في هذا المقال الطويل الصريح، إلى الفجوات والثغرات التي يؤدي بقاؤها إلى أزمات وكوارث في كل مكان وزمان، والغزو العراقي أكبر دليل على ذلك، وقمت بالإضافة إلى ذلك بالإشادة بدور مصر القيادي، وأعربت عن اعترافي وتقديري بأن مصر خير مكان بهذا الاعتبار، لعقد مثل هذا المؤتمر لدراسة الأوضاع، وتعيين الثغرات، وتحليل الأسباب، ومعالجة المشاكل، والبحث عن الحل الناجح، وإنقاذ العالم الإسلامي بصفة عامة، والعالم العربي بصفة خاصة من مثل هذه المآسي، لأن الله سبحانه وتعالى قد قدّر ذلك لمصر، واختارها لتقوم بالدور القيادي الحاسم وعملية الإسعاف والإنقاذ للشرف الإسلامي، والمقدّسات الإسلامية في ساعة عصيبة دقيقة، ولذلك أطلق عليها اللقب العالي الذي تفخر به، وهو «كنانة الإسلام»؛ أكتفي هنا بذكر المرحلتين الخطيرتين الدقيقتين، من مراحل تاريخنا العويصة:

المرحلة الأولى:

حين هجمت أوروبا النصرانية الصليبية، بملوكها وقادتها العسكريين، ومقاتليها المتحمّسين، في تصميم لا يوجد له نظير في الماضي، ولا في الحاضر، وكانت تهدف الجزيرة العربية، والحرمين الشريفين، بالاستيلاء ومحو

أثر الإسلام منها، وإهانة ما يفديه المسلمون بنفوسهم ودمائهم وكراماتهم، وأكتفي في بيان هذا الهجوم، وما نشأ منه من الخطر على العالم العربي الإسلامي بشهادةٍ واحدة لصاحب اختصاص في هذا الموضوع من المؤلفين الغربيين، وهو «ستنبلي لين بول» (Stainly lain pool)، صاحب كتاب «صلاح الدين» (Saladin)، يقول في كتابه: «توغل الجيش الصليبي في البلاد كما يشق خشباً منخوراً بالياً، وخيّل للناس، ولو لبرهة من الزمن، أن الصليبيّين سوف يحطمون جذع دوحة الإسلام، ويكسرونها تكسيراً».

هنالك قضى الله ـ وهو الرحيم الغلّاب ـ بأن يكون شرف استعادة القدس الشريف، والقبلة الأولى ـ التي دامت عليها سيطرة الصليبيّين تسعين سنة ـ للإسلام والمسلمين، للسلطان صلاح الدين الأيوبي.

وقد كان صلاح الدين قائد الملك العادل نور الدين زنكي، وحاكم مصر من قبله، فاقترن اسم مصر بهذا الفتح العظيم والمأثرة الكبرى، ورجع الفضل في هذه المأثرة إلى قيادة مصر التي تركّزت في شخصية صلاح الدين، ولا بدّ أنّه استطاع ذلك ـ بحول الله ـ عن طريق الجيش المصري الباسل المسلم.

المرحلة الثانية:

هي هجوم التتار الوحوش على العالم الإسلامي، في القرن السابع الهجري، وكانت محنة هزَّت العالم الإسلامي هزّاً عنيفاً، وتركت المسلمين مشدوهين، واستولى الرعب والخوف على العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه، وغلب على الناس اليأس والتشاؤم، فكانوا يعتبرون التتار بلاءً سماوياً، ومقاومتهم مستحيلة، وانهزامهم فوق القياس، حتى ساد المثل: «إذا قيل لك إن التتار انهزموا، فلا تصدّق»[١].

---

(١) ليرجع للتفصيل إلى الكامل لابن الأثير ج١٢.

وفي هذه المرحلة الدقيقة التي كادت تفوق، أو فاقت حقيقةً، مرحلة الزحف الصليبي، أحجم الملوك والحكومات والقيادات الإسلامية عن مقاومة التتار، واعتبروا استيلاءهم قضاءً مبرماً، وعقوبة من الله؛ هنالك قامت مصر مرة ثانية لتمثّل دورها في مقاومة التتار، واستطاع حاكمها الملك المظفّر سيف الدين قطز، وجيشه المصري العربي المسلم، أن يفنِّد هذه الأسطورة، ويكذِّب هذه الكلمة المأثورة التي كادت أن تكون مُسَلَّمة، ويغيّر الواقع.

يقول المؤرخون:

كان التتار متوجّهين نحو مصر بعد الشام بحكم الطبيعة، وكانت مصر وحدها التي لم تصبها ويلات التتار، وقد كان ملك مصر الملك المظفّر سيف الدين قطز، قد تفرّس أن التتار يزحفون إلى مصر بعد الشام، وعند ذلك يتعذّر التخلّص من وطأتهم، فرأى أن يخرج من مصر بالجنود، ويشنّ عليهم الهجوم في الشام، حتى وقعت الحرب بين عساكر مصر الإسلامية والتتار في عين جالوت، يوم ٢٥/ رمضان ٦٥٨هـ، وانهزم التتار شرّ هزيمة، بخلاف ما سبق لهم من الحروب، فخرجوا منها هاربين، وطاردتهم الجنود المصرية، فقتلتهم وأسرت منهم عدداً كبيراً.

وهزمهم الملك الظاهر بيبرس بعد انهزامهم في عين جالوت مرّات عديدة، وأخرجهم من أرض الشام، وأجلاهم عنها، حتى بطل المثل السائر: «إذا قيل: إن التتار انهزموا، فلا تصدّق».

ثم تحدّثتُ عن الحقائق والفجوات والثغرات التي كشفت عنها الأزمة الخليجية الأخيرة، وأشرت إلى طريق علاجها، وملء هذه الفجوات والثغرات في صفوف الأمة، وتفكيرها وصحافتها، وإعلامها، وبتعبير أوسع وأوضح: في حياة الأمة، وتأمين هذه الأمة من عواقبها السيئة، ونتائجها الوخيمة؛ وإليكم بعض النقاط الهامة:

١ ـ الصلاحية الدائمة والقوية للانخداع بالهتافات الناجمة عن تحمّس زائد، والإغراء بالدعاوى الخلاّبة، والوعود البرّاقة المعسولة من غير نظر إلى عقيدة أصحابها، واستعراض ماضيهم، والأحزاب والمخطّطات السياسية والفكرية التي يرتبطون بها، خصوصاً إذا اقترنت هذه الهتافات أو الإعلانات بتحدّ أو تهديد لقوة من القوى الكبرى، وتظاهر أصحابها بالجرأة والصمود، أحدثت في الدهماء ـ خصوصاً الشباب ـ انفعالاً شديداً شبه اهتياج عاطفي لا سبيل إلى كبحه[١]، لا يفيد فيه النقد الديني والعلمي، واستعراض الواقع والحقائق، والأمين المحايد؛ وأنتجت ثورة بمثابة زوبعة في فنجان، أو غلي كغلي المرجل.

٢ ـ الإسلام هو قومية العالم العربي، ومحمد ﷺ هو روح العالم العربي وقائده، والإيمان هو قوة العالم العربي التي حاربت بها العالم البشري كلّه، فانتصر عليه، وهو قوّته وسلاحه اليوم، كما كان بالأمس، به يقهر أعداءه، ويحفظ كيانه، والعالم العربي، كما يقول شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال:

«لا وجود ولا اعتبار للعالم العربي بالحدود والثغور، إنما وجوده واعتباره بالانتماء إلى محمد العربي ﷺ».

٣ ـ الابتعاد ـ بقدر الإمكان ـ عن حياة الترف والدعة، والاعتداد الزائد بالكماليات وفضول الحياة، والإسراف والتبذير، والاستهانة بمال الله، في سبيل اللذة والشهوة والفخر والزينة، والابتعاد ـ إلى حد ممكن ـ عن كل ما لا يرضاه الله ورسوله من أعمال وأخلاق، ويحول بينه وبين نصر الله وتأييده.

---

(١) ذكرت سبباً من أسباب هذه النزعة الانفعالية، وهو فقدان قيادة جريئة ومندفعة وطامحة منذ مدة في العالم الإسلامي، ستتغلغل في أجسامها عاطفة الجهاد، والشعور بقيادة العالم وتكون مستغنية عن نفوذ الغرب إلى حدّ ما، وتكون واثقة بنفسها.

وقد دلّ التاريخ بوضوح على أن كل أمّة أو جيل، أصيب بالترف والبطر، والبذخ الزائد، والتمرُّغ في النعيم، وتفشَّت فيها عادات جاهلية، وظهرت منكرات خلقية.. أصبحت فريسة لهجوم وحشي وغزو أجنبي.

٤ ـ تأليف جمعية للشعوب والحكومات العربية على غرار جمعية الأمم المتحدة (United Nations)، للإشراف على متطلّبات الأقطار والحكومات الإسلامية، وفي مقدّمتها وعلى رأسها الأقطار العربية الإسلامية، السياسية الدولية، والدفاعية، وتقوية معنويّاتها وحرّيتها وشرفها، وتتولى الدفاع عن بلد صغير يهاجمه بلد كبير، يستعان بها ويرجع إليها في ذلك، بدل جمعية الأمم المتحدة أو طاقة من الطاقات الكبرى، وتملك من الحول والطول، ونفاذ الكلمة والاحترام المتبادل، ما يمكّننا من ردّ الغارة والعدوان على بلد إسلامي، وتحسب لها الطاقات الكبرى حساباً، وترهبها القوى العدوانية، والقيادات المستعبدة الأنانية.

٥ ـ الاهتمام بوجود حركة إيمانية دعوية إيجابية قوية في البلاد، ومعرفة فضلها، وقدرها حق قدرها إن كانت موجودة، بدلاً من التخوّف منها ومحاولة القضاء عليها، تقترن هذه الحركة بصفات الرجولة والطموح، وعلوّ الهمّة، وبُعد النظر، والقدرة على مواجهة الطاقات الرئيسية القائدة، التي تملّكت زمام القيادة البشرية، وأصبحت تتحكّم في مصائر الشعوب والأقطار الإسلامية وغير الإسلامية، من غير حق ومبرر.

* * *

نرسمها راؤ رئيس وزراء الهند

في السابع عشر من شهر يونيو سنة ١٩٩١م، تولّى المستر «نرسمها راؤ» منصب رئيس وزراء الهند، وكان يشغل منصب رئيس المؤتمر الوطني (منذ اغتيال المستر راجيف غاندي)، ثم انتُخب رئيس وزراء للهند، فجمع بين المنصبين، وهو ينتمي إلى حيدرآباد؛ وطبقاً للمعلومات درس في الجامعة العثمانية بحيدرآباد، وعلمت أنه يتقن اللغتين الأردية والفارسية، ويتكلّم ويكتب باللغة الأردية بسهولة.

ومن عادتي أن أنتهز فرصة تولّي أي زعيم يتولى رئاسة الوزراء، فأقدّم إليه تصوّراتي ونصائحي المخلصة ـ فوجّهت إليه رسالة مفصّلة في أول يوليو سنة ١٩٩١م، أدرجها هنا بكاملها ـ ومخاوفي على مستقبل البلاد، كما تقدّم صورة للبلاد في ذلك العصر الذي كتبت فيه الرسالة، والتي بقيت إلى مدة طويلة.

سيادة رئيس وزراء الهند المستر راؤ:

بعد التحيّة اللائقة، أقدّم إليكم التهاني القلبية على تولّي هذا المنصب الجليل، وإتاحة هذه الفرصة الغالية لخدمة البلاد، وتأمين سلامتها وتقدّمها، نظراً إلى الإمكانات والتطلّعات الواسعة لخدمة الإنسانية، وصيانة البلاد التي تناط بكم من قِبَل البلاد وشعبها، ولكن اسمحوا لي أن أقول إنكم تتولّون هذه المسؤولية الكبرى في الظروف التي نزلت فيها البلاد إلى الحضيض، وهي تواجه أوضاعاً لا تواجه إلاّ في قرون، وإني أقول لكم (بصفتي رجلاً دينيّاً)

إنكم تحتاجون إلى نصرة الله وإرشاده، وهو خالق الإنسان، وحبه للإنسان الذي خلقه أكثر من حب الأم الحنون لأولادها، وهو القادر المطلق، وذو القوة المتين، ثم تحتاجون إلى الإخلاص وحب الوطن الصادق والصراحة والقدرة على اتّخاذ القرار، والتجربة الواسعة، وتضامن وتعاون المحبّين الآخرين للوطن.

وإني أتجرّأ في هذه المناسبة الخطيرة، كمؤلف درس فلسفة الأخلاق، والتاريخ والسياسة دراسة عميقة، وكمحبّ للوطن، لا يضمر في قلبه في تقديم هذه الرسالة، وفي إعطاء هذا النصح أي غرض سياسي أو اقتصادي، أو اجتماعي، أو شخصيّ، بإقامة اتّصالات مع هذه الشخصية الكبيرة في البلاد، وأقدّم إليكم بعض النصائح، وأعرض عليكم بعض الحقائق بإخلاص، بدون أي غرض، وأرجو أنكم ستوفرون بعض الوقت من أوقاتكم الثمينة لإلقاء نظرة عالية على هذه الملاحظات المتواضعة، وقد آثرت أن أعبّر عن تصوّراتي ومرئياتي باللغة الأردية، لأني علمت أنّكم تحملون ذوقاً عالياً لأدب اللغة الأردية، وتقرؤون وتفهمون هذه اللغة بسهولة تامة، كما أجد نفسي حرّاً في التعبير في هذه اللغة بطلاقة وبدون تكلّف.

إني لا أضيع وقتكم في هذه الفرصة الغالية بذكر قضايا المسلمين، أكبر أقلّيات الهند، والمسائل الفرعية الأخرى، وإنّما أركّز على ما يتعلّق في صالح الهند، بصفة عامة وبأسلوب مبدئي.

إنَّ الأمر الأول وهو المنهج الوحيد الذي يضمن كرامة البلاد وبقاءها، وتقدّمها وسلامتها، ويمكّنها من أن تلعب دورها المتميّز اللائق بها في العالم المعاصر والوضع العالمي الخطير المعقّد، هو المنهج الذي وضعه قادة البلاد العقلاء الأفذاذ، الذين قادوا حركة البلاد بإخلاص، أمثال غاندي، وجواهر لال نهرو، ومولانا أبو الكلام آزاد.

إنّـه منهـج العلمانيـة الصادقـة، الديمقراطيـة السـليمة، والوحدة بين الهندوس والمسلمين، ومهما طال هذا الطريق وأشكل، فهو الطريق، وكل طريق آخر يتّخذ ـ وإن تحقق به النجاح المؤقّت بصورة طارئة ـ طريق يؤدّي إلى دمار البلاد، ويضيع التضحيات الجسيمة التي بذلها هؤلاء القادة في سبيل حرية البلاد، ويعرِّض البلاد للمشاكل والمسائل المستعصية، التي لا نهاية لها.

إن الشيء الأول الذي أريد أن أصرّحه كدارس للديانات وتاريخ الإنسانية والفلسفة والأخلاق، وأخشى أن أحداً غيري ينظر في المنظور السياسي سوف لا يقوله، في هذه المناسبة، وهو أن البلاد تواجه خطرين شديدين، ويستحق هذان الخطران عنايتكم الأولى.

أوّلهما: عنصر الظلم والعنف، والنكران لقيمة حياة الإنسان، وماله، وكرامته، وشرفه مهما كانت طبقته، والذي يتجلّى خلال الاضطرابات، فتدمّر الأسر والأحياء بكاملها على أساس الفوارق الطبقية، والاعتداء على حياة الإنسـان لنفع مالي زهيد، وارتكاب جرائم، وكثرة المظالم، والأمـر الأخيـر والأكثر إحزاناً وعاراً، إحراق العرائس لعدم الاستجابة للطلبات الباهظة في الجهاز، أو قتلهن بالسمّ والتخلّص منهن.

إنَّ الذين يؤمنون بأي دين لا يصعب عليهم أن يفهموا أنّ الذي خلق هذا الكون، والذي بيده الأمر، والذي يحب مَنْ خلقَه أكثر من حب الأم لأولادها، لا يرضى بهذا العمل بأي حال من الأحوال، ولن يحتمل هذا العمل مدة طويلة، وإذا بقيت هذه الجرائم فإن البلاد لن تزدهر، ولن يبقى هذا المجتمع، مهما بُذلت محاولات لبقائه، وصُرفت قدرات لتقدّم البلاد.

ولكن الذين لا يؤمنون بالأديان يعرفون هذه الحقيقة التاريخية، أن ظلماً وبربريـة أقل درجة من هذا الظلم والبربريـة كانت سبباً لاندثار إمبراطوريات وحضـارات كبـرى، كانـت ذات قـوة وبطـش شـديد في عصـر من العصـور،

ولا تزال آثارها باقية في كتب التاريخ والأدب، وهو المطالبة من طبقة واحدة بأن تغير نفسها، وتتنازل عن خصائصها الملّية، والثقافية والدينية؛ وتوجيه اللوم إليها بصورة دائمة، وإحياء تاريخ نائم، بل ميّت يرجع إلى آلاف السنين.

فإن التغيرات التي حدثت قبل قرون، سواء أكانت حسنة أم كانت سيئة، واحتملها المواطنون الغيارى، والمخلصون المتسامحون قروناً طويلة، إذا أُريد إرجاعها إلى العهد السابق، أو بُذلت محاولة لتصحيحها، يعرض البلاد لمسائل ومشاكل جديدة، البلاد في غنىً عن مواجهتها، ولا يسعها ذلك، وبهذا الطريق تصرف قدرات البلاد وذكاء الطبقة المثقفة، وإمكانات الحكومة والإدارة في غير محلّها، وتحتاج البلاد إلى أن توجّه هذه القدرات إلى الأعمال الإعمارية التي تؤمّن سلامتها وبقاءها، فيجب أن يملأ هذا التصدّع، الذي يمكن أن يملأ الآن بجهد بسيط وبمواد قليلة، قبل أن يتّسع ويصبح تصدّعاً لا تملؤه الأميال.

ويجب أن لا تحول دون هذه المصلحة القومية الأساسية والعامة، مصلحة الانتخابات، أو سخط أي شخص أو جماعة أو إدارة إقليمية، بل يجب أن يكون ذلك فوق جميع المصالح، وفوق جميع الاعتبارات والمنافع المحدودة المؤقتة، وليس ذلك اقتضاء الأصول والمبادئ، وإنّما هو اقتضاء للسياسة العميقة واسعة المدى، والواقعية؛ وإني أكتفي بهذا القدر ثقة ببصيرتكم الفائقة، وفراستكم المتميّزة، وصلاحيّتكم التي وهبكم الله إيّاها لفهم الأمور، ومعرفة الدقائق بالتلميحات، فلا حاجة إلى التصريح والتفصيل.

الشيء الثالث الذي يحتاج إلى عناية عاجلة واهتمام بالغ، ويبعث على القلق، هو الفساد الإداري والخُلقي، الذي تفاقم إلى حدّ كان سبباً لانهيار دول كبيرة، فأصبحت حديث الماضي، وأثراً بعد عين، فيجب الانتباه إلى هذا الأمر بصورة عاجلة، وتحتاج هذه القضية إلى حركة ساحقة، وهي أهم من جميع

المصالح السياسية، ومن الحملة الانتخابية، ويجب أن تكون هذه الحركة غامرة لكل قرية وحيّ من الأحياء، وسنّ قوانين صارمة، واتّخاذ إجراءات عنيفة، وفرض عقوبات شديدة، تكون فيها عبرة للآخرين، واستخدام وسائل الإعلام، وتنشيط الجهاز الإداري، وحمله على اتّخاذ كل تدبير لتصحيح الأوضاع.

والأمر الثاني في هذا الصدد، هو أنّ أي مهادنة أو تهاون إزاء حركة الإحياء الهندوسية، وشوهندوبريشد، وشيوسينا، و(آر ايس ايس)، والعناصر الطائفية والإرهابية، ودعاة العنف، إن كانت تخدم بعض المصالح العاجلة، أو تفيد في تجنّب بعض المشاكل، ترادف إغفال الألغام الناسفة والمواد القابلة للانفجار تحت الأرض، فإنها ستنفجر يوماً، وتفجر البلاد كلّها، أو تغرقها، وقد كان غاندي يدرك ذلك إدراكاً تامّاً، ويعرف أن النزاعات الطائفية والإرهاب والعُنف والعدوان، إذا أطلق لها العنان، فإنها ستؤدي إلى تقسيم الشعب الهندي إلى عنصرين متحاربين، المسلمين والهندوس، ثم تتفاقم هذه الخلافات الدينية الفرعية، وتتعدّى إلى صراع بين الطبقات والأسر، والعناصر، وتتولّد منها العصبيّات اللغوية والثقافية والإقليمية، ولا ينتهي الأمر بذلك، بل تشتعل هذه النار (التي من طبيعتها أنها إن لم تجد ما تحرقه تأكل نفسها) وتحرق البلاد بكاملها.

إني لا أجد مثالاً لهذه الانتفاضة العدوانية، التي أشاهدها اليوم في تاريخ الهند الطويل، إن خطورة هذا الوضع لا يمكن أن تدرك بالتقارير الرسمية، والإجراءات الإدارية، وتقدم البلاد في الصناعة والمدنية، وإنما يدرك بإصلاح حياة عامة الناس، والحياة الاجتماعية، ومعالجة ما يتعرّض له الناس من متاعب ومضايقات خلال اتّصالهم بالدوائر الرسمية، كالمحاكم، والمكاتب الإدارية، وسكّة الحديد، والخطوط الجوّية، ومخافر البوليس، ومكاتب التلفون، والمستشفيات الرسمية، ومرافق الحياة الأخرى، التي لها صلة

بالحكومـة، فيعرفـون أنه لا يمكن أن تقدم خطـوة واحدة بدون الرشـوة، ولا يتحقق أي عمل بدون الفلـوس، أما بالفلوس فيصبح المسـتحيل أمـراً يسـيراً. . يمكن بها إطلاق سـراح المجـرمين، ويمكن بها إدانـة الأبريـاء، وإحالتهم إلى السجون، ويمكن بها الحصول على أي حكم أو قرار ضد الحق الشرعي، وإحداث الاضطرابات الطائفية، وحتى بيع أسرار الوطن، لاتوجد أدوية نقيّة، ولا أغذية صافية، وأصبحت الرعاية الطبية غالية، والأدوية غير مُيسَّرة، والتسهيلات غير كافية للمرضى، وقد بلغت قسوة القلب غايتها، وأصبح الحجز في سكّة الحديد، والخطوط الجوية عسيراً، لا يتيسّر إلّا بالرشوة، وتخسر الحكومة كلّ يوم ملايين من الرُّوبيّات من أجل الحِرص الزائد على كسب المال.

وقد زالت خشية الله من القلوب، والعاطفة الإنسانية، والولاء للوطن، وإيثار مصلحته، والاحتراس من كل عمل يسيء إليه، وبهذا التدهور الخلقي تتّجه البلاد بسرعة فائقة إلى التردّي والانحطاط، رغم تقدّمها البادي في الصناعة والسياسة والعلاقات الخارجية، وانتشار التعليم، وارتفاع نسبة المتعلّمين، وقد عمَّ التذمُّر في الشعب، ويشيع القلق النفسي فيه، ويزداد التبرُّم من الحيـاة، ومن المُخـزي أنَّ الناس يتذكَّـرون عهد العبوديـة، عهد حكم الإنجليز، ويتمنَّون عودة ذلك العهد، الذي كان فيه النظام الإداري يقظاً ونشيطاً، وكانت القطارات والطائرات تسير في مواعيدها، وكانت المستشفيات تخدم الناس، وتخفّف من آلام المرضى، وتريح أنفسـهم، وكان الطلبـة ينجحون في الامتحان بجهد أنفسهم وكفاءتهم الذاتية، وكانت الوظائف العالية لا ينالها إلا الأكفاء لها، وقد أصبحت هذه الأمور مثل العنقاء في هذا العصر.

إنَّ هذه الأمور الثلاثة تحتاج إلى معالجة عاجلة، واهتمام بالغ، وعلى معالجتها وتصحيح مسارها يمكن أن يقوم نظام مستديم للحكم، وسامحني أن

أضيف إلى ذلك، أن هذه المساوئ ترجع إلى حدٍّ كبير إلى أسلوب الانتخابات، الذي يسعى فيه المرشَّحون إلى إرضاء الناخبين بأي حال من الأحوال، والاستجابة لرغباتهم ومطالبهم، مهما كانت نتائجها وملابساتها، ومنح النُّوَّاب في البرلمان وأعضاء المجالس التشريعية في الولاية تسهيلات وامتيازات، تؤهّلهم للتدخُّل في الشؤون العامة، والعرقلة في نظام العدل وتنفيذ القانون، وقد أصبحت عضوية البرلمان ككوبة سعد، يغير حظ الإنسان ونصيبه.

وفي الختام أريد أن أضيف كرجل مُتَّبع للتعاليم الدّينية، وكدارس للتاريخ البشري، والسياسة العالمية والقديمة والحديثة، وكمؤلّف باحث؛ إنّ التجربة أثبتت أنَّ الإخلاص هو جوهر السياسة الفائزة، وأنّ صاحب الإخلاص هو الذي ينتصر في آخر الأمر ويفوز، وهو السلاح الذي يسحر القلوب، ويقهر الأعداء ويحوّلهم أصدقاء، ويجعل الأصدقاء أخلاّء، ويحقق النصر النهائي؛ وإنّ هذا الإخلاص يتجلّى في حنان الأمّ، ومحبّة الأنبياء والصالحين ورأفتهم، ومحرّري البلدان، والذين يؤثرون غيرهم على أقاربهم في خدمة الوطن، ويفضّلون الوطن والشعب على أقاربهم وأُسرِهم.. ويمنحهم الرفعة والسمو الفكريّ، ولا يُنقِذُ هذا البلد المترامي الأطراف، المتعددة الأجناس والمذاهب، في هذا العهد المتأزّم، إلاّ هذا الإخلاص وحسن النيّة، وإنّي لا أستغرب ذلك فيكم، بل أنيط بكم آمالي وتطلُّعاتي، وذلك ما أرجوه منكم، وذلك هو الذي تمسُّ الحاجة إليه.

إنَّ الخلق الإنساني، والوطنيّة الصادقة تقوم على المجهود للرابطة العامة، الذي يوجّه فيه النداء إلى التسامح بين مختلف الطوائف، واحترام الإنسانية والتعايش السلمي؛ ويجب أن تعمّ هذه الحركة، وينتشر هذا المجهود بالإضافة إلى المدن الكبرى في المناطق الريفية والقرى، بل في كلّ بيت، وفي

كل منطقة آهلة بالسكان، وأن تجري هذه الحركة بكل حماس، وتُسخَّر لها جميع الطاقات والوسائل.

لقد بذر الحكّام الأجانب بذور الكراهية الطائفية، وبثُّوا السّموم، ونشروا سوء التفاهم، والشكوك والشبهات، بتخطيط دقيق، كما اعترف مؤرّخ إنجليزي بقوله: (إنَّ هذا الكتاب التاريخي يشتمل على مواد، لا تلتقي بعدها قلوب المسلمين والهنادك، ولا تتآلف أبداً)[1]، وقد أضاف إلى هذه المواد ووسّعها المؤرّخون الذين كانوا يعانون من ضيق الفكر، ولا يبالون بالعواطف، والذين وضعوا المناهج الدراسية، وألّفوا الكتب فيها، وواصلوا السير في هذا الاتجاه، وكانت النتيجة أنّ أذهان جيلنا الجديد، والطبقة المثقفة تحمل تصوّرات خاطئة معادية، بالنسبة لحكام الهند السابقين، بل بالنسبة لأكبر أقلية في البلاد، وهم المسلمون.

وقد سرى ذلك السم إلى الحياة والخلق كلّياً، فالحاجة الماسّة في مثل هذه الأوضاع لأنْ يُعاد النظر في المنهج التعليمي، ويجري إصلاحه عاجلاً، وأن تُنقّى الكتب الدراسية والموضوعات التاريخية من تلك المواد السّامة، وبدون ذلك لا يتمّ إعداد جيل جديد يحمل ذهناً صافياً تحتاج إليه هذه البلاد.

إن الصحافة الهندية، حتى وسائل الإعلام اختارت موقفاً خالياً من الشعور بالمسؤولية، أثناء التعليق على الأحداث أو تغطيتها أو توزيع الأخبار، فيتأثّر ذهن رجل عادي بل ينفعل بها، فتثور عاطفة الثأر والاحتقار والكراهية، بدلاً من أن تثور عواطف التآلف والثقة بين الناس؛ إنها تجعل من الحبة قبّة، وتقدّم صورة جانبية متحيّزة للحادث، وما لم يتمّ السيطرة على الصحافة ووسائل الإعلام، وما لم تؤدِّ هذه الوسائل وظيفتها تأدية صحيحة.. لا يمكن

---

(١) يشير إلى كتاب في تاريخ الهند بالإنجليزية، ظهر في ذلك الزمان.

إزالة التناحر أو التباعد بين العناصر المختلفة لشعب البلاد، ولا يمكن المكافحة لسوء الظن والشكوك والشبهات السائدة فيها.

إنّ الإنجليز الذين كانوا يحكمون هذه البلاد من وراء سبعة أبحر، وكانوا لا يستحقّون ذلك، لم يكن أمامهم طريق إلا بثّ الخوف والرعب في النفوس لإقرار حكمهم، وأنشؤوا وكالة لهم في صورة الشرطة، التي تساعدهم على إلقاء هذا الخوف والرعب وهيبة الحكومة، ليبقى الشعب في حالة حذر واحتراس، ويتمنّى أن يعيش بعافية وكرامة، إنّهم أعرضوا عن تربية العاملين في هذه القوّة تربية خلقية، بل إنّهم علموها على العكس واعتبروا خوف كلّ إنسان له كرامة وشرف من هذه القوّة علامة لنجاح الشرطة.

والآن قد انتقل حكم البلاد إلى أهلها، ويتولّى المواطنون نظام الحكم والإدارة، فعليهم أن يوجّهوا انتباههم الأول إلى تربية الشرطة تربية خلقية، وأن يُحدِثوا فيها عاطفة الخدمة والمعاونة، والعطف والترحُّم، وأن يحولوا الشرطة إلى قوة وطنية تعطف على الإنسان، وتخدم المواطنين بطريق يتأثر به تصوّر عامة الناس عنها، وتعود الثقة فيها، ويعتبرها كلّ فرد من أفراد الشعب مسؤولة عن سلامته، ويجد فيها روح التعاون والمساعدة عندما يحتاج إليها؛ فلا يطغى فرد على فرد، ولا يتعدّى أحد على أحد، ولا طائفة على طائفة، بل تصبح هذه القوّة سدّاً منيعاً أمام كلّ نوع من الاعتداء أو الطغيان، بغضّ النظر عن الطائفة التي ينتمي إليها المعتدي.

وكذلك يجب الاحتراس والتحفّظ في كل عمل يعتبره المسلمون تدخُّلاً في الدين، أو يرادف سحب ما منحه الدستور الهندي من حرّيات أو ترخيصات، سواء كان ذلك لسنّ قانون، أو تدخُّل في الأحوال الشخصية للمسلمين، وقد ثارت في عهد الرّاحل راجيف غاندي قضيّة نفقة المرأة المسلمة المطلّقة، وأصدرت المحكمة العليا حكماً عارضه المسلمون، وقاموا باحتجاج في عموم

الهند، لا يوجد له نظير في تاريخ الهند المستقلّة (بالنسبة للمسلمين)، واتّخذ راجيف غاندي موقفاً واقعياً، وتصرّف بجرأة خُلُقية، واتّخذ البرلمان بمجهوده الشخصيّ قانوناً حسب الشريعة الإسلامية، استجابة لمطالب المسلمين ورغباتهم، وألغى به حكم المحكمة العليا.

وإني أرجو بكلّ إخلاص وحسن نيّة وثقة، بأن لا تُقحم الحكومة في المستقبل أيضاً نفسها في أي خطوة تحت ضغط أي فريق متطرّف، يُحدث ردّ فعل في المسلمين الذين يحملون حساسية زائدة وغيرة شديدة، بالنسبة لدينهم وقانونهم الشرعيّ في الهند.

وأخيراً تفضّلوا بقبول أخلص التحيّات والتقدير والإكرام والدعوات الطيّبة، والتمنّيات القلبية المخلصة.

المخلص

أبو الحسن علي الحسني الندوي

* * *

سلامة الهند مضمونة بالعلمانية

انعقدت في ٦/ أكتوبر ١٩٩١م، ندوة برئاسة كاتب هذه السطور، تحت إشراف جمعية المثقّفين المسلمين لعموم الهند في مدينة لكهنؤ، اشترك فيها عدد من القادة السياسيين، كان منهم السيد «مادهوراؤ سندهيا» (الوزير المركزي للطيران الهندي)، وقد وصفتُ العلمانية في كلمتي التي ألقيتها بهذه المناسبة بشجرة تذبُّ الحيّات والحشرات السامّة، وتدفعها.

وحكيت بهذه المناسبة أنه كان هناك رجلٌ ثريّ صاحب ضيعة كبيرة، وكان يملك حديقة غنّاء تضم أنواعاً من أشجار الزهور والفواكه، فلمّا دنت وفاته، وأيقن أنه سيفارق هذه الدنيا، دعا ولده الوحيد، وأوصاه بأن يحتفظ بهذه الشجرة، وهو حرٌّ في أن يتصرَّف في حديقته كما يشاء، ولكن لا يمسّ هذه الشجرة، ولم يفصح عن سرّ هذه الوصيّة، ولم يبيّن أهمية الشجرة، وجاء أوان الخريف، حيث تجفّ الأشجار، وتذبل الأوراق، وتذبل الزهور. . أقبل ابنه على كثير من النباتات التي ذبلت واقتلعها، وكان منها هذا النبات الذي أمره والده بالاحتفاظ به، ولم يلبث إلا ودخلت حيّة تسعى من جحر قريب، ولدغته فمات، واكتشف الباحثون فيما بعد أن تأثير هذا النبات كان يدفع الحيّات.

وهذه الحكاية تنطبق على العلمانيّة، وهذه أهميتها في الهند، فلو اقتلع أحد هذه الشجرة التي تصون البلاد، وتحفظها من الويلات الكثيرة، واقتلعت معها شجرة «اللاعنف»، لابتلعت الهند حيّات التطرّف والإرهاب والعصبيات الدينية والطائفية، ولن يبقى شيء.

وقلت في أثناء كلامي: إنه سيكون من الخطر الجسيم أن يجبر التاريخ

الماضي على العودة، بدلاً من مواصلة سير أحداثه؛ فإن التاريخ بمثابة أسد نائم إذا أيقظه أحد، وهبَّ من سُباته، ما ترك أحداً يواصل سيره، ويتقدّم التاريخ آلاف السنين، ولا يجد أحد فرصة ليعالج قضيّة جديدة، وإنّما يستنزف الطاقات كلها في معالجة القضايا التاريخية القديمة، التي دخلت في مجاهل التاريخ، وستعيش البلاد في العهد الماضي، وينفلت عنها زمام المستقبل.

اشترك في هذه الندوة السيد غلام نبي آزاد، والسيد سلمان خورشيد (وزير الشؤون الخارجية)، والمستر «مادهوراؤ سندهيا» من وزارة الحكومة المركزية، وتحدّثوا فيها، مؤيّدين للكلمة الافتتاحية.

* * *

الحكمة الإلهية في ترتيب الخلفاء الراشدين وخلافتهم

وفي موقف الحَسَنَيْن إرشاد وهداية للأمة

تعقد دار المبلّغين بمدينة لكهنؤ جلسات باسم «شهداء الإسلام»، في قاعة العلاّمة الشيخ عبد الشكور الفاروقي، في كل عام، من غرّة محرم الحرام إلى الخامس عشر منه، وقد خُصّصتْ الجلسة الأخيرة لهذه السلسلة الخطابية لكاتب هذه السطور، وانتهزت هذه الفرصة، فقدّمت دعوة خاصّة، تقوم على أساس المطالعة غير المتحيّزة للتاريخ الإسلامي، وقلت: إن الترتيب الذي تولّى به الخلفاء الراشدون الحكم، ولم يكن صُدفة، أو نتيجة لرغبات شخصيّة أو حَدَثاً مفاجئاً، وإنّما كان مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾، فقد أدّى كل خليفة واجبه، ومثّل دوره الذي كان اقتضاء عصره، واقتضاء حكمة وقاية الإسلام وتعزيزه، وتوطيد غرسه، وترسيخ قدمه، ورفع شأنه، وكان كل خليفة من هؤلاء الخلفاء أليق من غيره لإنجاز ذلك العمل الخاص الذي أُنيط به، ولم يكن له بديل في ذلك.

ثمّ تناولتُ عهد الحسنَين ـ رضي الله عنهما ـ بالبحث، وقلت: كلاهما مثّل دوراً مطلوباً، كان في مصلحة الملّة الإسلامية ولائقاً بهما.

* * *

الندوة العلمية لرابطة الأدب الإسلامي في مدينة بوفال

عقدت رابطة الأدب الإسلامي الندوة العلمية السابعة، في ٥ـ٧ من ربيع الآخر عام ١٤١٢هـ، الموافق ١٣ـ١٥/ أكتوبر ١٩٩١م، في مدينة بوفال تحت إشراف دار العلوم تاج المساجد، وكان موضوع الندوة «أدب الإصلاح والدعوة»، اشترك فيها عدد كبير من أساتذة الجامعات والكُتّاب من بوفال، ولكهنؤ، وعليجراه، ودلهي، وسورت، وأورنج آباد، وكالي كت، وحيدرآباد، وإلٰه آباد، وبنارس، وبونه، ونجبور؛ واشترك من الخارج سعادة الشيخ محمد بن ناصر العبودي (الأمين العام المساعد لرابطة الأدب الإسلامي بمكّة المكرّمة)، كمندوب للرابطة، وقدّم المسؤولون عن دار العلوم تاج المساجد، وأساتذتها، وأعضاء أسرة الشيخ الحافظ محمد عمران خان الندوي (مدير دار العلوم ندوة العلماء سابقاً) تعاونهم، وأسهموا إسهاماً كبيراً في إنجاح الندوة، وتأمين الراحة.

قلت مستشهداً بقوله تعالى: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤]، إنّ الإخلاص، والعاطفة، والحنان، والوجد، والهيام، يلزم لتأثر الأدب، وإثارته، وخلوده الذي يميّزه عن غيره، وقلت: سواءً كان الشعر، أو الخطبة أو الرسالة، أو أي صنف أدبي آخر، فإنه يشتمل على «الكلمة»، ولكن ليست كل كلمة، وكان يمكن أن يأتي القرآن الكريم بتشبيهات كثيرة لوصف الكلمة الطيّبة، ولكن اختار القرآن لتشبيه الكلمة الطيّبة، كلمة الشجرة، وذلك للإشارة إلى ثمارها، وانتشار نفعها، فقد أنجبت الكلمة الطيبة كبار العلماء الربّانيين، وأصحاب الفكر النبيل، والقول السديد،

وتمّ القضاء بها على المساوىء، والتقاليد الجاهلية، والعادات السيئة، وقد جمعتنا اليوم الكلمة الطيبة هنا، وهي الرابطة القوية التي تجمعنا، بل هي أقوى الروابط، والصلات.

وأوضحت أولاً، أنّ هناك سوء فهم في بعض الأوساط الدينية، وأن الدعوة لا تحتاج إلى البراعة في البيان وإجادة الأسلوب فيه، وإن الذين يغفلون هذا الجانب باعتباره مهنة، يجب أن ينظروا إلى ما كان يتمتّع به الإمام الحسن البصري، والعارف الشيخ عبد القادر الجيلاني، والإمام الشيخ أحمد السرهندي (مجدّد الألف الثاني)، والشيخ العارف شرف الدين يحيى المنيري، من تأثير على النفوس بجودة البيان، وبلاغة القول.

قدَّم في هذه الندوة مندوبون من الجامعات والمراكز العلمية وأساتذة المدارس الإسلامية، مقالات علمية وأدبية، تدلُّ على عمق المطالعة، وسعة الدراسة.

وفي الختام قلت في كلمتي الاختتامية إنه لمِنَ الألغاز الغريبة أن الطبقة التي كان يجب أن تكون متّصفة بالواقعية، ورحابة الصدر، ورجاحة العقل، والتوازن، أكثر من غيرها، تتظاهر بضيق النظر والفكر، وحصرت نفسها في النصوص، وإن الذين كانوا أحقّ بأن تتزيّن قلوبهم بالجمال والكمال هم الذين حصروا الأدب، وقيّدوه بالمصطلحات، والأهداف الضيّقة، وقد قال الشاعر الإسلامي الدكتور محمد إقبال:

إنَّ النفـوس كلّهـا نـاقصـة بـدون دم القلـب

وإن النغـم مـادّة جـافّـة بـدون دم القلـب

توجهتُ بعد انتهاء الندوة العلمية في بوفال مع رفقتي، ومن بينهم سعادة الشيخ محمد ناصر العبودي (الأمين العام المساعد لرابطة العالم الإسلامي)، إلى أندور، وهي وطن رفيقي ومساعدي في أعمالي، الشيخ القاضي مَعين الله

الندوي، وتقع في أندور مدرسة دينية أنشأها الشيخ أبو البركات الفاروقي الندوي الذي كان طالباً بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنوّرة، وكان الشيخ محمد ناصر العبُّودي وقتئذ الأمين العام فيها.

وكان الشيخ أبو البركات قد وجّه الدعوة إليه لزيارة مدرسته، ووضع لنا أيضاً برنامجاً لزيارة «ماندو» الواقعة على بعد حوالي مئتي كيلومتر، وهي إمارة إسلامية قديمة، تقع فوق الجبال الخضراء، ولا تزال حافلة بالآثار الإسلامية، رغم انقراض عهدها الزاهر، وقد كانت عاصمة للسلاطين الخيجيين، ومركزاً لكبار مشايخ الصوفيّة، ومنتدى العلماء والدعاة، وكانت هذه الرحلةُ ممتعة ومُثمرة ومُريحة ونافعة، سياحيّاً وعلمياً.

* * *

مؤتمر السيرة في الجامعة السلفية ببنارس

انعقد مؤتمر حول موضوع السيرة النبويّة تحت إشراف الجامعة السلفية (دار العلوم المركزية)، ببنارس في ٢٧ـ٢٨/ أكتوبر ١٩٩١م، ووجّهت الدعوة إليّ أيضاً لحضورها، وكنت أعتقد أن الجامعة لها صلات خاصة بالمملكة العربية السعودية، والدول العربية الأخرى، وعلمائها، فسيشترك في المؤتمر عدد وجيه من هؤلاء العلماء، فأعددت مقالاً باللغة العربية، وبحثت فيه الدور القيادي للعلاّمة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، ومجهوده العلمي والثوري المميّز، هو إثباته أن النبوّة هي المصدر الوحيد لعلم حقائق الدين، ومعرفة الذات الإلهية، ومعرفة صفاته؛ وأن جميع المصادر الأخرى تحتمل الظن والتخمين، وموضع الشك والريبة.

وقد بيَّن شيخ الإسلام ابن تيمية مسألة قيّمة لا يدرك قيمتها، ولا يقدرها حق قدرها إلا علماء الكلام، وخبراء علم النفس، وهي أن الفلسفة اليونانية تركّز رئيسياً على النفي، ويتوسَّع خيال علمائها، ويبعد غاية البعد في النفي، لكنّهم عندما يأتون إلى الإثبات، فلا يتجاوز ذهنهم إلى حدّ بعيد، بل يقتصر كلامهم على لفظ أو لفظين، ويلازمون الصَّمت.

وهكذا يفعلون بالنسبة لصفات الله وأفعاله، فيقولون: ليس خالق العالم كذا، وليس هذا خالق العالم، وليس ذا وذاك، ولكن من هو خالق العالم، وكيف هو، وما هي صفاته، فيقتصرون في ذلك على كلمة أو كلمتين، والواقع أن الحياة تدور حول الإيجابيات لا السلبيّات، وعلى عكس ذلك، تشتمل الصحف السماوية، وكلام الأنبياء على نفي إجمالي، وإثبات تفصيلي، فإذا

جاء موضع النفي، قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ولكن في الإثبات القرآن حافل بالأوصاف كما قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

ومن المؤسف أن عدد الضيوف مِنَ البلاد العربية كان قليلاً لأسباب مختلفة، منها ضيق الوقت، واشترك فقط سعادة الدكتور الشيخ عبد الله بن عبد المحسن التركي، والدكتور عبد الحليم عويس، وانتهزتُ هذه الفرصة، فتحدّثتُ في اجتماع ضخم حضره عدد كبير من المسلمين والهندوس، من بنارس وضواحيها، حول رسالة الإنسانية، وهي مسألة لها أهميّة وقيمة كبيرة في الظروف السائدة في الهند.

* * *

اجتماع هيئة قانون الأحوال الشخصية الإسلامية
لعموم الهند في دلهي

انعقد في ٢٣ـ٢٤/ نوفمبر ١٩٩١م، الاجتماع السنوي العاشر لهيئة قانون الأحوال الشخصية الإسلامية في دلهي، وقدّمت في هذا الاجتماع الكلمة الرياسية المفصّلة، التي نشرت فيما بعد في رسالة مستقلة[١]، انتقدت فيها الموقف المُبالَغ فيه، والذي يخلو من الحكمة والفراسة، في صدد تطبيق قانون موحّد للأحوال الشخصية لسائر الطبقات، وقمت بتحليل دوافع هذا الموقف، ونتائجه، واقتبست في ذلك مما كتبه خبير القانون البريطاني «بودرهمبر» (Boder Hamber) في فلسفة القانون، وهو يفيد في اتّخاذ موقف واقعي.

وهو أنّ أي نظام قانوني يهدف إلى إيجاد انسجام في الحياة إذا كانت طبقة كبيرة من الشعب تشعر بأن هذا القانون لا يُنصِت إليها، يتعذّر على المسؤولين عن الحكومة وقايته، أو تجنّب انعكاساته، والناس لا يستطيعون أن يحتملوا مثل هذا القانون مدة طويلة، إذا كانوا يعتبرونه غير لائق بهم، وغير محتمل لديهم، وإذا كانت حكومة من الحكومات تصرّ على بقاء هذا النظام القانوني، فإنها ستواجه مشاكل في تنفيذه، وكل نظام لا يقوم على أساس العدل والإنصاف ليس بمأمون، بل محاطٌ بالخطر.

* * *

---

(١) نُشرت هذه الرسالة من المجمع العلمي الإسلامي، باسم «النبوّة هي الوسيلة الوحيدة للمعرفة الصحيحة، والهداية الكاملة».

رحلـة كرنـاتــك

واجتماعان لرسالة الإنسانية

تقع في ولاية كرناتك مدينة بهتكل، وهي آهلة بالسكان، من أصل النوائط، وهم معروفون في المنطقة كلها بخصائصهم الثقافية والحضارية، ولا تزال هذه الجالية تحتفظ ببعض المزايا العربية، لكونها من أصل عربي، وتقع في هذه المنطقة مدرسة دينية باسم الجامعة الإسلامية، تحت إشراف ندوة العلماء، ومعظم أساتذتها من خرّيجي ندوة العلماء، ويشرف على هذه الجامعة ويديرها أحد أصدقائي ومعارفي، الشيخ محي الدين المنيري (وهو من أعضاء لجنة خدام الحج المتحمّسين السابقين في بومباي)، وقد سافرت إلى بهتكل مع إخواني وزملائي عدة مرّات وتحدّثت فيها، وقد نشرت مجموعة لهذه الأحاديث، ونالت القبول.

وتقرَّر السفر إليها مرة أخرى في نوفمبر ١٩٩١م، وتقرّر عقد جلستين لرسالة الإنسانية، كانت الأولى منهما في بهتكل، التي عقدت في ٢٩/ نوفمبر ١٩٩١م، وانعقدت الثانية في منجلور في أول ديسمبر، ونجحت الجلستان نجاحاً كبيراً، وخاصة جلسة بهتكل، فقد عقدت باهتمام زائد، وحضرها عدد كبير من الناس، وجوّ مساعد، ويقول بعض سكان المنطقة، إنه لم يجتمع غير المسلمين في أي اجتماع آخر في السابق بهذا العدد الكبير، وقد اشترك في هذا الاجتماع كبير كهنة الهندوس هيكري مهاراج (Hagri Maharaj) وآخرون، وكان منهم بعض الكهنة الذين لا يخرجون من معابدهم وزواياهم إلاّ في حالات استثنائية، ويقدر الناس أنّ أكثر من خمسين ألف شخص اشتركوا في هذا الاجتماع، واستمعوا إلى الكلمات التي ألقيت فيه باهتمام بالغ، مصغين إليها

ومنصتين لها، ونقلت الكلمات التي ألقيت بالأردية إلى لغة كنّر المحلية، فزاد تأثّر المستمعين.

واشـــترك في اجتمـاع منجلور كاهن بعثة كرشـنا وقسّـيس الكنيســة الكاثوليكية، الذي كان من أصل ألماني، واكتظّت القاعة بالحاضرين، وكان معظمهم من المُثقّفين والمتعلّمين والباحثين، والعاملين في مجالات مختلفة في الحياة، واكتظّت أروقة القاعة الملحقة بها، والممرات العامة.

* * *

ذكــريــات

عام ١٩٩٢

عام ١٩٩٢

نبدأ الآن باستعراض ذكريات عام ١٩٩٢م، وهو عام حاسم في تاريخ الهند الحديث، ويشبه عام ١٨٥٧م، بالنسبة للمسلمين، لأحداثه المؤلمة.. وقد وقعت في هذا العام أحداث، وكان لها أثر بالغ على جوّ الهند الحُرّة، التي هي مركز الثقافات المتعدّدة، والأديان المختلفة؛ وتمخّضت عن مشاكل معقّدة متنوّعة، وأحدثت شكوكاً وشبهات في العالم الخارجي بالنسبة لسلامة الهند، ولتظاهرها ببلد اللاعنف والتسامح، وبالنسبة لمجهودات قادة تحريرها الذين كانوا يتميّزون بسعة الأفق، وعلوّ الهِمّة، وبُعد النظر؛ وإذا قلّبنا صفحات التقويم فكأنّنا كنّا نسمع مع صوت قلب ورق التقويم نداءً غيبيّاً يقول:

الدّهر حُبلىٰ ليس يُدرى ما يلدُ.

مؤتمر التعليم الديني في مراد آباد:

انعقد مؤتمر للتعليم الديني تحت إشراف هيئة التعليم الديني في مراد آباد في ١٢/ يناير ١٩٩٢م، اشترك فيه علاوة على كاتب هذه السطور، بصفة كونه رئيساً للهيئة، السيد حامد (نائب رئيس جامعة عليجراه الإسلامية سابقاً)، وألقيت في هذا المؤتمر كلمتي الرياسية التي كانت قد طُبعت مسبقاً؛ وكان من المشتركين من أهل مراد آباد: الأستاذ معاذ الإسلام السنبهلي، كبير أساتذة المدرسة العربية بمراد آباد، والحاج إكرام الباري، أحد رجال الأعمال في مراد آباد، وكانا من المهتمين بتنظيم المؤتمر، ولم يشترك الدكتور اشتياق حسين القريشي (سكرتير الهيئة العام)، لأنه كان في السعودية خلال انعقاد المؤتمر.

استقبال إمام المسجد الأقصى السابق

في دار العلوم ندوة العلماء

فوجئت في ١٢/ شعبان ١٤١٢هـ، المصادف ١٧/ فبراير ١٩٩٢م، أنّ الإمام السابق للمسجد الأقصى المبارك، وأحد قادة حركة تحرير فلسطين المتحمّسين، الدكتور محمد صيام ـ الذي يعيش في المنفى حالياً ـ يشرِّف دار العلوم ندوة العلماء بزيارته، فاتخذت إجراءات عاجلة لاستقباله الحار، اللائق بمكانته في النفوس؛ ووصل فضيلته، واستقبله الأساتذة والطلبة وأعيان البلد استقبالاً حاراً، وصلّى المسلمون في إمامته صلاة المغرب في جامع دار العلوم الفسيح بكل سرور وافتخار واعتزاز، وحضر للصلاة عدد كبير من سُكّان المدينة، وألقى فضيلته بعد صلاة المغرب كلمته القيّمة، التي نُقلت إلى اللغة الأردية. وقلت في كلمتي التي ألقيتها ترحيباً به: إنّ قدومه الميمون إلى هذه الديار نقل إلينا نفحات البركة، وريّا البيت المقدَّس العطرة.

وتحدّث الدكتور محمد صيام، بلهجة فيها حماس، وثقة بوعد الله، وإثارة في النفوس.. وقد نُفيَ من فلسطين، وكان يشغل منصب رئيس جامعة غزّة، ويعيش الآن في السودان، ويقود حركة تحرير فلسطين.

وأقامت رابطة الأدب الإسلامي حفلة استقبال ـ تكريماً له ـ قبل صلاة المغرب في الساحة الفسيحة الخضراء لندوة العلماء.

وأعرب فضيلته في كلمته التي ألقاها رداً على كلمة الترحيب به، عن تقديره واستحسانه لسيّد قطب الشهيد، والشيخ أبي الأعلى المودودي، كما أبدى صلته وعلاقته بهذا الكاتب، وأعيدت في هذه الحفلة الكلمة المسجَّلة

التي كنت ألقيتها في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، نيابة عن أعضاء المجلس، بمناسبة حضور السيد ياسر عرفات، زعيم حركة فتح لتحرير فلسطين، وأبديت فيها مشاعري ومشاعر المسلمين إزاء قضيّة فلسطين، وخاصّة مسلمي الهند، الذين يتابعون دائماً القضايا الإسلامية حيث كانت، وأينما كانت، ويستعدّون لأي تضحية في ذلك السبيل، واتّباع المنهج الإسلامي لحلّها.

أقدّم فيما يلي نصّ الكلمة:

هاتي صلاح الدين ثانيةً فينا:

لي الشرف العظيم أن أتكلّم باسم هذا المجلس الموقّر في مثل هذا الموقف الدقيق الحسّاس باسم المسلمين جميعاً في مشارق الأرض ومغاربها، وباسم مئات الملايين في شبه القارة الهندية، وهذا إن دلّ على شيء، فإنّما يدلُّ على عالمية القضية الفلسطينية، وإنسانيتها وإسلاميتها، إنّني في هذه الساعة المتأخّرة من الليل لا أريد أن أطيل عليكم، وأن أشقَّ عليكم، إنّما أقتصر على دعاء في هذه الساعة المباركة الميمونة، وفي رحاب البيت العتيق، وبمحضر من مناضل جليل، مناضل في سبيل القدس، في سبيل المسجد الأقصى، القبلة الأولى، وثالث الحرمين، أقتصر على دعاء واحد، وأرجو الله أن يتقبل هذا الدعاء في هذه الساعة المباركة في ليلة الجمعة المباركة، وهو أن يقيض الله لفلسطين، بل للمسلمين جميعاً، بل للإسلام، صلاح الدين الأيوبي ثاني، وإن كانت حكمة الله تبارك وتعالى اقتضت أن تختار من بين الأكراد كردياً، يتوارى نسبه بعد ثلاث أو أربع وسائط في ظلمات الجاهلية، لأنه قد أسلم آباؤه قريباً، وأنه لم يكن عريقاً في الإسلام، فكيف لا تقتضي حكمة الله تبارك وتعالى ورحمته أن يختار عربياً صميماً ومسلماً سليماً، مجاهداً في سبيل الله، ينحدر من أصول عربية إسلامية، عريقة في القِدَم، كيف لا تقتضي حكمة الله أن يختار

من بين العرب ومن بين المسلمين صلاح الدين الأيوبي ثاني.

وإنني أخاطب الأمة العربية بلسان خير الدين الزركلي، الشاعر العربي، أنَّ الحلَّ الوحيد لقضيـة فلسـطين، أن يبـرُزَ صلاح الدين على مسـرح القضية الفلسطينية، وعلى مسرح الجهاد الإسلامي، فيقول:

هاتي صلاح الدين ثانية فينا وجدّدي حطّين أو شبه حطّينا

هاتي صلاح الدين ثانية فينا، وجدّدي أيتها الأمة العربية المسلمة حطّين ـ أو شبه حطّينا ـ، ماذا كان سرّ نجاح صلاح الدين الأيوبي، إنما السرّ أنه كان مسلماً، مؤمناً محمّدياً، لا يعرف غير لغة القرآن، ولا يعرف غير لغة الإيمان، ولا يعرف غير لغة الحنان.

والمسلمون ما زالوا ولا يزالون ـ اكتبوا عني بقلم عريض اكتبوا عنّي وسجّلوه ـ إن المسلمين إلى هذا الوقت، وإن عبثت بهم يد الزمان، ويد التربية الغربية، ويد المادية الرعناء، لا يفهمون غير لغة القرآن، صدّقوني أيها الأخوان، أن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، مهما تعدّدت لغاتهم، ومهما فاق ذكاؤهم، ومهما فاقت ألمعيتهم وعبقريتهم، إلى الآن لا يفهمون إلا لغة محمد بن عبد الله ﷺ، الذي آمنوا به كنبيٍّ خالد، وكرافعٍ لراية الجهاد الأول المقدّس، إنهم لا يفهمون غير لغة القرآن، مهما أُقحِمتْ عليهم اللغات، ومهما فُرضت عليهم الثقافات، ومهما تنوّعت فيهم ألوان الحضارات، إنّهم لا يفهمون إلى أن تقوم القيامة، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لا يفهمون ـ والله لا يفهمون ـ إلا لغة القرآن، خاطبوا المسلمين بلغة القرآن، لا بلغة السياسة، خاطبوا المسلمين بالمصطلحات القرآنية، خاطبوا المسلمين وأثيروا فيهم الحنان والإيمان بكلمة الجهاد، بكلمة الشهادة في سبيل الله، بكلمة الحنين إلى الشهادة، إنّهم لا يزالون يُحسنون فهم هذا القرآن.

ما كان السّرُّ لسيطرة صلاح الدين الأيوبي على القلوب والنفوس

والأرواح؟! إنّما كان السّر كامناً في أنه فهم هذا السّر، فهم هذه النكتة، فهم هذه الحقيقة، أنّ المسلمين لا يندفعون إلاّ بدافع الجهاد؛ ففتح العالم الإسلامي كلّه من أقصاه إلى أقصاه، ويستغرب المؤرخون الأوروبيون، كيف اتّحد العالم الإسلامي، كيف استطاع صلاح الدين الأيوبي أن يوحّد العالم الإسلامي الممزّق المُتشتّت، المنقسم على نفسه، كيف استطاع أن يجمع هذا العالم المترامي، الذي تعدَّدت عناصره وتعدّدت ثقافاته، وتعدّدت مذاهبه الفقهية، كيف استطاع أن يوحّد هذا العالم الإسلامي، في هذه الفترة الحالكة العصيبة تحت راية محمد ﷺ، ولم يرفع راية القومية العربية.

اسمحوا لي أن أقول بكل صراحة، وأنا هندي الأصل، أنا هندي الثقافة، أنا رجل ولدت ونشأت في الهند، ولكني أومن بمحمد ﷺ، وأومن بالقرآن، وهنالك قلوب تُعَدّ بالملايين تهفو إليكم وتصبو إليكم، وتهون عليها نفوسهم، وسجِّلوا عنّي أن مذبحة كبيرة وقعت في الهند، لأيّ شيء؟ لأجل المجتمع الإسلامي الكبير، الذي حضرَ عنايةً بقضيّة فلسطين واهتماماً بها، ذلك في أحمدآباد، وبحثنا هذه القضية على هذه الطاولة هنا في المجلس التأسيسي، وحضر فيه الأستاذ أبو الأعلى المودودي، وحضرت أنا كعضو في المجلس التأسيسي.

إنما وقعت هذه المجزرة، ووقع هذا الاضطراب، لأنّ المسلمين في أحمد آباد تجمّعوا ـ على بُعد الدار وحيلولة البحار وعدم معرفتهم للغة العرب ـ تجمّعوا هذا التجمع الكبير الخالد التاريخي، ليدافعوا عن قضية فلسطين، فإن وراءكم أيّها الأخوان قلوباً مخلصة، لا يعرف مدى إخلاصها إلا الله تبارك وتعالى، قلوباً مؤمنة، قلوباً مخلصة، قلوباً صادقة، لا تعرف لغة السياسة، ولا تعرف اللباقة، إنما تعرف الإيمان، إنما تعرف الحنان، إنما تعرف لغة القرآن، فأنتم تملكون أكبر ثروة، لا تملكها أمريكا، والله لا تملكها روسيا،

تلك ثروة الإيمان، تلك ثروة الإيمان الدافقة، تلك ثروة الإيمان التي استطاعت أن تقهر العالم كله، وأن تكوِّن حضارة، وتكوِّن دولة من أكبر الدول الإمبراطورية، وهي تستطيع ـ والحمد لله ـ في هذا الوقت.

أقول في رحاب البيت العتيق، إنَّ هذه الثروة موجودة، ولكنها تحتاج إلى إثارة، تحتاج إلى تحريك، تحريك صادق مؤمن، وفيكم الأمل، إنني أرجو الله أن يستخدمكم في سبيل هذه القضية، وأن يجعل منكم صلاح الدين الأيوبي الآخر، لا أقول الأخير، الآخر، وليس الأخير، والإسلام كمطر لا يدرى أوَّله خير أم آخره.

وإني أقول لكم أيها الأخ الكريم، أيها الأخ المجاهد! إنني لأتبرَّك بتراب نعالكم في ساحة الجهاد، وأُرجِّحه على كثير من العبير، وعلى كثير من العُطور، إنني أقول لكم: اذكروا قول الله تعالى: ﴿... وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ...﴾ [النساء: ١٠٤]، هذه ميزتكم، إنَّ اليهود لا يرجون، أنا أعرف اليهود، اليهود فقدوا كلَّ شيء، وقطعوا كل خيط كان يربطهم بالله تعالى، وبالصحف السماوية، أصبحوا شعباً مادياً بحتاً، لا يؤمن إلا بسيطرته على العالم، ليس أمامه غاية نبيلة ولا غير نبيلة، إنما هو شعب عنصري، لا يؤمن إلَّا بالعنصرية، والله تبارك وتعالى لا ينظر إلى العنصرية، إنَّ الله لا ينظر إلى صوركم، ولا إلى أجسادكم، ولا إلى وجوهكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم، فأنتم تملكون أكبر ثروة، ولا تزالون تملكونها، وترجون من الله ما لا يرجون؛ استمدُّوا هذه القوى، أثيروا هذا الدفين الكامن، هذا الكنز الخفي، الذي لا يزال في صدور زملائكم.

هذه كلمة أخ لكم في الله، أخ لكم في الدين، أخ لكم في الإسلام، لا يربطه بكم إلا الخيط الإيماني والرَّباني والنُّورانيّ، الذي انبثق من هذا البلد،

ولا يزال لامعاً، ولا يزال بازغاً، ولا يزال مُنيراً للقلوب والنفوس، ويبدد الظلمات، ظلمات الجاهلية، والظلمات الأمريكية، والظلمات السوفيتية، إننا نحن المسلمون ـ والحمد لله ـ أغنى من كل الأمم، وأقوى من كل الأمم، وتاريخنا طاهر، تاريخنا نزيه، لم تتلوَّث أيدينا ولا أجسادنا بدماء الأبرياء أبداً.

فكن على ثقة أيها الأخ الكريم، أيها المجاهد، أنَّ وراءك جيشاً عرمرماً من المسلمين، من القلوب المؤمنة، من الأرواح السعيدة، من الذين يستهينون بحياتهم، ويستهينون بكرامتهم في سبيل الله، جرِّبوهم، هل جرَّبتموهم؟ لا والله إلى الآن لم يتفق لكم أن تجرِّبوهم، لا تزال هذه الأرض بكراً، ولا تزال هذه التجربة جديدة، جرِّب أيها الأخ هذه الأمة التي ملأت العالم كلَّه، وهي وراءكم وأمامكم إن شاء الله، وتأخذون منهم ما هو أغلى وأعلى وأثمن وأعزَّ من كلّ سلاح تأخذونه من أي قوة كبيرة.

هذه كلمتي، وأنا قد أسهبت فيها واسترسلت أكثر مما قدَّرت، وما زوَّرتُ من الكلام وما ادَّخرت، ولكن هو الدافع الإيماني، والعِرق العربيّ الإسلامي الذي ينبض، الذي يثور، الذي يملك عليَّ مشاعري، الذي يدفعني إلى أن أقول هذه الكلمة مرتجلةً، وأتركها مدوِّية مجلجلة في دول العالم كله، وتقبَّلوا مني أصدق التحيَّات، وأطيب التمنّيات.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

* * *

ولاية أترابراديش في ظل حكم حزب بهارتي جنتا

انتصر حزب بهارتي جنتا ـ الذي يُعرَف باختصار (ب،ج،پ)ـ في الانتخابات العامة، وتولى الحكم في ولاية أترابراديش في ٢٤/ يونيو ١٩٩١م، ويجدر بالذكر أن ولاية أترابراديش تتميَّز عن الولايات الأخرى في الهند، بعدَّة اعتبارات، منها موقعها وتاريخها، وإنجابها لشخصيات كانت تملك صلاحيات فائقة، وذكاءً حادّاً، وقدرات هائلة للقيادة، ولتصدُّر رجالها في حركة تحرير البلاد، وكونهم في الطليعة، وقد أعطت هذه الولاية البلاد عدداً من رؤساء الوزراء من عهد نهرو، رئيس الوزراء الأول للبلاد، إلى جندر شيكهر في ١٩٩١ م.

ولاتزال هذه الولاية تلعب دوراً رائداً في تكوين الذهن، وتوجيه الثقافة الوطنية للبلاد، وتؤثّر في اتّجاه التطوّرات والمعتقدات الدينية، والتصوُّرات السياسية، التي تنشأ في البلاد، ولذلك لا ينظر إلى تولّي أي حزب سياسي، أو مدرسة فكرية وسياسية للحكم والإدارة، وسيطرتها على وسائل تكوين الذهن والتربية، وسنّ القانون بنظر طارئ أو بسطحية، ولا يقاس انتقال الحكم فيها من يد إلى يد أخرى بانتقال الحكم في أي منطقة أخرى[١].

إنَّ تغيّر نظام الحكم في هذه الولاية من شأنه أن يؤثِّر في تغيّر مجريات الأمور في المناطق الأخرى، وتقع انعكاساته على سير البلاد ومستقبلها، وعلى

---

(١) حقق حزب (ب،ج،پ) الانتصار في عدة ولايات هندية بجانب أترابراديش، فقد تولَّى الحكم في ثلاث ولايات أخرى، وهي مدهيابرديش، وراجستهان، وهماچل برديش، فسيطر على أربع ولايات هندية.

ذهن الجيل الجديد، ويمكن بها أن يُتَكَهَّن بالنسبة لاتِّجاه البلاد ومصيرها، وخاصة إذا كانت الطبقة الحاكمة تحمل تصوُّرات خاصة، ومرئيات متميِّزة، عن مستقبل البلاد، وتعليمها، ولغتها، وثقافتها، وتاريخها، وصبغ هذه العناصر بالصبغة الدينية الخاصة، وتكون لها برامج وأهداف معلنة عن المعابد، ورجال الأديان الأخرى، وتتزعَّم مشاريع طامحة لتحقيق أهدافها، كما يتَّضح من بيانات زعماء حزب (ب،ج،پ)، ومنشوره الانتخابي ومشاريعه للمستقبل.

وبهذا الاعتبار لا يتصوَّر فوز هذا الحزب في أي ولاية هندية في الانتخابات، ووصوله إلى الحكم كفوز أي حزب آخر، من غير المؤتمر الوطني، ولا يعتبر وصوله إلى الحكم حادثاً طارئاً، أو مرحلة انتقالية، أو عملاً نظامياً روتينياً في البلاد، التي يتغيَّر فيها الحُكَّام على أساس نتائج الانتخابات، بل يمكن أن يوصف هذا الحادث بعاصفة جديدة، أو بثورة ذهنية وسياسية، ليس في أترابراديش فحسب؛ بل في عموم الهند، وقد آثرت أن أتخلَّص من استعراض الأحداث الفرعية، والاجتماعات، والخطب، والبيانات، والرحلات ووفيات الأعلام، ما قبل يونيو ١٩٩١م لكي أركِّز على عرض هذا التطوُّر الحاسم، بل هذا الزلزال العنيف، أو الزوبعة الهائلة التي اجتاحت البلاد بكاملها، فضلاً عن ولاية أترابراديش.

كان يحكم ولاية أترابراديش قبل حكم (ب،ج،پ)، المستر ملايم سنكه يادو، الذي كان رئيس حزبه، وكبير وزراء أترابراديش في آن واحد، وقد لا يتَّفق الجميع بإجراءات المستر ملايم سنكه يادو وقراراته، أو لا يتَّفق بعضهم بها كلِّياً، وقد يكون هناك مجال للبحث والنقاش، أو الاختلاف مع بعض خطواته وتصوّراته، باعتبار المصلحة السياسية أو الاستراتيجية والمنهج، ولكنه بدون أي شك اتَّخذ بعض الإجراءات، والخطوات الجريئة التي تستحق أن ينوّه

ويشاد بها، كان منها موقفه الجريء المبدئي، بالنسبة للاحتفاظ بمبنى المسجد البابري، ووقايته، وتأمين سلامته من أيدي المتطرّفين، الذين انهالوا عليه من كل مكان، وما اتَّخذه من تدابير رادعة، لإحباط هذه الغارة المُدبَّرة، بما فيها استخدام السلاح، وقوة الشرطة والجيش، وكذلك إجراؤه لمنع المغيرين القادمين من خارج أترابراديش وخاصة من بِهار، وتعاونه في ذلك مع كبير وزراء بهار المستر لالوپرشاد بادو.

وقد كان صريحاً في موقفه وتصريحاته التي أدلى بها في الاجتماعات العامة، وإعلاناته بعزمه على الاحتفاظ بالمسجد، وتنديده للحركات المعادية للأقلّيات، بلهجة واضحة صريحة؛ ولا شك أنَّه اتَّخذ بعض الإجراءات، أو أدلى ببعض التصريحات التي أبرزت عاطفية زائدة، وكانت ضد المصلحة السياسية إلى حد ما، ولا يُستبعد ذلك من أي قائد أو كبير الوزراء، ولا يمكن أن تكون جميع أفعاله وأعماله، وتصرُّفاته وتصريحاته مطابقة للمصلحة السياسية، واقتضاء الوقت كُليّاً، ولا يؤمن بذلك أبداً.

ولكن الأمر الذي لا شكَّ فيه هو أنَّ ولاية أترابراديش لم تجد منذ مدة زعيماً شغل منصب كبير الوزراء، وكان واسع الأفق، وغير متعصِّب، ومدافعاً عن الأقليّات ومراعياً لحقوقها، وساعياً من أجل تأمينها، كما كان المستر ملايم سنكه يادو[1] . . .

ولكن مما يؤسَف له، لم يبقَ بين المستر ملايم سنكه يادو كبير وزراء أترابراديش، والمستر وي بي سنكه، رئيس وزراء الهند، في ذلك العهد، التعاون والتضامن والانسجام الفكري، والثقة المتبادلة التي كان يجب أن تكون بينهما، (مهما تكن لها أسباب حزبية وسياسية وإدارية)، وقد كنت استرعيت اهتمام

---

(١) يُستثنى من ذلك ـإلى بعض الحدـ: المستر هيم وتي نندن بهوجنا، كبير وزراء الولاية الأسبق.

المستر وي بي سنكه، خلال الاجتماع به في صدد قضيَّة المسجد البابري، والأحوال الشخصية الإسلامية في عام ١٩٩٠م، في دلهي الجديدة، وكان قد عبَّر عن نيَّـته أنَّه سيحاول ذلك.

ولكنه من المؤسف أنَّ هذا التعاون الذي كان يلزم بين قادة البلاد الأربعة وساسة البلاد المتزاملين، وهم المستر وي بي سنكه والمستر چندر شيكهر، والمستـر لالو پرشـاد يادو، والمسـتر ملايم سنكه يادو، لم يبقَ طويلاً في تلك الفترة الحاسمة، التي كانت تهب فيها عاصفة العصبية الدينية والعُنف، ومخالفة مبادئ الدستور الأساسية ـ وهي الديمقراطية والعلمانية واللاعنف ـ ولم يستطع هـؤلاء الزعمـاء الذين كانت أزمَّـةُ الأمور بأيديهم، أن يحتفظوا بروح العمل الجماعي، والتعاون المتبادَل الذي كان يلزم لمواجهة هذا الطوفان الجارف بجرأة وتخطيط، وأن يعملوا مرتفعين عن مصالح أحزابهم السياسية، ويغفلوا النزاعات الفرعية، لخدمة مصلحة البلاد العامّة.

كان هذا الطوفان الطائفي يكفي ليجتاح ويكتسح كل ما تحقَّق في البلاد من تقدُّم، وما بَذَل فيها قادةُ تحرير البلاد الذين كانوا في غاية من الواقعية وسعة الأفـق، والإخلاص للوطن، من جهـود بنَّـاءة منذ عـام ١٩٤٧م، إلى عـام ١٩٩٠م، ويطمس معالم رقيّ البلاد ويشوِّه تاريخها المجيد.

وترجع المسؤولية الكبرى في هذا الصدد إلى المؤتمر الوطني الهندي ـ الذي أُسِّس على الديمقراطيـة والعلمانيـة واللاعنف ـ وقـادة حركـة تحرير البلاد، وتقوم بينه وبين الشعب رابطة قوية، واتّصال به، أكثر من غيره؛ فقد اقتصر نشاط هذا الحزب ـ من سوء الحظ ـ على المجال الإداري، بدلاً من أن يمارس دور حركة قومية.

ويعرف الجميع أن الجهاز الإداري إنما يكون موضع تهمة توجّه إليه الشكاوى، فلا يستطيع أيُّ نظام مسؤول عن الإدارة، أن يقوم بدور التربية

والتثقيف للناس. . وعلى أساس هذه العوامل، وصل حزب (ب،ج،پ) إلى الحكم بفوزه في الانتخابات العامة، في يونيو ١٩٩١م.

ولم يلبث (ب،ج،پ) إلاّ وأعلن برنامجه ومُخطَّطه لتحويل الهند بكاملها، وليس أترابراديش وحدها، إلى دولة هندوسية، مراراً وتكراراً، وصرَّح بأنَّ الحكم في هذه البلاد سيكون في أيدي الأغلبية (الهندوس)، ليس دستورياً فحسب، بل دينيّاً وثقافياً ولغوياً، وأكثر من ذلك ميتولوجياً (methologie)، وستعاد لتحقيق ذلك الهدف كتابة التاريخ الهندي الذي يثبت أن المسلمين هم غزاة وناهبون دخلوا الهند من الخارج، هدموا المعابد، وشيَّدوا المساجد، وطبَّقوا الشريعة الإسلامية.

وتتّخذ إجراءات لتغيير نظام التعليم، تكون وسيلة التعليم فيه اللغة الهندية، وخطّ ديوناجرى، وكان ذلك المخطَّط الذي أعلنه الحزب الحاكم الجديد، بمثابة الإبادة الثقافية (eultural Genoside)، ويمكن للتأكُّد من هذه المخططات والنوايا المذكورة أعلاه، مراجعة الإعلانات والتصريحات، التي نشَرَتْها الصحف الإنجليزية والهندية والمقالات المنشورة فيها بعد يونيو ١٩٩٢م، وأُذيعت كذلك في الإذاعة.

وأكَّد هؤلاء الزعماء في هذه البيانات ـ بلهجة واضحة لا غموض فيها ـ على أنَّ المسلمين يجب أن يندمجوا في التيَّار القومي، وأنَّ نظام التفرقة الطائفية سيبقى، وأنَّ مراكز الثقافة القديمة واللغة والعقيدة الدينية في هذه المنطقة ستعود إلى قداستها القديمة، ومكانتها اللائقة بها، التي كانت تتمتَّع بها في العهد القديم.

ولضيق المكان وتنوُّع المواضيع، نكتفي هنا لمعرفة هذه الاتّجاهات الجديدة، والنوايا الخطيرة، ببعض المقتبسات التي تلقي الضوء على منهج تفكير حزب (ب،ج،پ) ومنهج عمله الذي لم يتردَّد الحزب في التعبير عنه

والتصريح به، ولم يراعِ فيه أي مصلحة.

إنَّ نظرية النهضة الهندوكية، والدول الهندوسية، وفلسفة الإبادة الثقافية ـ إذا لم يكن إبادة الجنس ـ للأمم التي دخلت الهند من الخارج، والأديان غير الديانة الهندوكية، والثقافات غير الثقافات الهندية، مأخوذة من تعاليم وكتب جول والكر (Gol Walkar)، وتؤمن بها وشوهندو بريشد، ب،ج،پ، وبجرنك دل.

يعتقد جول والكر أنَّ الهند كانت دائماً دولة هندوكية، ويجب أن تدوم كذلك، ويحمل في هذا الصدد تصوُّر عدوّ أجنبي، وكراهية، وضرورة مقاومته كتصوُّر أساسي، وهذا العدو الأجنبي هو العدو المسلم، إنَّه يقول:

«إنَّ الهند بدون شك وريبة بلد الهندوس وحدهم، وإنَّ الذين لا ينتمون إلى العنصر الهندوسي، والدين الهندوسي، والثقافة الهندوسية، واللغة الهندوسية، ينعزلون عن الحياة القومية الحقيقية، وإنَّ الذين لا يُقدِّرون هذه العناصر، ولا يحترمونها، هم إمَّا خَوَنَة، وإمَّا أعداء، أو هم سفهاء».

ويقول في موضع آخر في تعيين معنى القومية:

«يجب أن لا يغيب عن البال، أنَّ الذين لا يوفون بهذه الشروط الخمسة لا مكان لهم في الحياة القومية، إلا أن ينسجموا كليَّاً معنا، ويزيلوا انعزالهم ويختاروا الديانة الهندوسية، ويختاروا ثقافتها، ويختاروا اللغة القومية، ويندمجوا في العنصر القومي، وما لم يفعلوا ذلك يبقون أجانب.

في هذا الصدد يجدر بالذكر أيضاً بيانات المستر بال تهاكري، زعيم شيوسينا، الذي يملك نفوذاً واسعاً في البلاد على أذهان الأفراد والجماعات من المتطرّفين في الأغلبية، ليس في مهاراشتر وكجرات وحدها، بل في الهند كلّها، وتعود إليه مسؤولية كبيرة عن الاضطرابات التي اندلعت ضد المسلمين في مهاراشتر.

ما هي تصـورات بال تهاكـري؟، يتّضح ذلك من التصريحـات الآتيـة للمستر تهاكري، التي أدلى بها بعد اضطرابات عام ١٩٨٤م الدامية:

«إنّ الهندوس هم حكّام الهند بعد التقسيم، أما المسلمون فهم مواطنون من الدرجة الثانية».

«إذا أراد المسلمـون أن يعيشـوا بكـرامـة، فعليهـم أن يقبلـوا الـديـانـة الهندوكية، وإلاّ فإني إذا تولّيت الحكم فسأقوّمهم في ٤٨ ساعة»[١].

«يجب أن يكون هذا البلد دولة هندوسية، وإني أقوم بزرعها، وسنحصد محصولها نحن»[٢].

وصرّح مستر تهاكري، وهو يدعو المسلمين باسم لاندي (المختون) دائماً، أن عددهم يزداد كالسرطان، لا علاج له إلا العملية الجراحية[٣].

اعترض المستر تهاكري على إطلاق اسم نرجس على شارع، اعتراضاً شديداً، فأشعل النيران في ١٧/ مايو ١٩٨٤م.

سارت مسيرات في ١٧/ مايو ١٩٨٤، ورفعت فيها هتافات مثيرة، وكانت لافتة تقول: «اتركوا القرآن أو اتركوا الهند» (بيويسي ديموكرس).

في خلفية نظريات المستر تهاكري، عقد مؤتمر لشيوسينا لولاية مهاراشتر، اتخذ فيه قرار تشكيل منظمة هندوكية باسم «هندوسنكه»، تشتمل على شيوسينا، هندوسبها، مارسوراشرم، هندوايكتاسميلن. ومنذ ذلك اليوم تكـثّـفت نشاطات هذه الحركة، ويجدر بالذكر هنا حقيقة تاريخية، وتستحق أن تسجّل:

---

(١) جريدة ناسك، وجنتلمين بومباي، مايو سنة ١٩٨٤م.
(٢) إنديا تُوْدِيْ (Andia Today) ١٥/ يونيو ١٩٨٤م.
(٣) Sunday Observer (صندي أوبزرفر) ٢٠/ مايو ١٩٨٤م.

إنّ الاضطرابات التي اندلعت في عام ١٩٧٠م، أدّت إلى فرض حظر على نشاطات شيوسينا، لكن حكومة وسنت باتل رفعت هذا الحظر، وسمحت للحركة باستئناف نشاطاتها، وأخرج المستر تهاكري موكب النصر العظيم، ومنذ ذلك الوقت تزداد الحركة نشاطاً، وعنفاً، وتلاحظ مظاهره اليوم أيضاً[١].

منح حزب (ب، ج، پ) في قضية هدم المسجد البابري، وتشييد معبد راما، وتحويل الأرض إلى مسقط رأس راما محله، في أيودهيا ـ الأرجحية للحصول على الشعبية الأغلبية الهندية، ولتحقيق أهدافه المنشودة، وأصّل هذا الحزب حركة شعبية واسعة عمّت البلاد كلّها، وبثّ دعاية مكثّفة لإثارة العنجهية الدينية، والنخوة القومية الهندوكية والعصبية الدينية الحادّة، بل الكراهية العنيفة لغير الهندوس. . بتخطيط دقيق، وحماس بالغ، ليس في أترابراديش وحدها، بل في الولايات الهندية الأخرى أيضاً، وكانت النتيجة المؤلمة أن وقع حادث الغارة البربرية على المسجد البابري، التي انهدم فيها المسجد، وتحوّل إلى أنقاض، وهو حادث يمثّل أزمة عاطفية، وصورة دينيّة متطرّفة، ليس في تاريخ الهند فحسب، بل في تاريخ العالم، يتعذّر وجود نظيره خلال القرون السابقة في سلوكيات الأمم والدول، وسيأتي تفصيل هذا الحادث المؤلم في مكانه، باعتبار ترتيب الأحداث الزمني.

وقبل استعراض هذا الحادث المؤلم ألخّص بعض الوقائع والرحلات، واللقاءات والبرامج التي تستحق ذكرها، باعتبار زمن وقوعها قبل هذا الحادث المذكور.

* * *

---

(١) يفيد كتاب (آر ايس ايس ـ تعليماته وأهدافه) للأستاذ صلاح الدين العثماني، لمعرفة هذه الحركة، وخاصة الباب السادس منه.

رحلة إنجلترا واللقاءات والمؤتمرات فيها

وصلتُ إلى لندن كعادتي في كل عام، في الأسبوع الأول من شهر سبتمبر ١٩٩٢م، للاشتراك في الدورة السنوية الإدارية لمركز الدراسات الإسلامية لجامعة أُكسفورد، الذي لي شرفُ رئاسته، مع مرافقي الأستاذ محمد الرابع الندوي، أحد أعضاء المركز ـ التي انعقدت في ١٠/ سبتمبر في رئاستي، واشتركت فيها عدّة شخصيّات إسلامية بارزة من العالم الإسلامي والعربي، كأعضاء للمركز، وورد ذكره في الصفحات السابقة.

واتّخذت في هذا الاجتماع بعد دراسة المسائل والقضايا المعروضة فيه، عدة قرارات هامة، كان منها القرار الذي كان بمثابة بشارة تبعث على الاعتزاز، وتزيد الإيمان في القلوب، أن المركز سيتولى تنفيذ مشروع لإنشاء تذكار يليق بمقام إمام المحدّثين، ومؤلّف كتاب، وبتعبير «أصحّ الكتب بعد كتاب الله» الجامع الصحيح للبخاري بموجب اتفاق تمّ التوصّل إليه مع حكومة أزبكستان، وسيعقد احتفال لافتتاح هذا المشروع في موعد يُقرّر مؤخّراً باعتبار الجوّ الملائم والظروف، ويشترك في هذا الحفل الافتتاحي وفد للمركز، يتكوّن من رئيس المركز والأعضاء الآخرين، ويسعد بإحياء وإنشاء مدرسة وجامع بالقرب من قبر للإمام البخاري رحمه الله، ويقوم بإعداد خطّة وتصميم هندسي لهذا المشروع، أحد أبرز المقاولين والمصمّمين، كما أُخبر الأعضاء أنّ مركز أُكسفورد للدراسات الإسلامية يعمل على مشروعين هامّين من بين مشاريع أخرى، أحدهما إعداد أطلس إسلامي تاريخي، وآخرهما خطَّة إعداد تاريخ إسلامي جامع موسَّع.

بعد انتهاء دورة مركز أُكسفورد توجّهت إلى بارك فيلدليستر سائر على دعوة من المؤسسة الإسلامية، وقد كنت زرت هذه المؤسسة في العام الماضي أيضاً، وكانت قد وُجّهت إليّ الدعوة قبل ذلك لحضور الاحتفالات بمناسبة انتقال المؤسسة إلى مبنى جديد، من الدكتور خورشيد أحمد، والدكتور مناظر أحسن، ولكنني لم أستطع القيام بالسفر في تلك المناسبة؛ وانتهز بعض المسؤولين عنها فرصة وجودي في أُكسفورد، فوجهوا إليّ الدعوة شخصياً لإلقاء محاضرة في المؤسسة، وعقد اجتماع لهذا الغرض، حضرته نبذة من خيرة الناس القادمين من الأماكن المجاورة، علاوة على مدينة ليشتر.

كانت القاعة مكتظّة، وكان من بين الحاضرين عدد كبير من الأساتذة وطلبة الجامعات والباحثين، والشباب العرب، بالإضافة إلى الهنود والباكستانيين القاطنين في بريطانيا، وشرح الله صدري بوجود هذه النخبة الطيبة، والوجوه النيّرة، وبما شاهدت من اهتمام الدّعاة إلى هذا الاجتماع، والمنظّمين له، وإخلاصهم وحنينهم الغامر، وصلتهم بهذا المتحدّث المتواضع، وبما شعرت به من أهمية الموقع، والجوّ، وخاصة حضور الشباب العرب، فانتقل ذهني إلى آية كريمة في القرآن الكريم، وجعلتها موضوع خطابي، فتحدّثت أولاً بالعربية، ثم خاطبتُ بالأردية، ثم قدّمت خلاصة الكلمة بالإنجليزية، نقدّم هنا نصّ الكلمة:

دور الأمة الإسلامية في إنقاذ البشرية وإسعادها:

حضرات الإخوان والضيوف الكرام، والمستمعين العظام! إنني أحمد الله تعالى على أنه أتاح لي فرصة أخرى[1] لهذا اللقاء الكريم الحبيب، والاجتماع بهذه المجموعة الطيّبة الهادفة السليمة، المتألّمة بما يعانيه العالم بصفة عامة،

---

(١) كانت المحاضرة الأولى في هذا المركز الإسلامي الواقع في (Mark Heild deieter) في ٣/ سبتمبر ١٩٩١م، نشرها المركز المذكور بالإنجليزية.

ولما تعانيه هذه القطعة التي كتبت لها القيادة العالمية، والتوجيه ـ لحكمة يعلمها الله ـ بصفة خاصّة، إنني سعيد بأنّ الله سبحانه وتعالى أتاح لي هذه الفرصة للحديث في هذا المكان الرئيسي الحسّاس الذي لا يزال له نفوذ كبير، والذي لا تزال له مكانة مرموقة واحترام زائد.

إخواني! وأنا كذلك أحمد الله تبارك وتعالى على أنني أتحدّث إليكم أولاً باللغة العربية التي هي لغة القرآن، والتي هي لغة الإيمان، ولغة الرسالة المحمّدية، والتي كانت ولا تزال إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لغة لا أقول إنها لغة الإسلام الرسمية، لأنني لا أؤمن بالرسميات، ولكن لغة الإسلام الدينيّة، ولغة الإسلام الإيمانية، ولغة الإسلام العلمية، ولغة الإسلام العقلية والثقافية.

إخواني: إنني تلميذ صغير من تلاميذ مدرسة القرآن العامرة الخالدة، وإن الله يشرّفني ويكرمني ويمنحني فرصة القراءة وبعض التدبُّر في القرآن، وأشعر بهذا النسب المشترك بيننا وبينكم، النسب العقلي والإيماني، وأقول اعتماداً على ذلك إنّكم كلّكم تقرؤون القرآن، ومن طبيعة الإنسان أنّه إذا رأى شيئاً غريباً تملكه الحيرة في بعض الأحيان، ولكن هذه الدهشة تزول سريعاً أو على فترة، وهذه الحيرة تزول كذلك، ولكني أقول لكم بكل صراحة ـ وقد ألقى الله في روعي أن يكون هذا موضوع حديثي اليوم ـ إنني كلّما مررت بهذه الآية الكريمة التي من آخر آيات سورة الأنفال وهي ﴿... إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣].

أنـا أتسـاءل كرجل داعٍ، وكرجل يعيـش في هذا العالم، إنـني أحـار، ويملكني العجب، بل تملكني الدهشة والحيرة، لمن يقال هذا؟ ومتى يقال هذا؟ وفي أي مكان يقال هذا؟.

يقال هذا لحفنة بشرية ـ إذا قيست إلى العالم المتمدّن المعمور، وإلى

النفوس البشرية العائشة الموجودة في ذلك الزمان ـ يعني في الهجرة الأولى ـ فقد كان المسلمون في تلك الفترة الزمنية، قطرةً أمام البحر الإنساني الزّاخر، كانوا حفنة بشرية فقط، كانت حول مدينة يثرب (المدينة المنورة العزيزة المحترمة، التي نفديها بنفوسنا وأرواحنا، لكن اسمها القديم يثرب)، بل كانت حول الجزيرة العربية إمبراطوريتان واسعتان ممتدّتان إلى أقصى العالم، قد توزَّعتا العالم ـ كما يقول المؤرخون الأوروبيون ـ العالم المتمدن المعمور، توزّعته الإمبراطوريتان: الإمبراطورية البيزنطية التي خلَفت الإمبراطورية الرومية، والتي كان مقرُّها قسطنطينية، والإمبراطورية الساسانية، الإمبراطورية الإيرانية؛ قد استحوذتا وسيطرتا على العالم المتمدّن المعمور، وكان هناك البحر المدني الحضاري يموج حول الجزيرة كلّها، كانت هنالك حضارات، وكانت هنالك فلسفات، وكانت هنالك مؤسَّسات علمية، وكانت هنالك فتوح مدنية، وعقلية وسياسية، واقتصادية وعمرانية.

ما نسبة هذه الحفنة البشرية التي كانت قد وُجدَت في المدنية المنوّرة بفضل دخول الإسلام أولاً في المدينة، وبعد ذلك انتقال عدد قليل من مكة إليها، وتعرفون كلّكم أنَّ الهجرة ليست بالأمر الهيِّن، فإنّ الهجرة هي مغادرة الوطن والأهل، والانتقال من بيئة إلى بيئة أخرى، إنها تتطلّب تضحية كبيرة، وهمّة عالية، إنها تتطلّب مخاطرة بالمال، ومخاطرة بالنفس، ومخاطرة بالأهل.

وقد كان إحصاء المسلمين في المدينة بأمر رسول الله ﷺ لم يتجاوز عددهم ألف وخمسمئة (١٥٠٠) رجل، وقد كان ذلك كما يرى بعض أصحاب السِّيَر عند الخروج إلى أُحُد، وقد كانت غزوة أُحد في شوّال سنة ثلاث من الهجرة، فكان ذلك بعد ما مضى على الهجرة ثلاثة أعوام، وجزم بعض علماء السِّيَر وشرَّاح الحديث بأن ذلك عند حفر الخندق، وقد كانت غزوة الخندق ـ أو

غزوة الأحزاب ـ في شوّال سنة خمس من الهجرة، فكان أمد الإحصاء أطول من الأول.

على كلّ حال، كانوا حفنة بشريّة، كانوا حفنة مغمورة في بحر هائج مائج من البشر ومن الحضارات والثقافات، ومن الألسن واللغات، ومن المدنيات والزخارف، ومن المظاهر الخلاّبة، يُقال لهذه الجفنة البشريّة: ﴿إلاّ تفعلوه﴾.. يعني: إن لم تتألّفوا، وتكونوا وحدة بشرية مميّزة تقوم على العقيدة الممتازة، والهدف الواضح، إلى إنقاذ البشرية وإسعادها، وعلى نمط خاص من الحياة والقِيَم والأقدار الخاصّة، وعلى التصميم بالقيام بالدعوة، وإن لم تتّخذوا الحياة الإيمانية الخلقية المثلى شِعاركم، ولم تكونوا نموذجاً فريداً للإنسانية، ولم تصمّموا على نشر الدعوة الإسلامية إلى أقاصي الأرض، وعلى إخراج البشرية من الظلمات إلى النور، ومن الدمار والهلاك والشقاء إلى السعادة الأبدية: ﴿... إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾.

لمن يُقال هذا؟ ومتى يُقال هذا؟ وفي أي بيئة، وفي أي محيط يُقال هذا؟ ولكن يقال: «العبرة بالقيمة ليست العبرة بالقامة»، فكان هؤلاء المسلمون لا يتجاوز عددهم ألفاً وبضع مئات، هؤلاء كانوا صغيرين في القامة[1] لكنّهم كانوا كبيرين في القيمة. فالعبرة بالقيمة لا بالقامة، وقد أثبت التاريخ الإنساني المدوّن المحفوظ الموثوق به، والمعتمد عليه، أنه دائماً غلبت وانتصرت القيمة على القامة، وانتصرت القيمة الصغيرة على القامة الكبيرة.

هذا تاريخ الديانات، هذا تاريخ الحركات الإصلاحية، هذا تاريخ المدنيّات، وهذا تاريخ المغامرات، المغامرات السياسية، المغامرات المدنية، المغامرات العلمية.. دائماً غلبت القيمة على القامة.

---

(١) المراد بالقامة الكمية والعدد الكبير، والقيمة: ثروة من الوسائل والطّاقات.

فالقضية قضية قيمة ليست قضية القامة، فكان المسلمون في المدينة المنوّرة صغاراً قليلين في القامة، ولكنّهم كانوا كبيرين شامخين في القيمة، والعبرة بالقيمة لا بالقامة.

فيا إخواني! أقول لكم: إنني كلّما مررت بتلك الآية الكريمة على كثرة مروري، ومرور كل مسلم بها عند التلاوة ـ والحمد لله كلكم تقرؤون القرآن، وقد تقرؤونه أكثر منّي ـ ولكنّي أقول لكم بكل صراحة، ولا أجاملكم ولا أتملّق، ولا أتظاهر بالعاطفة الإيمانية، والإجلال القرآني؛ أقول لكم بكلّ إخلاص وبكل صراحة: إنني كلّما مررت بتلك الآية الكريمة دهشت وقلت: يا سبحان الله! ﴿. . . إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾. . أيها المسلمون المعدودون بالمئات، إن لم تقوموا بالدعوة الإيمانية، وإن لم تقوموا بدعوة التوحيد، إن لم تكن الدعوة إلى العبودية الخالصة لله تبارك وتعالى، والخضوع لحُكمه، وأنه لا خالق غيره، ولا ربَّ غيره، ولا معبود غيره، ولا حاكم غيره، ولا قويّ غيره ـ إن لم تقوموا بهذه الدعوة، تعرفوا ماذا ستكون عاقبة الإنسانية؟.

تكون عاقبة الإنسانية وخيمة، ذميمة، شنيعة. . هنا في الدنيا التناحر، تناحر أفراد البشرية، يتناحرون ويتقاتلون، يقتل بعضهم بعضاً، ويسفكون الدماء، ويرتعون في الشهوات، ويعبدون النفس، ويعبدون الهوى، ويبتدعون طرائق الظلم والإهانة، والاستبداد والقهر؛ هذا سيكون مصير الإنسانية إن لم تقوموا أنتم بالواجب، وبما أسعدكم الله به وفَرَضه عليكم.

فأنا أقول لكم: إنّ هذه المراكز الدعوية والتربوية، مع إجلالي ومعرفتي لقيمتها ولغنائها ولفائدتها، إنها في الحقيقة قطرة في البحر، ما نسبتها إلى هذا البحر الزاخر المائج الهائج، الذي يزخر هنا في أوروبا ومن هنا تمتدُّ أمواج هذا البحر وعواصف هذا القطر إلى العالم الخارجي. . ما هي الاشتراكية؟ وما هي

الرأسمالية؟ وما هي الشهوانية؟ وما هي عبادة النفس؟ ما هو استعباد الإنسان للإنسان؟ . . كلها عواصف هوجاء، ورياح مشؤومة، رياح تقضي على البقية الباقية من الشعور الإنساني والمبادئ الفاضلة، والقِيَم الإنسانية، فهنا بحر مواج من المادية، وهذا البحر من ورائه ومعه ثروة زاخرة، ومقدار كبير من الرقي الثقافي، وتقدم كبير في مراكز الطبع، وآلات النشر، والإذاعة.

هذه أوروبا كلّها غنية في كل ما يستطيع أن يصلح الإنسان، ويستطيع أن يفيد الإنسان، ولكنها تحوَّلت واتَّجهت ـ لسوء قيادة الموجّهين والمربّين، وللمعركة الحاسمة والحرب الشعواء التي وقعت بين الكنيسة والدولة، وبين العلم والدين[1] ـ اتّجهت إلى الإفساد بدل الإصلاح، وإلى نشر عبادة النفس، والاندفاع وراء الشهوات اندفاعاً أهوج، اندفاعاً متحمّساً متهوّراً؛ فأصبحت أوروبا تملك زمام العالم، وترتفع راياتها على الشرق الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه. . وكانت هنالك إمبراطوريات سياسية، وإمبراطورية فكرية. . وكان استعماراً سياسياً، واستعماراً ثقافياً، واستعماراً فكرياً، واستعماراً خلقياً، واستعماراً توجيهياً.

إنّ الله سبحانه وتعالى قد مكّن لهذه الحفنة البشرية التي وجدت وتكوّنت في المدينة المنوّرة بفضل تعاليم الإسلام، من انتزاع السلطة ـ إذا صحّ التعبير ـ والسيطرة على النفوس، من جماعة إلى جماعة، ومن أمّة إلى أمّة، لا لمآرب النفس، ولا للشهوات، ولا للأغراض الخسيسة الفردية، أو السيّادة العنصرية أو القومية، ولكن لصالح الإنسانية.

مكّن الله لهذه الحفنة البشرية أن تظهر وتتغلّب، وتملك زمام القيادة. .

---

(١) يرجع للاطلاع إلى كتاب داربر (Drapper) المشهور «الصراع بين الدين والعلم» (Eonpliet Between Rebigiont SEeinei).

زمام القيادة العقائدية، زمام القيادة الخلقية، زمام القيادة الفكرية، وزمام القيادة السياسية كذلك؛ وقد مكّن الله لهذه الحفنة البشرية في القرن الأول في عصر النبي ﷺ، وفي عصر الخلفاء الراشدين حين فتحوا الإمبراطورية البيزنطية، ووصلوا إلى القسطنطينية في عصر محمد الفاتح.

وكذلك امتلكوا الإمبراطورية الفارسية الساسانية، إذا قال إنسان: إنّ هذه الإمبراطورية ستزول، نظر الناس إليه في عجب ودهشة واستغراب، وظنّوا بعقله سوءاً، ما كان يُتصوَّر ذلك، ولكن كلّ ذلك وقع لإرادة الله سبحانه وتعالى.

فالذي نحتاج إليه، والذي جرت به سُنّة الله تبارك وتعالى في تاريخ الديانات، وفي تاريخ الحركات الإصلاحية، حتى في النبوّات، هو أن تقوم قلّة مهما بلغت من ضآلة العَدد والعُدد، تقوم بإخلاص، وبعزم، وبوعي، وبعقل، وبحكمة وبتعاون، وبتجريد النية لخدمة الدين فقط، هنالك يُنزل الله نصره، وقد جاءت في القرآن الكريم تصريحات كثيرة بأنّ الله سبحانه وتعالى ينصر الضعيف على القويّ، وينصر القليل على الكثير، جاءت في هذا المعنى آيات، فيقول تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧].

ويقول:

﴿... كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

فالمهمُّ الآن أن تقوم منظّمة وتقوم جماعة مؤمنة، جماعة صاحبة دعوة، صاحبة مبدأ، صاحبة غاية، تقوم بإخلاص وبإيمان وبحماس وبتعاون وباتحاد، وبتجريد النيّة والقلوب من حب الدنيا ومن حب الرياسة، ومن التنافس في القيادات والعظمة، هنالك يُنْزِل الله سبحانه وتعالى نصره.

وأتجرّأ وأقول لكم ـ وأستغفر الله ربي وأعوذ به ـ وأقول: ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾. أيّها المسلمون في أوروبا! أيها المسلمون في أمريكا! أيها المسلمون في إنجلترا! وأتشجّع وأقول أيها المسلمون في البلاد العربية! التي يُحارَبُ في كثيرٍ من بقاعها الإسلامُ، ويُتخوَّف من الإسلام ما لا يُتخوَّف من الشيوعية، وما لا يُتخوَّف من الصهيونية، وما لا يُتخوَّف من المسيحية الصليبية، وما لا يُتخوَّف من فساد المجتمع، وانهيار المبادئ الخلقية والقيم المعنوية.

يُتخوَّف من الإسلام أكثر مما يُتخوَّف من أي شيء، أقول لكم أيها الإخوان: ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾، الآن هنالك حرب واحدة تُشَنُّ الآن وتقوم، وهي الحرب بين الإسلام وبين اللاإسلام، وبين عبادة الله وبين عبادة النفس، وبين التعاليم الإسلامية وبين تقديس القِيَم الغربية، وإحلالها محلَّ تعاليم الكتب السماوية، هذه هي الحرب الوحيدة القائمة الآن، وهي حرب مسعورة مسجورة.

هذه كلمتي التي حضرتني الآن، وأدعو الله سبحانه وتعالى أن يمنحنا من قوّة الإرادة وحسن النيّة والإخلاص والعزم، حتى نقوم بنشر الإسلام في هذه القارة التي أفسدت العالم كله زمناً طويلاً، والتي لا تزال لها سُلطة كبيرة في إفساد المسؤولين عن المعارف والتربية، والمسؤولين عن الثقافة، والمسؤولين عن الجامعات والكلّيات، فلا يزال لها أثر في ربوعنا الشرقية وفي مناطقنا، وفي بلادنا الشرقية بما فيها البلاد العربية.

ونختم هذه الكلمة بترجمة أبيات لشاعر الإسلام محمد إقبال بالفارسية، مقتطفة من كتابي «روائع إقبال».

يقول محمد إقبال مخاطباً المسلم:

أيها المسلم! أنت للناموس الأزلي حارس وأمين، ولسيد هذا الكون يسار ويمين[1]، لقد كانت نشأتُكَ من التراب، ولكن بك قوام العالم وبقاء الأمم، اشرب كأساً فائضة من اليقين، وانهض من حضيض الظنّ والتخمين، انتبه من السُّبات العميق الذي طال أمده، واشتدت وطأته، الغياث من الإفرنج الذين خلبوا العقول، وسحروا النفوس، والغياث من هؤلاء الذين خدعوا مرة بالرقة والدلال، ومرة بالقيود والأغلال، تارة مثّلوا دور «شيرين»، وطوراً لعبوا دور «أبرويز»[2]، لقد أصبح العالم كلّه خراباً يباباً بإغارتهم وغزوهم.

يا بانِي الحرم! وياخليفة إبراهيم! انهض لبناء العالم من جديد، انتبه من السبات العميق الذي طال أمده، واشتدت وطأته[3]. .

ونسأل الله أن يوفّقكم ويوفّقنا لنستحقّ نصر الله، رغم قلّة عَدَدِنا وعُدَدنا، ورغم كثرة الأعداء، هؤلاء المنافسين للإسلام، وأعداء الإنسانية.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

* * *

---

(١) يعني أنه آلة بيد القدرة الإلهية، وجارحة لها.

(٢) يشير إلى قضية غرامية فارسية قديمة تمثل فيها «شيرين» دور المرأة الفاتنة التي هام بها الأبطال، و«أبرويز» دور الملك القاهر الذي عشقها واستأثر بها.

(٣) زبور عجم: ١١٦-١١٨ باختصار، وهي زيادة في المحاضرة عند نقلها؛ وكتبتها مقتبسة من روائع إقبال.

خطابي في المركز الإسلامي في لندن

واجب الجالية الإسلامية في البلاد الغربية ودورها البلاغي والنموذجي

سادتي وإخواني! يحلو لي ويسعدني أن تكون كلمتي المتواضعة بالعربية، في هذا الملتقى الجامع لجنسيات ولغات مختلفة، وفيه العدد المرموق من إخواننا العرب.

سادتي! إنَّ دور المسلمين في بلد أجنبي لا يسود فيه الإسلام، بل تسود فيه القِيَم الغربية، والمُثُل الأجنبية، والغاية الرئيسية فيها للحياة هي الوصول إلى المنافع، والحصول على وسائل المُتَع الشخصية، أو الجماعية، أو السياسية، أو الأبيقورية(١).

إنّ دور المسلمين في مثل هذه البلاد ـ خصوصاً إذا كانوا في قلّة ـ دور دقيق يتطلّب إيماناً قويّاً، وشجاعة بارزة، وحكمة بالغة، وقوة ثقة بالرسالة التي شرّفهم الله وأكرمهم بها.

وكذلك ينبغي أن يكونوا على مستوى عالٍ، وسموّ فكريّ، غير مصابين بمركب النقص، لأنّهم إذا لم يكونوا على مستوى عالٍ، ينظرون إلى أنفسهم وأمّتهم نظرة احتقار، أو نظرة مقلّدين يقتطفون من ثمار هذه الحضارة، فلا يكون دورهم دوراً رائعاً خلّاباً، لافتاً للنظر، مسترعياً للانتباه.

أضرب لكم مثلاً يجسّم لكم هذه المعاني، ويمثّل دور المسلم الذي يثق

---

(١) اللذية، وكانت مدرسة خلقية في اليونان.

بكرامته ورسالته، ويستهين بالمظاهر الخلّابة، ويزدري الذين يعيشون حياة الجاهلية، ويعتمدون المظاهر، بل يترحَّم عليهم ويرثي لهم.. أقتبسه من التاريخ الإسلامي الأول، فيه موعظة وعبرة ودرس كبير.

إنّ القائد العام للجيوش الفارسية الإيرانية، الذي كان يسمى «رستم»، وكان ينوب عن الإمبراطور الفارسي، ويليه في فخفخته وعظمته، ومكانته الاجتماعية، طلب من قائد قوّاد المسلمين، سيدنا سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه، أن يرسل رجلاً يشرح له الغاية التي ساقت العرب البدو، الذين يعيشون في صحراء العرب، إلى هذه البلاد المتمدّنة الراقية في الحضارة، والقوّة العسكرية.

تصوّروا رجلاً جالساً على كرسيّ عالٍ من الحُكم والرياسة، كيف ينظر إلى العرب البدو الذين يعيشون في الخيام أو في بيوت من مدر أو وبر، والذين كان قُوتُهم إما التمر وإما لحم الإبل.. ينظر إلى هؤلاء نظرة احتقار وعدم مبالاة.

قال: أرسل إلينا رجلاً منكم يشرح لنا الغاية التي جئتم من أجلها.

وكان من معجزات الإسلام أنه جعل هؤلاء العرب البدو على مستوى موحَّد عال، من الفكر والعقيدة والإيمان بالله، والاعتزاز بالغاية التي جاء بها الإسلام.

فاختار سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ ربعيَّ بن عامر[1] لا يعرفه أحد من علماء التاريخ والسّير، ولم يكن له حديث قبل هذا، ولا أحكي لكم

---

(١) كان من أشراف العرب، حضر غزوة نهاوند، ولاّه الأحنف على طخارستان، وكانوا لا يؤمّرون إلا الصحابة، (الإصابة في تمييز الصحابة، للعلاّمة ابن حجر العسقلاني: ١/ ٥٠٣).

هذه القصّة كحكاية طريفة فيها مُتعة ولذَّة، أو مادّة للافتخار القومي أو الجنسي، إنما أحكي لكم هذه القصة لتقارنوا بين الإيمان القوي الذي دفع إلى هذا الحديث الجريء الحرّ، أمام القائد العام للجيوش الفارسية، وموقف المؤمن بسموّ رسالته، وحاجة البشرية إليها، وفقر هذه البلاد وحرمانها منها. . وبين موقفنا هنا في هذه البلاد، ونظرتنا إلى أنفسنا ورسالتنا وواجبنا، وإلى الحضارة الغربية التي تمثّلها هذه البلاد، وتقوم بالدور الرئيسي القيادي فيها.

جاء ربعي بن عامر في ثياب صفيقة، وسيف وترس وفرس قصيرة، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط الذي كان قد بُسِط حول رستم، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه، وبيضته على رأسه. . نبّهه بعض الناس وقال له: دع سلاحك، فقال: «إني لم آتكم، وإنما جئتكم حين دعوتموني، فإن تركتموني هكذا فذاك، وإلاّ رجعت»، فقال رستم: ائذنوا له، فأقبل يتوكّأ على رمحه فوق النمارق فخرق عامّتها.

ودخل على رستم فقال له رستم: ما الذي جاء بكم أيها العرب؟ فقال ـ بإيمان متغلغل في الأحشاء، وثقة بالغة تقوّي الأعصاب، وتملكها، لأن وراءها كتاب سماوي، ونبوة صادقة وعقيدة جازمة وهمة عالية، ونظرة هادفة ـ: «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»[1].

سادتي وإخواني! إنني مع إيماني بما قال ربعي بن عامر عن غاية الإسلام ورسالته الأساسية والبدائية والنهائية، من إخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، وما أشار إليه من جور الأديان، ومع إجلالي وتقديري له، فإن كل ذلك كان واقعاً ملموساً، وحقائق راهنة، لكني أستغرب قوله: «ومن ضيق الدنيا إلى سعتها»، فلو قال: «من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة»؛ لما ملكني

---

(١) البداية والنهاية، لابن كثير: ٧/٣٩ـ٤٠.

استغراب، فإنه من العقائد التي يؤمن بها كل مسلم، فضلاً عن هذا المتحدّث في العصر الإسلامي الأوّل. ولكنّي أستغرب كُلّ الاستغراب من قوله: «من ضيق الدنيا إلى سعتها»، كأنه يقول: لم تخرجنا من جزيرتنا الرحمة والرثاء لأنفسنا، والطمع في خيرات هذه البلاد، إنما أخرجتنا إلى هذه البلاد الرحمة بكم، أردنا أن نحرّركم من هذا السجن الضيّق الصغير المظلم الذي تعيشون فيه «كبلبل غرّيد في قفص يوضع له فيه قوت وماء»، لماذا؟ لأنّكم عبيد العادات، عبيد الحاجات، عبيد الشهوات، عبيد الموضات، لا تستطيعون أن تمشوا وحدكم، لا تستطيعون أن تتصرّفوا في أموركم كما تشاؤون، تحتاجون إلى خَدَم، تحتاجون إلى مساعدين، تحتاجون إلى حُرّاس، تحتاجون إلى الطبّاخين والطّهاة.

ويشهد التاريخ أن «يزدجرد» ملك إيران، لما خرج هارباً من عاصمته الإيرانية، عطش ودخل في بيت رجل، وطلب الماء، فقُدّم له الماء في كأس متواضعة عادية، فقال: لا أستطيع أن أشرب الماء في هذه الكأس.. لأنه اعتاد أن يشرب الماء في كأس من ذهب أو فضة، وكان الإيرانيون يعيرون من كان يلبس من صناديدهم منطقة أو تاجاً قيمتها دون مئة ألف درهم، أو لا يكون له قصر شامخ، وآبزن[1] وحمام وبساتين[2].

كأنه يريد أن يقول: أنتم عبيد، لأنّكم تحتاجون إليهم أكثر مما يحتاجون هم إليكم، فنريد أن نخرجكم من هذا السجن الضيق المظلم، وما ساقتنا إليكم حاجتنا، إنما ساقتنا إليكم حاجتكم، وما ضقنا ذرعاً بالصحراء التي نعيش فيها، فإنها مترامية الأطراف، واسعة الأرجاء، إنما ضقنا ذرعاً بالوضع الذي

---

(١) فسقية.

(٢) ملتقط من كتاب حجة الله البالغة، للإمام أحمد بن عبد الرحيم، المعروف بالشيخ ولي الله الدهلوي (م ١١٧٦هـ).

تعيشون فيه، الوضع المصطنع غير الفطري، وغير الطبيعي الذي تعيشونه.

أما نحن فلسنا عبيداً لشهواتنا، لسنا عبيداً لوجباتنا[1]، لسنا عبيداً لملابسنا التي نلبسها، لسنا عبيداً للخدم والحشم.. نحن أحرار نتجول في الصحراء، ونعيش كما نشاء، ونأكل ما تيسَّر؛ فالله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، أنتم تستهدفون جور الأديان، وهي التي تذلكم وتُهينكم وتسومكم سوء العذاب.

أيها الإخوان: لا أريد أن أطيل عليكم ـ فأنتم مشغولون، وأمامكم واجبات ومسؤوليات ـ وأقول لكم باختصار: إنَّ موقفكم في هذه البلاد يجب أن يكون موقف الأحرار، موقفاً مبدئياً دَعوياً مثالياً، يلفت النظر ويسترعي الانتباه، ويثير تساؤلات ومقارنات، رغبة في المعرفة والفحص والتحقيق؛ أما إذا نزلتم إلى المستوى الغربي، والحياة الغربية السائدة، مهما فقتم وتميّزتم في هذا التشابه والتقليد، فإن ذلك لا يثير تأمّلاً وتساؤلاً، ولا إجلالاً واحتراماً، فضلاً عن تأسٍّ وتقليد، وإجلال وتمجيد؛ أما إذا قدّمتم إليهم مثالاً غير مألوف، مثالاً يثير فيهم الدهشة.. نظروا إليكم وسألوكم: ما هو المنبع الذي استقيتم منه هذا النمط من الحياة، وهذه المثل والقيم السليمة الفاضلة؟ ويرغبون في أن تقدّموا إليهم كتباً تشرح الإسلام وتشرح لهم سيرة محمد ﷺ، وتشرح لهم الطريق التي انتهت بالمسلمين إلى هذا المستوى العالي والمكان السامي، ينظرون إليكم كأنهم ينظرون إلى قمة الجبل.

فقدّموا أيها الإخوان المسلمون العائشون مؤقتاً في هذه البلاد ـ أو تجنّستم بالجنسية الغربية ـ نموذجاً طريفاً من الحياة يثير فيهم الطمع في دراسة

---

(١) الوجبة: الأكلة الواحدة في اليوم، الجمع: وجبات.

الإسلام، ومعرفة المسلك الذي وهبكم هذا الطراز من الحياة، وهذا المنهج من التفكير، فهذا هو الدور الفريد الذي يستطيع المسلمون أن يمثّلوه في هذه البلاد، أما إذا كان الأسلوب واحداً، وكانت الحياة متشابهة مطّردة في العالم الغربي، أو في شبه القارة الهندية، أو في إفريقيا، أو في أي بلد من بلاد الدنيا، فإن ذلك لا يسترعي الانتباه أبداً، وإن عاشوا هناك مئة سنة أو أكثر.

وأشكركم على حسن الاستماع، وأعتذر إليكم إذا كان في كلمتي هذه صراحة زائدة، فما دفعني إلى ذلك ولا حملني عليه إلا حُبُّ الجالية الإسلامية في هذه البلاد، ومعرفة قيمتها وأهميتها، ودورها البلاغي والنموذجي في هذه البلاد، ومعرفة دورها القيادي والتوجيهي المادّي في الماضي، وما تستطيع أن تقوم به من دور قيادي بنّاء مفيد للإنسانية، إذا أراد الله بها خيراً، وشرَّفها بالهداية والتوفيق.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

* * *

قضية مسقط رأس راما

بعد عرض الرحلات، والمؤتمرات، واللقاءات، والاتصالات، والبرامج العلمية والتعليمية والاجتماعية الأخرى، داخل البلاد وخارجها، التي تعطي صورة وفكرة عن طبيعة أشغالي واهتماماتي المتعددة المتنوّعة، وأحياناً متضادَّة، وتنمّ عن ذوقي، وطبيعتي الشخصية، ومنهج علمي وتفكيري، ولا يمكن بدونها معرفة نفسي ومنهجي - أنتقل إلى مسألة لم تكن تسود البلاد، وتطرأ عليها كغبار أو كضباب، وشغلت الأذهان والأفكار، وغشيت على الجو العام في البلاد، بل كانت مثل غلاف كثيف، يغطّي الذهن والفكر لكل مواطن في البلاد، ألا وهي مسألة مسقط راما، التي كانت الشُّغل الشاغل، وحديث المجالس، وموضوع الصحف البارز، وقضية الإعلام الحاسمة؛ وكانت البلاد بسبب هذه القضية الحادّة تمرُّ بأزمة، لم تشاهد مثلها أزمةٌ في العهد القريب من تاريخ البلاد.

وقد كنت ورفاقي من أعضاء هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية البارزين، أوضحت في التصريحات الصحفية والبيانات التي أدليتُ بها لمراسلي وكالات الأنباء، ووسائل الإعلام الأخرى، والمقابلات التي أُجريت معي، أنَّ المسجد لا يمكن أن يهدم، ولا أن يُنقَل من مكانه، بل يبقى مسجداً، ويبقى في مكانه الذي تمَّ بناؤه فيه، ولم نعدل عن هذا الموقف منذ انعقاد الاجتماع لهيئة الأحوال الشخصية الإسلامية في دلهي في العام الماضي لعرض موقف المسلمين إزاء هذه القضية، ودراسة المسألة، ولم نغيّر أو نعدّل من تصريحنا لفظاً واحداً.

ولكن لم تُحلَّ هذه المسألة، وتصاعدت التكهّنات، وتضاربت الآراء، واتُّخذت مواقف متطرّفة، وتكثَّفت الشائعات والشبهات، والتُّهم والمطاعن في بعض الصحف الأردية، وبُذلت مجهودات لإثارة الشكوك في بعض التصرُّفات والمجهـودات، فـاقتضـت الأحـوال أن يعقـد اجتمـاع آخـر لهيئـة الأحـوال الشخصية، ويُصدَر إعلان صريح واضح في هذه المسألة، وكانت هناك أمور أخرى تقتضي عقد اجتماع للهيئة العاملة للأحوال الشخصية الإسلامية، لاستعراض الأعمال، وبحث بعض المسائل الإصلاحية، والاجتماعية، والقانونية.

فتقرَّر عقدُ هذا الاجتماع في لكهنؤ، على دعوتي في ١١/ أغسطس ١٩٩٢، واتُّخذت إجـراءات لعقد الاجتمـاع، واختيـر فندق جلمرج لنـزول الضيوف، وعُقد الاجتماع، واشترك فيه أربع وعشرون عضواً من أعضاء الهيئة العاملة، وسبعة ضيوف كمدعوّين بصفة خاصة، واتُّخذت عدّة قرارات، منها قرار واضح وقوي بالمسجد البابري، أُعيد فيه الموقف الذي عبّر عنه القرار، الذي اتّخـذ في ٢/ ديسـمبر ١٩٩٠م، الذي ينصُّ على المكانـة الشـرعية للمسجد، وقيل: إن الوضع يتطلّب الحذر والاحتراس، وكذلك الفراسة.. مَن الذي يتحمّل المسؤولية الرئيسية في البلاد (رئيس الوزراء)؟.

رسالة «نرسمها راؤ» إليّ، وردّي على الرسالة:

بينما كانت جلسات اللجنة العامة لهيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند تستمرُّ، أبلغني أحد مبعوثي رئيس الوزراء المستر «نرسمها راؤ»، رسالته الشخصية في دار الضيافة لندوة العلماء، وقال لي: إن رئيس الوزراء كتب هذه الرسالة بنفسه، وكان خط الرسالة واضحاً، والكتابة بلغة أردو الفصيحة، وكانت متقَنة، وأوردُ هنا نصّ الرسالة بعد التحية:

«كنت أودّ أن ألقاك، وأتحدّث معك شفهياً، ولكن الذين التقوا بك، أبلغوني أنكم لا تستطيعون السفر إلى دلهي عاجلاً، فأوجه إليكم هذه الرسالة.

إن الرأي الوطني العام يتكوَّن، لحل النزاع القائم حول المسجد البابري، ومسقط رأس راما، بالمفاوضات والتّفاهم المُتبادَل، كما تعلمون أنّ هذه المسألة قد صارت معقّدة وخطيرة، وحسّاسة للغاية، ولا يمكن أن يؤدي أي مجهود يبذل لحل هذه المسألة حلاًّ عادلاً، ومعقولاً، ومقبولاً لدى الجميع، بدون تعاون القادة الدينيين ومشاورتهم.. إلى أي نتيجة مقنعة.

تأتي في حياة الأمم والشعوب، مراحل فيها المسائل المعقّدة، المربوطة بالعواطف التي تحمل أهمية قومية، بحسن النية والفراسة، والإخلاص والذكاء والعاطفة المخلصة، بالارتفاع عن المصالح المؤقّتة، والمنافع السياسية، والعواطف الجيّاشة، والاستفزاز، وإني واثق أنّكم ستوافقوني على هذا الرأي، وقد بذلتم في السابق مجهوداً مخلصاً إيجابياً لحل هذه المشكلة، وعلى أساس ذلك، إني آمل أنّكم ستتعاونون وترشدون في هذا الصدد من جديد.

إنَّ النزاع حول المسجد البابري، ومسقط رأس راما، قد ألبست فيه التصورات التاريخية والقانونية والسياسية، وعُقّدت القضية بطريقة يتعذّر على فرد واحد حلُّها، ولذلك إني مستعدٌّ للنظر في أي اقتراح إيجابي معقول، أو نصيحة من أي جهة جاءت، أو من أي دائرة، أو جماعة، أو فرد، بذهن مفتوح، وقلبٍ صافٍ، وأستلزم لتعاون الجميع.

وليست بُغيتي ورغبتي الشخصيّة، أن يستقرَّ الأمن، وتسود الثقة، والتسامح الديني في الهند فحسب، وإنما هي مسؤولية جميع المواطنين الهنود الخُلقيّة، والقومية، لمصلحة سلامة البلاد الداخلية، وكرامتها في الخارج.

وسيبرز حلٌّ مقبول ولائق، وعمليّ، إذا بحث عنه المخلصون والمحبُّون بطريق الاعتدال، وحسن النيّة، والشعور الاجتماعي، والتشاور المُتبادل، رغم

جميع ما يواجه المسألة من مشاكل وصعوبات.

وكان من الأحرى أن نلتقي لبحث جميع جوانب القضية بالتفصيل، ولكن إذا لم يكن من المُستطاع القيام بالسفر إلى دلهي، فأرجو أن ترسلوا إليّ رسالة، أو تبلغوني وجهة نظركم عن طريق مبعوث لكم، أو تقدّموا مقترحاتكم، أو توضّحوا خطّة عمل تليق في نظركم، فإن الجميع يعتقدون أنه يجب اتّخاذ تدابير لائقة، بدون أي تأخير في هذا الأمر، ولذلك أزعجتكم هذا الازعاج.

شكراً.

المخلص:

ب، و، نرسمها راؤ

قلت لمن حمل هذه الرسالة إليّ: إنّ اللجنة العاملة لهيئة الأحوال الشخصية تعقد اجتماعها، وعليّ أن أتوجّه إلى الاجتماع فوراً، وسأقدّم ردّي على الرسالة بعد الاجتماع، وقَبِل مبعوث رئيس الوزراء هذا الرأي، وشرحت في ردّي على الظروف، وأن السفر في وقت عاجل متعذّر، لأني كنت على أهبة السفر إلى بريطانيا لحضور اجتماع مركز أُكسفورد للدّراسات الإسلامية، في أوائل سبتمبر بصفة كوني رئيساً له، ولكني للظروف الخاصة في البلاد واقتضاء المسألة، أرجّح المباحثات شفهياً، وأرى من المناسب أن نلتقي في لقاء خاص. فتقرر اللقاء في ٦ـ٧/ سبتمبر. وأورد نصّ الرسالة فيما يلي:

سيادة رئيس الوزراء المستر نرسمها راؤ المكرّم:

وصل كتابكم الكريم أمس ١١/ أغسطس ١٩٩٢م شخصيّاً، وتشرّفت بقراءته، وزادني سروراً أنّه كان بخطّكم الكريم، وباللغة الأردية، وشاهدتُ وعرفتُ هذه الميّزة والاختصاص، الذي كنتُ سمعتُ عنه قبل ذلك عن سيادتكم.

ويسعدني أن أفيدكم علماً ردّاً على رسالتكم، أني كنت بنفسي أتمنّى، وألمس الحاجة كذلك، لأن أتشرَّف بالاجتماع بكم، وكنت أودّ أن تتاح لي فرصة للتحدث معكم خالياً، أتناول فيه القضايا التي لها صلة وثيقة بمصلحة البلاد العامّة، لأنَّ هذه البلاد تمرُّ بوضع لا تصادفه البلدان في قرون إلا نادراً، وأحياناً لا يمكن تلافيه، أو يتعذّر في بعض الأحوال، وكنت قد بعثت إلى سيادتكم رسالة مفصّلة، فور تولّيكم هذا المنصب الجليل، منصب رياسة الوزراء، عن طريق أحد الثقات، وعلمت أنّكم قد اطّلعتم عليها، وأبديتم اهتمامكم بها، ووعدتم بالردّ عليها؛ وإنّ تولّيكم هذا المنصب الجليل، منصب قيادة البلاد، في هذه المرحلة الحرجة ليدلّ على أن الله تعالى قد أراد بكم تحقيق عمل جليل في خدمة البلاد.

ومن المفاجأة السارّة، أنّ رسالتكم عندما وصلت كانت اللجنة العاملة لهيئة الأحوال الشخصية الإسلامية على موعد الانعقاد، وكنت عدت إلى منزلي في فترة الغداء، فالتقيت بهذين المبعوثين، وكان قد تقرّر تعيين وفد يمثّل هيئة الأحوال الشخصية ليتشرّف بلقائكم، نزولاً لرغبتكم، وتُرك أمر اختيار أعضاء الوفد عليّ.

واليوم - أي ١٢/ أغسطس - قمت أنا والشيخ نظام الدين السكرتير العام للأحوال الشخصية، باختيار أعضاء الوفد، الذي يمثّل الهيئة، وقد استثنيت نفسي عمداً من هذا الوفد، الذي يُجري الحديث حول قضية المسجد البابري ومسقط رأس راما، وحدها؛ ولذلك سببان رئيسيان.

أحدهما: أنّ أعضاء الوفد ينتمون إلى ولايات مختلفة، ويمثّلون جمعيات وهيئات مختلفة، وقد لا يتّفقون على موعد واحد، فلا يُدرى متى يتم هذا اللقاء معكم؛ ومشكلتي أني سأغادر البلاد إلى لندن، لحضور دورة مركز أُكسفود للدراسات الإسلامية، الذي أرأسُه، في الأسبوع الأول من شهر سبتمبر، بإذن الله.

ثانيهما: أنّ الحديث الذي سيجريه الوفد سيكون قاصراً على النزاع الذي أشرتم إليه، وأنا أريد أن أتناول الوضع الراهن في البلاد، وطرق إصلاحه، وأريد أن يكون حديثي معكم سرّياً، ولا يتيسَّر ذلك في حضور أعضاء هذا الوفد الكبير، وفي هذا الوقت المحدود، ولا يناسب ذلك أيضاً، ولذلك أرجو أن يتخصص ذلك في ٦ أو ٧ / سبتمبر، ويُسمَح لي بأن ألتقي بكم وحدي، لعلّ هذا اللقاء يخدم مصلحة البلاد، وتتاح الفرصة للحديث والنظر في بعض الحقائق، والبحث عن حلّها في جوّ وُدّيّ، وبروح التزامُل والثقة، فإذا كان هذا الموعد مقبولاً لديكم، ويمكنكم تحديد هذا الموعد في ٦ أو ٧ من سبتمبر، فأرجو إخطاري بذلك، لأستعدّ للسفر، وأستفيد من هذه الفرصة القيّمة، سلّمكم الله وحفظكم ورعاكم لخدمة البلاد وأعانكم.

المخلص:

أبو الحسن الندوي

١٢/ أغسطس ١٩٩٢م

حينما علم المشاركون في اجتماع اللجنة العاملة لهيئة الأحوال الشخصية الإسلامية أنَّ المستر «نرسمها راؤ» رئيس وزراء الهند قد وجّه إليّ الدعوة للاجتماع به، وتبادل وجهات النظر حول قضيّة المسجد البابري، قرّرت اللجنة العاملة أن يشكّل رئيس الهيئة، بالتشاور مع السكرتير العام للهيئة وفداً لعموم الهند، يمثّل الهيئة، ويخبر المسؤولين عن الحكومة عن موقفها، ويبلغهم أن الهيئة ترضى بكل حلّ يُتوصَّل إليه بالمفاوضات، ولا يتعارض مع تعاليم الشريعة، وتشعر الهيئة بأن تسوية هذه القضية والاستعجال في البحث عن حلّ مناسب لها، يكون في صالح البلاد.

الاجتماع برئيس الوزراء:

كنت قرّرت أن لا أنضمَّ إلى الوفد الذي شكّل لمقابلة رئيس الوزراء، وأبديت هذه الفكرة للأمين العام للهيئة، وذلك لأن مواعيد رحلتي إلى بريطانيا كانت قد قُرِّرَت من قبل، وكانت تصادف تلك المواعيد، فيعزُّ عليّ السفر إلى دلهي مرّتين، لكن السيد نظام الدين الأمين العام لهيئة الأحوال الشخصية الإسلامية، اتَّصل بي هاتفياً أكثر من مرّة، وألحّ عليّ كثيراً، وقال: إنّ عدم مشاركتك في المفاوضات مع رئيس الوزراء يسيء بك الظن، ويجعل الناس يتنبّؤون، وقلت في نفسي أيضاً: إن هذا العصر عصر الريبة والشائعات، فربّما يُحمَل عدم مشاركتي على التكاسل، وعدم الاهتمام بهذه القضية المهمة، فاضطررت إلى أن أتوجّه إلى دلهي، لأنضمَّ إلى الوفد.

اجتمع أعضاء الوفد جميعاً في منزل السيد سليمان سيته، في ١٥/ أغسطس ١٩٩٢م، وتوجّهوا من هنا إلى قصر رئيس الوزراء، وشرعت في الحديث معه، وأشرت فيه إلى أوضاع البلاد الراهنة، وإلى الأخطار المهدّدة بسلامة البلاد، وقلت أيضاً بهذه المناسبة: إنه لأول مرة بعد استقلال هذه البلاد تمَّ انتخاب شخصية تنتمي إلى الولاية الجنوبية كرئيس للوزراء، وأضفت أنَّ الولايات الجنوبية للهند تتميّز بالتسامح، والتضامن، والابتعاد عن العصبية والتطرُّف عن الولايات الأخرى، فيرجى منكم أن تبذلوا جُهداً لإيجاد تسوية سلمية لهذه القضية بدقّة وعمق وسعة، وتتّخذوا خطوات جريئة مناسبة لها.

وصرّحت أيضاً أنّ نقل المسجد لا يجوز في الإسلام، وقلت له: إنّ الهند تحمل مكانة خاصة في أمور تتعلّق بالقضايا الدينية والفقهية منذ أمد بعيد، واعترفت بذلك الدول العربية الإسلامية، وتنظر إلى آراء علمائها وفقهائها المقدَّمة في المسائل الفقهية والقضايا الدينية بنظرة إجلال وتقدير، ويوثق بها في

الدول العربية الإسلامية كلّها، فاتّفق هؤلاء العلماء على أنه لا يمكن نقل المسجد من مكانه، ولا يجوز أن يقام بناء على موضعه . . ثم تحدَّث أعضاء الوفد الآخرون، وأعربوا عن موقفهم إزاء هذه القضية، وأيَّدوا ما قلت في هذا الصدد، واستمع رئيس الوزراء لكل ما قُدم إليه من آراء وأفكار بصمت وهدوء، ولم يقدّم أي مشروع من قِبَل نفسه، إلى أن عُدنا من عنده.

اللقاء الثاني معه:

كنت في منزل الدكتور عبد الله عباس الندوي، في «ذاكر نجر» بدلهي، حيث أُقيمُ خلال زياراتي لدلهي، إذ اتَّصل بي أحد المسؤولين عن مكتب رئيس الوزراء هاتفياً في اليوم التالي، وقال: إنّ رئيس الوزراء (المستر نرسمها راؤ) يريد أن يلاقيك لقاء خاصاً، فتأتي إلى مكتبه مرة ثانية، فاعتذرت إليه، ولجأت إلى عذر تدهور صحّتي، ودنو موعد سفري، للاحتراز عن هذا اللقاء، لأنني كنت أخشى أنّ لقائي معه منفرداً يفتح باباً للظنون والتكهّنات، ولا أدري على أي شيء يُحمل ذلك، فرأيت من المناسب أن أتجنّب هذا اللقاء تحذُّراً من هذه الظنون والشبهات.

لكنه اتصل بي مرة ثانية، ثم ثالثة، وأصرَّ على هذا اللقاء، حتى وعدت بأن ألتقي به، وفعلت ذلك، لأنني كنت أخشى يوماً، يحتاج فيه وفد هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية إلى الاجتماع به، فسيتطيع أن يقول: دعَوتُكم فرفضتم دعوتي، والآن أنتم تبدون رغبة في مقابلتي، فماذا يكون جوابنا؟ فلذلك وعدت بالحضور إليه، فجاء أحد ثقاته بسيارة، وكنت عزمت على أن لا أتفوَّه خلال المفاوضات معه بكلمة يستند إليها، ويتّخذها دليلاً للإعراض عن رأي المسلمين العام، وقرار اجتماع هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية: أنّه لا يجوز نقل المسجد من موضعه بأي حال؛ ويُدلي ببيان صحفيّ أنّ رئيس هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية أبدى رأياً آخر في لقاء خاص معي، وقدّم مشروعاً

آخر لحل هذه القضية وتصفيتها، فتحدّثت معه بغاية من الحيطة والحذر، ورجعت إلى لكهنؤ في الوقت نفسه، وأعتقد أنه لم يتمكّن من استغلال هذا اللقاء.

كان الوقت يمضي، وكانت حكومة «ب، ج،پ» تشنُّ حملة قوية لهدم المسجد البابري، وبناء معبد راما على أنقاضه، تحت إشراف زعمائها وقادتها من المستر لال كرشن ادواني، وأتل بهاري باجبئي، ومرلي منوهر جوشي، وكليان سنكه، الذي كان وقتئذ كبير الوزراء في ولاية أترابراديش في أرجاء البلاد كلّها، وكانت قد اتّخذت هذه القضية قضية عزّ وكرامة للشعب الهندوكي والديانة الهندوكية، والهند الحرَّة، وقامت بالدعاية عنها دعايةً عنيفة، أحرقت البلاد كلّها بنيران الحقد والكراهية، والاضطرابات الطائفية، والعصبية الدينية المتصاعدة، وقامت بتعبئة جيش من المتطرّفين، كان مستعداً لممارسة هذا العمل الإجرامي الشنيع كأداء واجب ديني.

فكانت النتيجة أن هُدمَ المسجد البابري بعواطف الكراهية هذه، وهذا الحماس الديني المتصاعد، وهذه القساوة التي لا يوجد لها نظير في تاريخ هذه البلاد، واتّضح من ذلك أنّ استعدادات للقيام بعملية هدم المسجد كانت تجري منذ أسبوع، وكانت العلاقة بين رجال الشرطة والمتطرّفين من الهندوس، علاقة ودّ وإخاء، كما كانت بين منظّمة «آر، ايس، ايس» وبين حزب «ب، ج، پ»، وكانت قد نشرت الصحف والمجلات ما حدث في ايودهيا من أعمال الظلم والبربرية والثأر والانتقام، والإحراق والتدمير، ونهب الأموال، وهتك الأعراض، ولا أريد أن أطيل بسرد هذه الأحداث والوقائع التي تُدمي القلب، وتدمع العين، وأكتفي بإيراد بيان كنت أدليت به بتلك المناسبة المؤلمة المفزعة، وهو كما يلي:

إنَّ حادث هدم المسجد البابري القديم، وإزالة وجوده رغم الوعود

المؤكَّدة للحفاظ عليه وحراسته، حادثٌ ألصق وصمة عار على جبين الهند كلها، وقضى على تقاليدها عبر القرون، وإرثها في السماحة، والحُرّيّة الدينية، وحبّ الأمن والسلام، وضيَّع جُهود المكافحين المضحّين لاستقلال البلاد وحرّيتها، وأوقف بلاد الهند أمام الرأي العالمي، وعلى مستوى الشعوب العالمية في موقف الذُّلّ والهوان.

وإن المسؤولية الأولى لهذا الحادث الفظيع تقع على عاتق الجماعات الطائفية الهندوسية المتطرّفة، التي أثارت الجنون الدّيني الأعمى، باسم بناء معبد راما، ثم تقع على حكومـة أترابراديـش، التي قامت على هذا الأساس وعلى هذه الوعود، والتي رغم وعودها المتكرّرة للحفاظ على المسجد البابري، لم تؤدِّ مسؤوليتها، وكانت متفرّجة محضة على كل ما وقع، بل إنّها شجّعت هذه الإجراءات العمياء، وإلا لم يكن من المتصوَّر أن يقع هذا الحادث بكل سهولة وحُرّية في ساعات معدودة.

وللأسف الشديد أضطر إلى أن أقول: إنّ الحكومة المركزية تقع عليها المسؤولية أيضاً، ويحق للمطّلعين الواقعيين أن يشتكوا منها، إذ أنها رغم إرسال القوّات المركزية لحراسة المسجد، كانت متفرّجة من بعيد، لم تتدخّل لوقف هذه الإجراءات، ولم تبذل أي جهد، رغم تصريحاتها وبياناتها المتكرّرة للحفاظ على المسجد.

إنّ ما لصق بوجه الهند بسبب هذه الحادث من عار، يجب لغسله وإزالته عمل الشيء الكثير، ومن مُتطلّبات الوفاء للبلاد، وحُبّ الوطن، والواقعية، أن تقوم الحكومة ـ مع بناء المسجد كما وعدت به الحكومة في موضعه نفسه من جديد، وبالسرعة الممكنة ـ بالحظر الكامل على الجماعات والمنظّمات الطائفية المتطرّفة المتعصّبة، ومحاسبتها ومعاقبتها، وإيقاف نشاطاتها الهدّامة، وأن تقام حركة قوية سريعة جريئة وواقعية، لبثّ روح الوحدة والتّضامن في

البلاد، والثقة المتبادلة، والحفاظ على أماكن العبادة والواجبات الدينية، والمراكز العلمية، واحترام الإنسانية، وأن تعقد احتفالات عامة أسبوعية وغيرها، وأن تراقب المنشوراتُ والصحافة، وتُستخدَم لتحقيق هذا الغرض، وتكون ترجماناً لذلك.

وإن الأضرار البالغة التي لحقت هذه البلاد داخلياً وخارجياً بجرّاء هذا الحادث، يجب أن تبذل جهود عظيمة جبّارة لإزالتها، كما يجب أن يتمّ كل ذلك فوق اعتبار المصالح السياسية، والمُتطلّبات الحزبية، وحُبّ السلطة والبقاء في الحكم، وميول العامّة أو العواطف الحادّة، بكل إخلاص وحب صادق للوطن، وتكريم للإنسان، وإلاّ فإنّ هذه البلاد ستتعرّض لشرّ مستطير، ولا يوجد عندي طريق لوقاية البلاد من هذا الخطر وإخراجها مما أُحدق بها إلا عن هذا الطريق.

* * *

إقدام الحكومة المركزية

على إقصاء الحكومات الأربع لحزب «ب، ج، پ»

أقدمت الحكومة المركزية على إقصاء حكومات الولايات الأربع، وهي ولاية أترابراديش، وراجستهان، وهماجل برديش، ومدهيا برديش، تحت ضغط وجّه إليها من كل جانب، وخوفاً من تشوّه سمعتها، وفوّضت الحكم في هذه الولايات إلى الحاكم، وقامت بتطويق المنظّمات الإرهابية المتطرّفة المعروفة، من منظمة «آر، ايس، ايس»، و«شوهندوبريشد»، و«بجرنك دل»، و«إسلامك سيوك سنكه»، وفرضت الحظر أيضاً على الجماعة الإسلامية بجانبها لحفظ التوازن.

فأدليتُ بهذه المناسبة بياناً، استنكرتُ فيه فرض الحكومة الحظر على الجماعة الإسلامية، وخاصة بمناسبة حظرها على المنظّمات الهندوسية المتطرّفة، التي قامت بالإرهاب والتشجيع على العدوان، المصحوب بهدم المسجد البابري، الذي جرّ إلى فساد جوّ الأمن في البلاد، والإساءة إلى عواطف المسلمين المكلومة، وانتشار القتل وسفك الدماء.

وقلت: إن الجماعة الإسلامية لا صلة لها بأعمال العُنف والتطرُّف، ولا بسياسة الإرهاب الطائفي، وإنَّ ضمّ الجماعات الإسلامية إلى المنظّمات العدوانية المتطرّفة، التي فُرض عليها الحظر، أمرٌ يستحقُّ الإدانة والاستنكار من الجميع، وهو يلقى من المسلمين في داخل البلاد وخارجها كل استنكار وشجب، وذلك لأن هذه الجماعة معروفة في الأوساط العلمية والدينية بأنّها جماعة إصلاحية، فكرية دعوية محضة.

الاضطرابات الدمويّـة في بومباي وسورت
والخسائر الهائلة في الأرواح والممتلكات

هبَّت على أعقاب هدم المسجد البابري في أيودهيا موجة عارمة للاضطرابات الدموية، التي اجتاحت بومباي وسورت، وأماكن كثيرة في غجرات ومهاراشتر، وكانت شدة وعنف هذه الاضطرابات في بعض مناطق غجرات ومهاراشتر، بحيث أنه كان يبدو كأنّ زلزالاً عنيفاً أو حريقاً مخيفاً نشب في هذه المناطق، يدمّر كل شيء، ولا يسع هذا الكتاب المحدود، الذي يقتصر على استعراض أهم أحداث الحياة، والانطباعات والمشاهد، أن يصوّر فظائع تلك المآسي الإنسانية، ويجب لذلك مراجعة الصحف والمجلّات الموثوق بها الصادرة في تلك الفترة (شهر يناير)، في اللغات الهندية والأردية والإنجليزية، وأكتفي هنا بنقل بعض المقتطفات والقصاصات التي احتفظت بها لمعرفتي، وتعطي هذه المقتطفات صورة مصغّرة لحالة الجنون الذي كان يسود الأذهان في ذلك العهد، وما أدّى إليه من فظائع.

«أصيب المسلمون في بومباي وأحمدآباد بخسائر تبلغ ٥٦ ملياراً»، «جثث الموتى لا تزال مبعثرة على الشوارع»، «خسائر تبلغ ملياراً في غجرات»، «موجة الاضطرابات تستمر في بومباي رغم قوات الأمن»، «إحراق ما لا يحصى من المحلّات التجارية والمباني العامة»، «خسائر تبلغ ملايين من الروبيات»، «الهيكل الاجتماعي المختلط لبومباي ينهار»، «أفظع مجزرة في المدينة، التي يرجع تاريخها إلى ثلاثمئة سنة»، «المرحلة الثانية للاضطرابات المعادية للمسلمين في بومباي»، «نظام الأمن والقانون أصبح مشلولاً»، «إن

التردّد في اتّخاذ قرار حاسم لوقف المجزرة المستمرّة، يعرّض البلاد بكاملها للخطر»، «نداء أصحاب القلم والعاملين لحقوق الإنسان البارزين إلى الحكومة»، «بومباي ظلّت تحترق وبال تهاكري يُلقي الزيت»، «مأساة العُنف الطائفي الوحشي، التي تقشعرّ منها الجلود»، «خمسون ألف شخص يصبحون لاجئين في ليلة واحدة»، «ألوف المشرّدين يقضون الليلة على رصيف محطة بومباي لسكة الحديد انتظاراً للقطار»، «العمّال يُهرَّبون بدون أن يتقاضوا أجورهم»، «قطارات لاجئي بومباي تصل إلى لكهنؤ»، «قصة واحدة من أفواه متعدّدة»، «خسرنا كلّ شي، احترق كل شيء»، «ستون شخصاً يلاقون حتفهم في إطلاق النار من قِبَل البوليس في سورت»[١].

وردت أنباء تفيد بإجراءات قاسية وبربرية ومُهينة من سورت، علاوة على بومباي، وأفادت الصحف أنّ أعمال النهب والسلب والحرق، والقتل بوحشية، وانتهاك حرمات النساء، انطلقت بحرية مطلقة، وبدون أي رادع.

وجاء في تقرير لمِلّي كونسل: «لقد تعرّض المسلمون لاعتداءات وحشيّة تتضاءل أمامها فظائع هولاكو وجنكيز»، وأضاف التقرير يقول: «علم من بعض الدوائر الموثوق بها، أنّ عدد المسلمين الذين أُصيبوا بجروح في إطلاق النار من قِبَل البوليس، يتجاوز ١٧٠٠ شخص، أما رجال الطبقات الأخرى، فيبلغ عددهم حوالي خمسمئة شخص».

وجاء في هذا التقرير أنّ السلوك غير الإنساني والمُخجِل للاعتداء على أعراض النساء، والاعتداء على الأطفال الصغار، سلوك يجب أن ينكّس رأس بلادنا حياءً وخجلاً، ويبدو في بعض المناطق أنها لم تتعرّض للاضطرابات، وإنّما جرت فيها حرب طاحنة أُستخدِمت فيها الجرّافات الثقيلة لتدمير المناطق

---

(١) الصحف البارزة التي صدرت في تلك الفترة، ومنها جريدة قومي آواز.

الآهلة بالسكان، وتشتيت الناس، ولم تكن هذه الاضطرابات محدودة في مهاراشتر وغجرات، بل وقعت في كانفور ومدن أخرى، حيث وقعت اعتداءات واسعة على الأرواح والممتلكات. . ولا يمكن أن تقدّر الخسائر التي لحقت باقتصاد البلاد، وتجارتها، بجرّاء هذه الأحداث المؤلمة التي اكتسحت هذه المناطق الواسعة.

* * *

ذكـريــات

عام ١٩٩٣

اجتماعات عامّة للتصدّي لهذا الطوفان الذي يهدّد البلاد وخُطب هذا الكاتب

نظراً لهذا الوضع الخطير الذي كان يهدّد البلاد، شعرتُ بضرورة توجيه انتباه قادة الدين الهندوكي، والزُّعماء المعتدلين المنصفين إلى ضرورة الخروج إلى ميدان الكفاح لمواجهة هذا الوضع، وتغيير مجرى الأحداث؛ فوجَّهت الدعوة لهذا الغرض إلى صديقي المخلص، والداعي إلى الله، ومفسّر القرآن الكريم الشيخ عبد الكريم باريكه، وكلّفته بهذا الأمر، فبذل ما في وسعه، ومثّل دوره المطلوب، ولكن لم نوفّق كلّياً مع الأسف الشديد في هذا الأمر، لضآلة الوسائل، وعدم توفُّر أشخاص يحملون قلوباً مكلومة، وعواطف مشتعلة، يخرجون إلى الميدان مضطرّين، بلهفة وشوق.

وبذلت محاولة من جهة أخرى لعقد اجتماعات عامّة، وحاولت أن أوجّه فيها نداءً قلبياً بكل صراحة وجرأة، للإنذار بالخطر، والتأثير على القلوب، وفي هذا الصدد أقدّم مُلخَّصاً لكلمتين تعكسان ذلك الوضع، وتصوّرات مشاعر قلوب الألوف من الناس في ذلك العصر.

كانت الكلمة الأولى قد أُلقيت في ٦/ يناير ١٩٩٣م، في قاعة باره دري (القصر الأميري السابق) أمام حشد عظيم، ونُشرت هذه الكلمة بعنوان «أخطر مرض للبلاد والمجتمع، الظلم وسفك الدماء»، والكلمة الثانية التي أُلقيت في ٨/ نوفمبر ١٩٩٣م، في مديرية رائي بريلي، في الساحة الفسيحة للكلّية

الرسمية، حضر في ذلك الاجتماع أكثر من ١٥ ألفاً، من مختلف الجاليات ومتّبعي الأديان، والعاملين.

أ ـ الظلم وسفك الدماء أخطر الأمراض في البلدان والمجتمعات:

أيها السادة! نحن الآن في مدينة لكهنؤ، وإني إذ أخاطبكم لا أجد أنسب تمهيد لهذا الخطاب في هذه المدينة، التي تُعرف بشغفها البالغ بالأدب وخاصة بالشعر، مما قاله الشاعر أمير مينائي من شعراء لكهنؤ، الذي يعرفه كل من يملك ذوقاً أدبياً، وعلماً تاريخياً، فيقول ما معناه:

«لقد اجتمع المحبُّون، فهذه أفضل مناسبة لعرض برحاء الشوق وحكاية القلب، لعلّ مثل هذا الاجتماع للأحبّة وأصحاب القلوب لا يتحقّق مرة أخرى».

وكذلك أتمثّل بهذه المناسبة بما قاله شاعر شبه هذه القارة، والأديب والفيلسوف، المفكّر الإسلامي المعروف العلاّمة محمد إقبال، فيقول ما معناه:

«إنّ هذا الأنين الذي خرج من قلبي خرج لتهبّ من منامك، وإلاّ فإن الحُبَّ والغرام عمل لا يستلزم إرسال الدموع، والتعبير عن برحاء الشوق والوجد والعاطفة».

أيها السادة: أقول لكم ـ واسمحوا لي أن أقول ـ: إنّي رجلٌ عاكف على الدراسة وقضيت عمري كلّه في القراءة والكتابة، واسترعى اهتمامي خلال هذه الدراسة الطويلة، وشغفني: موضوعان مهمان، أوّلهما: الأديان والدراسة المقارنة لها، وثانيهما: التاريخ، وهذا التاريخ لا يقتصر على جزء محدود، وإنما هو التاريخ العالمي، وقد استعرضتُ ثروة واسعة في لغات مختلفة، من العربية، والفارسية، والأردية، والإنجليزية، فيما يتعلق بهذين الموضوعين،

وفي ضوء هذه المقارنة توصّلت إلى هذه النتيجة:

إنَّ الشيء الذي تتّفق عليه جميع الأديان والمذاهب في العالم، هو أن الظلم عاقبته وخيمة، وأن خالق هذا الكون لا يحبّ الظلم ولا يرضى به، ويدلُّ التاريخ على أنّ الظلم كان في بعض الأحيان السبب الرئيسي لانهيار المجتمعات، ولاندثار الإمبراطوريات، وانطفاء نورها، والقضاء على ما تكوَّن فيها، من حضارة وثقافة، وما نشأ فيها من ثروة علمية وأدبية، وما خلّد عظماء هذه الإمبراطوريات فيها من أمجاد وآثار، فامّحت هذه الآثار في ساعات قليلة، وطُويَ بساط هذه الإمبراطوريات على مَرْأى ومسمع.

إنَّ التاريخ يحمل شواهد على أن دعوة مظلوم، أو استغاثة امرأة تعرّضت لاعتداء، أدّت إلى انقضاء عهد، فإن خير نصيحة للبلدان واقتضاء الحُبّ الصادق، والواقعية، والحق الإنساني الواجب، هو أن يسود الشعور بأن لا يصدر عمل من أعمال الظلم والعدوان، فلا تُداس كرامة رجل ضعيف، ولا يُسمح لمصباح أي بيت أن ينطفىء، وأن لا يتجرّأ أحد للاعتداء على امرأة مسكينة، وأن لا ترتفع دعوة مظلوم، (بغضّ النظر عن تقدّم البلاد وتاريخها المجيد، وتوفُّر الوسائل والذخائر والمواهب في البلاد).

أقول لكم: ما قيمة هذا المبنى الذي اجتمعنا فيه الآن بالنسبة لهذه المدينة، فضلاً عن هذه البلاد المترامية الأطراف؟! لكن إذا بدأ أحد بالإخلال بالنظام في هذا المكان المحدود، وبدأ أعمال النهب والسلب فيه، وجعل يحطّم الكراسي والأثاث، ويلحق الضرر بالجدران، ويعتدي على المستمعين والمستمعات، ويدمِّر أدوات الزينة والراحة، فلا يحتمل ذلك حرّاس هذا المبنى، فضلاً عن من يملكه.

توجَّهوا إلى محل الخزَّاف ـ ولا أنصحكم بذلك، بل أقول على سبيل المثال ـ ما هي حقيقة الأدوات والأواني الخزفية، التي يضعها ذلك الخزّاف

المسكين بالطين والماء، وما قيمة تلك الأواني التي تُباع بالفلسين، لكن إذا أراد أحد منكم أن يكسر آنية من الأواني التي صنعها، أو كسر جرَّة أو إبريقاً أو إناءً؛ فإنه يحاول أن يصون أوانيه بأية طريقة ممكنة، وقد يهاجمك، ويعتدي عليك، أو يقبل عليك سبّاً أو ضرباً، ولا يدعك تفعل ذلك.

وإذا ذهبت إلى دكَّان آخر، وبدأت تنهب ما يُجمع في ذلك المكان من المصنوعات والأمتعة، فلا يستطيع صاحب الدكان أن يحتمل ذلك، وإذا كان هناك شخص فسيتصدّى لك، وقد يجتمع أناس كثيرون في ذلك الحيّ الذي يقع فيه ذلك الدكّان، ويهجمون عليك، ويخرج الناس من بيوتهم لنصرته، ويقولون ـ وهم يأخذون بحجزك، ويمسكون بيدك ـ: ما جناية صاحب الدكَّان، وما ذنبه، ولماذا تسيء إليه، وتُتلف ماله، أو تحرق دكّانه، أو تحطّم أثاثه؟.

بجوار هذا المبنى الذي أخاطبكم فيه تقع مكتبة عامّة، وإني أحمل في نفسي تقديراً كبيراً واحتراماً بالغاً لهذه المكتبة، فقد استفدتُ منها كثيراً، وتدين كتاباتي ودراساتي لها، ولكن رغم كلّ هذا الاحترام والتقدير أقول لكم: إنه إذا تجرّأ أيُّ شخص واقتحم مبنى تلك المكتبة، وبدأ يغيِّر نظامها، ويحطّم أثاثها، ويحرق أوراق الكتب فيها، فلا تستطيعون أن تغضُّوا البصر عن إتلاف هذه الثروة، وتَدَعوا متلفها يتلف هذه الثروة، رغم أنها من صُنع الإنسان، ويمكن إعادة كتابتها، وإعادة طبعها عدة مرّات.

فهل بقي الإنسان وحده، وبقي إخواننا وحدهم، وبقي الجنس البشري وحده الذي يعمر بلادنا، والذي يقوم به بناء هذه البلاد وعمرانُه، والذي يؤهل بلادنا أن توصف بأنها مواطن، وليست بغابة موحشة، أو أجمة من الأجمات، أو دغل من الأدغال التي يتوجّه إليها الصيادون للصيد.. فإذا كان أحدٌ لا يُسمَح له بكسر أواني الطين، وبكسر أواني الزجاج، وبتدمير مصنوعات التصدير،

فكيف يخطر بالبال أن يُعتدى على الإنسان، الذي خلَقه خالق هذا الكون بالحُبّ والحنان، إظهاراً لقدرته وإبداءً لصنعه؛ وشرّفه بالإنسانية، ومكّنه في الأرض، وجعله خليفةً، فيصبح ذلك الإنسان صيد الإنسان بنفسه، ويُصطاد كما تُصطاد الحيوانات.

وجملة القول: إنَّ جميع الأديان إن اتّفقت على شيء، فإنّما اتّفقت على وخامة الظلم، فإنّ الظلم يؤدي إلى غضب الله، ويحلّ على الظالمين عقوبات وآفات، وبلايا ونكسات، لا تتصوَّر ولا تتخيَّل قبل وقوعها، بل تقشعرُّ الجلود من تصوّرها، ولا أريد أن أقول ذلك عن بلادي، فإني مواطن لها، وحياتي مرتبطة بها، ولكن لا يسعني إلاّ أن أقول: إن الظالمين لهم عقاب أليم من الله تعالى، تنزل عليهم الصواعق والآفات، ويتعرّضون للزلازل والإعصارات، ويُصابون ببلايا أخرى من الغلاء، والجدب، ونقص من الأموال والثمرات، وفشوّ الأمراض والأوبئة، وما إلى ذلك من أنواع العذاب، التي لا أريد أن أفصّلها.

إنّي أقول لكم: إنّ الشيء الذي يجب أن يُخشى منه أكثر من أيّ شيء، هو الظلم والاعتداء، فإن جميع الأديان، وجميع الثقافات، وجميع المصلحين والصالحين، والكهنة.. متّفقون على أن الإنسان هو أغلى شيء على وجه هذه الأرض، فإن إنسان كل دين، وإنسان كل بلد، وإنسان كل جالية، وإنسان كل عنصر، وإنسان كل طبقة، وإنسان كلّ مجتمع، وإنسان كلّ كفاءة، وإنسان كلّ مهنة، مهما كان نوعها، كان صالحاً أو غير صالح، كان نافعاً أو غير نافع، هو من صنع الله، وهو عبارة عن رحمته، ولا أستطيع أن أستعمل له كلمة (القطعة الفنية الرائعة)، ولكن هل يمكن أن يتصوّر أي قطعة فنّية رائعة أروع من الإنسان؟.

وأقول لكم الآن: إن الإنسان يصاب بمرض، ويتعرَّض لنوبة جنون، وقد

يصاب بهذه النوبة فرد، وقد يصاب بها مجتمع، وقد يصاب بها قوم أو أمة، ويدل التاريخ على أن هذه النوبة للجنون أو للمرض، أو نوبة الظلم وسفك الدماء، أو تحقير الإنسان أو تذليله، وقعت، ليس على الأفراد فحسب؛ بل على المجتمعات وعلى البلدان وعلى العهود، وليس من البدع أن يصاب الإنسان في أي عصر بهذه النوبة، ولا يستغرب ذلك، لكن الذي يبعث على القلق ويُنذر بالخطر هو فقدان من يعالج هذه النوبة أو المرض.

فقد ألمَّت بالحضارة الإنسانية، والجنس البشري نوبات عنيفة، وكان يبدو من هذه الحضارة أو هذا الجنس البشري أنه لن يواصل سيره، ولن يبقَ وجوده، وأن هذه النوبات هي القاضية، ولكن تصدَّى رجال من أولي العزم والهمم العالية، وصمدوا في مقاومتهم لهذه الأوضاع، وغيّروا مجرى الأحداث؛ وإني أستطيع في ضوء مطالعتي للتاريخ أن أُقدِّم أمثلة كثيرة لهذه الفترات الحاسمة، ولكن أكتفي بمثالين:

١ ـ سار التتار من تركستان على حدود الصين، وزحفوا إلى العالم الخارجي، وكان زحفهم يكتسح بقوة وسعة، وينذر بأن الجنس البشري سيخرّ أمام هذا الزحف، وأنهم سيجتاحون كل ما يعترض سبيلهم، وكان يبدو أن العالم سيُجبَر على إعادة رحلته الحضارية، لأن هذا التيار الجارف سينسف كل شيء نسفاً، ويجعل المنطقة قاعاً صفصفاً، ويصبح كل ما ازدهر من حضارة وعلوم وفنون، منثورة مُبعثرة، فلا تبقى المكتبات ولا المدارس، ولا العقلاء، ولا المتعلّمون، وبلغ الذعر منهم كلّ مبلغ، إنهم نهضوا من تركستان. . وكان الأوروبيون مذعورين منهم، وفيما يلي بعض التصريحات، التي تُلقي الضوء على هذا الذُعر، وهي مقتبسة من كتابات المؤرخين الأوروبيين الموثوق بها.

يقول «جِبْلَن» (Giblan) في تاريخه المعروف «تاريخ انحطاط وسقوط روما» (الإمبراطورية الرومية): لما سمع السويديون عن طريق روسيا نبأ

الـزَّحف التتـاري، طرأ عليهم الذّعر والهيبـة الشـديدة، إلى حدّ أنهم تركـوا الخروج للصيد على سواحل إنجلترا، كما كان من عادتهم.

يقول «جيولس» (Geols): لو تكهَّن كاهن سياسي في أوائل القرن السادس عن مصير الإنسانية، لتكهَّن أنه مسألة بضعة قرون فقط، عندما تنتقل أوروبا وآسيا بكاملها إلى سلطة المغول.

ويقول «هيرالد ليمب» (Herald Lamb): إنَّ غارات چنكيز خان وتدميره، ألحق بالحضارة صدمة عنيفة، ماتت فيها الحضارة والثقافة في نصف المعمورة، واستأنفت رحلتها من جديد، وقد اندثرت مملكة خوارزم وخلافة بغداد، ومملكة روسيا وحكومات بولندا (بولار)، لمدة من الزمن.

لكن مـاذا حدث؟ نهض بعض أصحـاب القلـوب النيّـرة والصالحين الربّانيين، وبذلوا جهودهم والتقوا بهم، وذكروا الله أمامهم، وأنذروهم بغضب الله وسـخطه، ولقّنوهـم بأن يرحمـوا الإنسـان، وكسـبوا قلوبهم، بخُلُقهـم وروحانيّتهم وإخلاصهم، وعاطفتهم الإنسانية، فرقَّت قلوبهم ولانت كالشمع؛ ويزخر التاريخ بقصصٍ لا يمكن إحصاؤها في هذا المجال، ومما يدل على استغناء هؤلاء الربّانيين عن الكسب المادّي، وإخلاصهم، أننا نجد أسماء أكثرهم في كتب التاريخ، باستثناء بعض المشايخ، فإنهم أخفوا أسماءهم. . ولكنهم غيّروا طبيعة الجيش التتاري بكامله، وحوَّلوهم من الوحوش إلى أصحاب الإنسانية، فتغيَّرت طبائعهم وأذواقهم، وكان منهم المؤلّفون ورجال القانون، وصانعو إمبراطوريات كبرى، وأصبحوا من حُماة الحضارة الإنسانية، ووجدت فيهم مؤهلات لقيادة الجنس البشري قروناً.

أيّها الإخـوة! ليـس بالغريب أن تصـاب بلاد أو طائفة، أو تصاب جالية أو مدرسـة فكريـة، أو مجتمع أو دولـة، أو حضـارة أو عصـر بكاملـه، بنوبة أو بمرض، أو أن يتعـرّض لجنـون، وقد حدث ذلك مـراراً، لكنّ أخـوف

ما يُخاف أن لا يوجد في البلاد من يعالج هذه النوبة، ويعيد الإنسان إلى صوابه، ويعيد إليه إنسانيته، ويمنعه من ارتكاب الظلم، ويخوفه من نتائج سفك الدم، ويجتهد لإيجاد المحبة للإنسان في القلوب، والإخلاص للوطن والوفاء له، والوطنية الصادقة، وهذا ما يجب أن يُخاف منه.

إنَّ الإنسان الذي يدرس فلسفة التاريخ، والذي يحمل معرفة تعاليم الأديان، والذي قام بمطالعة الكتب السماوية، والذي قرأ وطالع أقوال الحكماء والصالحين الروحانيين، يعرف أن هذه النَّوبات تصيب الإنسان أحياناً.. فأحياناً تصيبه نوبةُ حُبّ المال، وأحياناً تصيبه نوبة حُبّ الشهوات، وأحياناً تصيبه نوبة كراهية الإنسان، ويوجد فيه نفور منه، فلا ينظر إليه؛ ويصاب بنوبة الاستمتاع بالظلم، ويجد اللّذة في الظّلم، التي لا يجدها في التفرُّج والنزهة الطبيعية، ولا في سماع أغنية أو لحن جميل.

وقد تنحطُّ الإنسانية إلى هذا الحضيض، إلى هذا الدرك، الدرك الأسفل من الذلة والهوان؛ ولكن الإنسان يصاب بهذه الأمراض، وأصيب بها في الماضي مراراً، بل ألف مرة، وسُجّلت في كتب التاريخ وقائع استبداد قوم بقوم، ودولة بدولة، ووقائع الاستعباد والتفنُّن في الظلم، ووقائع المجازر البشرية، ولكن هذه الوقائع كلها ذهبت في مجاهل التاريخ، ولا يوجد لها ذكر أو أثر إلا في بطون كتب التاريخ القديمة، ولا يعثر عليها أحد إلا بعد بحث دقيق.

وقد كان يبدو في عهد وقوعها أنَّ هذه الأمراض لا يمكن معالجتها، وأنها مظهر لعذاب الله تعالى، وأن المجتمع الذي أُصيب بها، والمنطقة التي وقعت فيها، سوف لا يبقى لها أثر، ولن تعود إليها كرامة.. وأن أطفال ذلك الجيل الجديد لا يقدرون على أن يقرؤوا، وأن نساءها سوف لا يسمح لهن بالعيش بكرامة، لكن تغيَّر مجرى الرياح فجأة، وهبَّت نفحات الربيع، وحدثت

عاطفة التضحية والفداء، فلم يعبأ العاملون بأنفسهم، ولا بكرامتهم، ولا بمناصبهم، ولا بصحّتهم، ولا بحياتهم في سبيل معالجة هذا الوضع، وانقشعت سُحُب الخوف والذّعر، وزال الضّباب الذي كان قد طرأ على عقل الإنسان وتراكم، فأصبح الإنسان الذي كان يجد اللذّة في سفك دم الإنسان، حامياً له، بفضل هذه التضحيات، وتحوَّل من كان قاطعاً للطريق، ومن كان معتدياً على الإنسان، إلى حارسٍ له ومدافعٍ عنه.

حضرات السادة! إنَّ ما يمرُّ به بلدنا في هذا الوقت إنما هو نوع من نوبة الجنون، نوبة العاطفية الزائدة، والعصبيّة الدينية، والاستغلال السياسي؛ والنوبات تكون موقَّتة، وستنقضي هذه النوبة، ولكن تحتاج هذه النّوبة إلى مجهود يقوم به المحبُّون للبلاد والإنسانية، الذين يتركون بيوتهم، ويهجرون راحتهم، ولا يبالون بما يصادفهم في هذا السبيل، من مصائب وأذى، يبذلون جهودهم أفراداً وجماعات، يقومون بتعبئة الرأي العام باسم البلاد وباسم الإنسانية، وباسم العقل والعدل، وباسم خوف الخالق ومعرفته، ويوجهون إلى الناس النداء لأن يهدّئوا أعصابهم، ويُقبِلوا على أعمال البناء، وتطوير البلاد، يحملون الشمع لإنارة الطريق، ويجتهدون لإعادة الكرامة للبلاد، وإصلاح أوضاعها، ورفع شأنها.

وقلت: إن هناك ثلاثة أركان يقوم عليها أمن البلاد، وهي التعليم، والشرطة، والصحافة، وهناك ثلاثة أمور أيضاً، وجَّه زعماء هذه البلاد الذين قادوا حركة التحرير، وكان في مقدمتهم غاندي ومولانا أبو الكلام آزاد، اهتمامهم الخاص إليها، واعتنوا بها، ووضعوا على أساسها صرح الهند الحرة، لتبقى البلاد في جوّ من الأمن والرفاهية، وتبقى موطناً للمحبّة:

الأول: العلمانية، الثاني: الديمقراطية، الثالث: اللاَّعنف.

هذه الأمور الأساسية التي يجب الاحتفاظ بها، فإذا سقط أي عمود من هذه الأعمدة الثلاثة، تزحزح أمن البلاد؛ فإن هذه البلاد هي موطن أتباع أديان مختلفة، منها الهندوس، والمسلمون، والجينيون، والبوذيون، والسّيخ، والمسيحيون، وقد ظلّت هذه البلاد موطناً للتسامح والتعايش، ولن تبقى متحدة إلا بفضل هذه المُثُل الثلاثة.

ب ـ الاستقلال الحقيقي للبلاد وجدواه[1]:

أيُّها السادة! وأهالي هذه المديرية!، مديرية رائي بريلي: وطني الصغير، وسكان الوطن الأكبر: الهند، إني أقول لكم بصراحة وبأدنى احتشام: إنه من بواعث الفخر أن هذا الجمع الحاشد قد اجتمع في هذا المكان في هذه البلدة الصغيرة، بنداء واحد، بل بنداء متواضع، إنه لمن بواعث فخري واعتزازي بدون شك، وإنه يليق بهذا المكان التاريخي الذي درستُ تاريخه، وألَّفت في تاريخه، فإن بلدة رائي بريلي معروفة بتاريخها المجيد، وشخصياتها الفذَّة.. إنّكم إذا ذكرتم اسمها في تركيا وأفغانستان، وفي أوروبا وأمريكا، وفي البلدان العربية، وفي الأوساط العلمية التي لها معرفة بالحركات الإصلاحية، وحركات تحرير البلدان، ويدرسون هذا الموضوع ويكتبون فيه ـ تجدونهم على معرفة برائي بريلي، بل تجدونهم يكرمونها، ويقدرونها، ويُبدون احترامهم لكم لانتمائكم إليها.

لماذا؟ إن هذه البلدة ليست من مدن الهند الكبرى، ولا توجد فيها آثار تاريخية، ولا آثار سياحية، ولا آثار علمية معروفة، فإن هذه السمعة والشهرة التي كسبتها هذه البلدة ترجع إلى وجود شخصيات فذَّة استوطنتها، الشخصيات التي كانت رائدة حركة تحرير البلاد، بل انطلقت حركة تحرير الهند بجهودها؛

---

(١) كلمة ألقيت في اجتماع حاشد في رائي بريلي.

ويمتاز من بين هذه الشخصيات، شخصية الإمام أحمد بن عرفان الشهيد رحمه الله، الذي وُلدَ هنا على بعد مرمى نبل من هذا المكان، إنّه هو الذي أرشد إلى الكفاح، لإجلاء الإنجليز من الهند، وأعدَّ جماعة متحلّية بالخلق النبيل، والسيرة المثالية، وخشية الله، وحبّ الإنسان، وعلوّ الهمّة، وبُعد النظر، والبصيرة والفراسة الإيمانية، والفداء والتضحية، التي لا يوجد لها نظير في التاريخ القريب، وفي مناطق شاسعة، وقد نادى لهذا الكفاح وُلاةَ الهند، وأمراء إماراتها وأعيانها ووجوهها، وأصحابَ النفوذ فيها، وحاول إثارة حفيظتهم وغيرتهم، وولاءهم للوطن، وبعث فيهم الشعور بالخوف من هؤلاء الغزاة الأجانب، والصمود في وجههم، وإليكم بعض مقتطفات الرسائل التي وجّهها:

كتب إلى راجه هندوراؤ (والي إمارة جواليار) رسالة يقول فيها:

«إنكم تعرفون جيّداً أن هؤلاء الأجانب القادمين من وراء البحار[1]، عبّاد الدنيا والتجار، ملكوا زمام الأمور، وداسوا كرامة النُّبلاء والحُكّام، وانتهكوا حُرُماتهم، وإن الذين كانوا فرسان الحكم والسياسة صاروا مقعدين، مكتوفي الأيدي، ولذلك نهض بعض الفقراء والبائسين، وشمّروا عن ساقهم مجبرين للوقوف في وجه هذا الوضع».

وكتب رسالة إلى غلام حيدر خان (أحد المسؤولين في إمارة جواليار):

«لقد انتقل جزء كبير من بلادنا الهند إلى حكم الأجانب، الذين عاثوا في البلاد، وساموا أهلها ظلماً وبطشاً، واندثر حُكّام الهند، ولا يطيق أحد منهم التصدّي لهم، بل خضعوا لهم وانقادوا، وقبلوا سيادتهم، وحيث أن الذين

(١) المراد بهم الإنجليز، الذين سلّطوا أنفسهم في ستار شركة الهند الشرقية، وتدخّلوا في سياسة البلاد.

كانوا أصحاب قوة ونفوذ، قد فترت همتهم، وانخذلوا وتخلّوا عن مُنازَلَتهم، وتولّى زمام القيادة بعضُ الضُّعفاء، الذين لا شأن لهم ولا طاقة لهم».

إنَّ الحرب لتحرير البلاد التي بدأت عام ١٨٥٧م، ضد سلطة الإنجليز خوفاً من أن يلتهم الإنجليز البلاد بكاملها، وتخضع الهند بأسرها لعبوديتهم، والتي ساهم فيها عامة الشعب الهندي، ووصفها الإنجليز والمقلّدون لهم بالغدر (Mutsry)، ولا يزال هذا التعبير يستخدم. . إن هذه الحروب كانت كما وصف الكاتب البريطاني المعروف السر ويليم هنتر (Willeam Hunter) اشتعلت بالشرارة التي لم تخمد بعدُ، لحركة جهاد السيد أحمد الشهيد، يقول:

كانت شرارة حركة جهاد السيد أحمد تعمل في ثورة عام ١٨٥٧م [١]، كسبت حركة تحرير الهند سمعة طيبة، ونال قادتها وزعماؤها بإخلاصهم وبصيرتهم النافذة احتراماً وتقديراً واعترافاً من العالم الخارجي، وكان منهجهم وخطَّة عملهم مثالاً للعالم، الذي كان يرضخ تحت نير العبودية، ويكافح للاستقلال؛ فإن هذه الحرب عرضت على العالم المعاصر أسوة جميلة للوحدة بين صفوف الهندوس والمسلمين، وعدم الموالاة للأجانب، وتقديم التضحيات، وعرض النفس للاعتقال، وتعمير السجون بالمناضلين طوعياً، فذاع صيتُ الهند، واقتدت بها بلدان كثيرة في العالم، كانت تكافح الاستعمار وتحاول للحرية والاستقلال، واهتدت بمُثُلها، ولا تزال الهند موضع كرامة وافتخار لدى كثير من الدول الآسيوية والشرقية، ويُنظَر إلى أبطال حرب تحرير الهند بالإجلال والتقدير البالغَين.

كان من حقّ هذه النعمة لحرية البلاد، والمنهج الذي اختير لتحقيقها، أن يحافظ عليها، ويحتفظ بها ويقتدي بها، بأي حال من الأحوال مهما كلّف ذلك

---

(١) أَنْدْيَنْ مسلمان (Andian Mosalmans).

من ثمن، واقتضى ذلك من تضحية، وأن تحتفظ بكرامتها، وعزّ سلامتها، وأن يعبّر عن الشكر والفخر والمباهاة، وتُبدي عواطف الامتنان عليها، وأن تقشعرّ جلودنا بتذكّر عهد العبودية، وتثور فينا عاطفة الكراهية والاحتقار والنفور، والتقزُّز منه، ولا نتصوَّر بأي حال من الأحوال؛ بل نشمئز كل الاشمئزاز بتصور عودة ذلك العهد المهين، ولا يخطر ببال أحد، بل يجب أن لا يحتمل أحد التخيُّل، بأن يفضّل ذلك العهد على عهد الحرية التي نحن نسعد بها.

ولكني أقول بكل معذرة، وأشعر كأن كبدي يتصدع بذلك، أقول وأتجرَّع المرارة: إن الوضع الذي تمرُّ به البلاد اليوم وخاصة بعد السادس من ديسمبر، وإن المعاملة القاسية التي يتعرّض لها بعض المواطنين، والإخوة الوطنيون في عدد من المدن الكبرى، وإن الوحشية والبربرية التي سفكت بها دماء ألوف من الأبرياء، ونُهبت أموالهم، وممتلكاتهم، وانتُهكت أعراض النساء، وقتل الأولاد والأطفال، كما تكسر الأواني الخزفية، ونهبت ثروات تُقَدّر بالملايين، ودُمّرت، وساد جوُّ الوحشية والخوف والذُّعر، كما يسود في حالة الحرب وفي القتال، وعمَّ هذا الجوُّ أسابيع في المدن الراقية والأماكن الصناعية، إن كل ذلك أوقف البلاد في مرحلة أعادت ذاكرة الكثيرين من المواطنين إلى عهد العبودية، وذكروا ذلك العهد باستحسان، وفضَّلوه على هذا العهد، بل تمنَّوا عودة ذلك العهد، الذي كان الأمن يسود البلاد بكاملها، وكانت أعراض الناس وممتلكاتهم مصونة من عبث العابثين، وكان الأطفال في نجوة من أن يمسَّهم سوء، أو ينظر إليهم أحد شزراً، رغم جميع المساوئ والشرور التي عُرِفَ بها ذلك العهد.

لا شكَّ في أن الإنجليز لم يكن لهم أي حق أن يحكموا هذه البلاد من وراء سبعة أبحر، إنه كان ـ ولا شك فيه ـ حكماً أجنبياً، كان يمتصُّ موارد البلاد، وينقل ثرواتها إلى بلاده، ولكن الشعب بوجه عام كان يشعر بأن حياته مأمونة، ولا حاجة إلى الخوف من الشرطة والجيش، فإن رجالها مرتزقة، وعبيدٌ

لحكم أجنبي، ولم يكونوا متحيّزين إلى أتباع دينهم، ولا أفراد طائفتهم وجاليتهم، ولا كانوا يرجّحون على غيرهم، وإنما كانوا يعتبرون إقرار الأمن والنظام مسؤوليتهم الأولى، ولا يمكن أن يقال أكثر من ذلك في صالح ذلك العهد، وفي صالح حُكّام ذلك العهد، لأنه يتنافى مع غيرة الوطن، وصوت الضمير، وكل ما قيل قيل جبراً وقهراً وقسراً في شدة الانفعال بالأحداث المؤلمة.

وأكثر من ذلك كانت الأمم المختلفة، والأديان المختلفة، حُرّة في العيش حسب تعاليم أديانها وثقافتها، وحرّة في نقل تراثها إلى الأجيال القادمة، وكانت حُرّة في إنشاء مدارسها، ومعاهدها التعليمية، وتعليم لغاتها، فلم يكن أحد يسعى لفرض ميثالوجية غيره، وكانت المقررات الدراسية الإنجليزية تشتمل على قصص الحيوانات والكلاب والقطط، وحكاياتٍ خُرافية وصور لها، وقصص أبطال العالم وتراجمهم، لكنها لم تكن تشمل على موادّ التبشير، أو قصص عيسى عليه السلام، وعقيدة التثليث والصَّلب، أو الدعوة إليها، فالذين كانوا يعتزُّون بدينهم، لم يكونوا يواجهون أيَّ صعوبة في مناهج التعليم، ولم يقلقهم مصير أولادهم، وأن الخوف الوحيد الذي كان يساورهم هو التغريب والأفكار الغربية، وحريَّة العقيدة، والفساد الخلقي[١].

ولكن الوضع اليوم قد تغيَّر كُليّاً، فقد أعلنت بعض الأحزاب نواياها وبرامجها التعليمية والتربوية بكل صراحة ووضوح، وأعلنت أن اللغة الهندية هي اللغة الوطنية وحدها، وأن ميثالوجية ديانةٍ واحدة ستدخُلُ في المناهج الدّراسية، وسيُدرَس تصور خاص للتاريخ، وسوف لا يُسمح لمدارس ومعاهد

(١) يجدر بالذكر هنا ما قاله لسان العصر، الشاعر أكبر إله آبادي، والعلامة إقبال، وما بذله العلماء والمصلحون من جهود لإصلاح الآثار السيئة التي كانت تترتب من نظام التعليم، وظهرت نتائجها المُرتَقبة.

حُرّة لا تتقيّد بهذه السياسة بالبقاء، وغير ذلك من أمور أخرى.

أيّها السادة! إني أقول لكم بكل معذرة، وأستميحكم العذر في هذا القول: إن الذين يعتزُّون بدينهم، ويعتزُّون بكرامتهم، وعائلاتهم، ومُقدّساتهم، وأكثر من ذلك، إن الذين يتوقون إلى إقرار الأمن وسيادة النظام في هذا البلد لتستمرّ فيه أعمال الإصلاح، والتعليم، والتأليف، والنشاطات الأدبية والفنية بهدوء وطمأنينة، وفوق ذلك إن الذين يعتزُّون بمعابدهم، ومدارسهم ومكتباتهم قد بدؤوا يذكرون ذلك العصر (مهما كان ذلك العصر غير طبيعي) العصر الذي كانت فيه جميع هذه المؤسّسات والنشاطات مأمونة، وكان التدخُّل فيها محظوراً.

وأنتهز هذه الفرصة لأقول لكم: إني قلت للمسز أندرا غاندي في عهد رئاستها للوزراء، في أيام الطوارىء، وقد تعرَّضت فيها بعض الأقليات في بعض الأماكن لإجراءات قاهرة، وواجهت صعوبات واعتداءات، قلتُ لها: إنه لمن المخزي للغاية، أن يذكر الشعبُ عهدَ الإنجليز، الذي كان عهد الرقّ والعبودية، وإني أقول لكم بثقة تامَّة: إن زعماء حركة حريَّة بلادنا، لو كانوا قدَّروا ذلك، أو لو خطر على بال أحد منهم، أنه سيأتي يومٌ بعد حرية البلاد واستقلالها، يذكر فيه الناس العهد البائد، عهدَ الحكم الأجنبي، لاستبداد حُكَّامهم وقهرهم وبطشهم، وسوء سياستهم، لما كانوا متحمّسين في نضالهم ذلك التحمّس، الذي ناضلوا به، ولَفَتَرتْ هِمَّتهم، ولخفَّ حماسهم، ولأصيبت إرادتهم وعزمهم بصدمة عنيفة، ولخلت جهودهم وجهادهم من الحماس والعاطفة التي انطلقوا بها، ولم تكن هذه الحرب للاستقلال لتنجح بهذه السهولة التي نجحت بها، ولما تحقَّق ذلك الانتصار على القوى الأجنبية الذي تحقَّق، ولما وصلت إلى تلك الغاية التي وصلت إليها، بهذا المنهج السليم الذي كسب سمعة طيّبة للبلاد.

ما قيمةُ الحياة وما لذّتها في عصر لا يستطيع الإنسان فيه أن يشعر بالغبطة والبهجة برؤية أولاده وأحفاده، ولا يطمئنُّ فيه بمشاهدة مدارسه، وثروته

العلمية، ولا يجد في نفسه الإحساس بالعزّة والكرامة، والمفاخرة بجهوده، وبنتائج ذكائه وكفاءته، بل لا يجد في نفسه عاطفة الثقة والطمأنينة، وتساوره الشكوك والشبهات ويصيبه التردّد، ويعاني من القلق في مستقبله فردياً واجتماعياً.

ما قيمة تلك الحياة، وما متعتها إذاً؟، فكيف يستطيع مواطن في مثل هذا البلد أن يعتبر نفسه مواطناً حرّاً، وكيف يتحمّس وينشط في أعمال البناء والتقدُّم لذلك البلد، ويساهم فيها؟، إن الضمير البشري في التاريخ الإنساني كلّه ينادي ويصيح، إنه لا شيء أخزى وأذل من العبودية، ولا قدّر الله أن تكون هناك محكمة تطالبني بتقديم بيّنة على هذه الدعوى، ولكن يمكن أن يقدم مئات من الناس الذين يفكرون مثل هذا التفكير، وإن كانوا لا يصرّحون به، وإنّما يتكلّمون في دورهم مع ذويهم، ولا يقلُّ عددهم.

لا مبرّر لأي طائفة أو جالية، مهما كانت نسبتها في السكان، ودورها في الاقتصاد، وثروتها التي تملكها في بلد حُرّ، حصل على حريته بتعاون جميع العناصر، والشعوب والطوائف، ومساعيها وتضحياتها، وتحرَّرت البلاد بقيادتها؛ لا مبرّر لها أن تفرض ثقافتها وعقائدها، وتعاليم ميثالوجيتها على غيرها، وتتمتع بحرية الدعوة إليها، ونقلها إلى أجيالها القادمة، وأن تكون حرَّة في ترويج ثقافتها ولغتها وخطّها والاحتفاظ بها، وتُحرَمُ هذه الحرية جاليةٌ أخرى، ورجال ديانة أخرى، وإن كان عددهم يزيد عن عدد سكان بلد آخر يتبع ديانتها، ولا تتمتع بحرية تعليم أولادها حسب دينها وتصورها، وترويج لغتها ورسمها والاحتفاظ بها، ومواصلة ثقافتها، وتقاليدها وأعرافها، وتُفرَض عليها قيود جديدة كل يوم، وتُجبَر على الشعور بأنها حُرَّة في المشي، والتنقُّل، والأكل، والكسب؛ لكنها مستعبدةٌ في اللغة والثقافة والتعليم والتربية، ومقيّدة، ويعلم أهل العلم والفكر أن تغيير الخط ذاته يقطع صلة الأمة بكاملها

بتراثها العلمي، وثقافتها الخاصة، وتنقطع بذلك صلتها بماضيها، ولذلك كتب المؤرخ الفيلسوف أرنولد توينبي (Arnold Toyanbe) أنه لا حاجة إلى إحراق مكتبة أو ثروة علمية وثقافية الآن، وتدميرها، فإن تغيير الخط يكفي لمحو ذلك التراث، وتنقطع بذلك صلة تلك البلاد بماضيها كُليّاً.

وأختم هذا الكلام بالتعبير عن هذه الحقيقة بأن تلك الحرية التي تُظِلُّ جزءاً من البلد، ويحرم جزء آخر من ظلّها، وتتمتع طائفة واحدة فيها بربيع الحرية، وتورق حدائقها وتثمر، ويسود الخريف أماكن أخرى، وتوضع فيها أغلال وأطواق من القيود العلمية، والذهنية، والتعليمية، والتربوية والدينية، وتعرض عقبات جديدة، ليست تلك الحرية بالمعنى الصحيح، وقد قال في هذا المعنى شاعر أردي معروف، وأختم به هذا الكلام:

«ليست الحديقة حديقة يتمتَّع بعض أجزائها بالربيع، وتحرم أجزاء منها، إنه لإهانة إلى سماحة ساقي هذه الخمارة، أن ينعم أحد بالكأس ويخزى غيره، إنه لمن إخلاص وهِمَّة أهل البستان، أن يعود العود إلى إيراقه».



الرحلة إلى دلهي واللقاءات مع رئيس الوزراء

اجتماع اللجنة العاملة لهيئة الأحوال الشخصية:

توجهت إلى دلهي في ٧ أو ٨ من يناير، ونزلت في منزل الدكتور عبد الله عباس الندوي، كعادتي، وكان قد وصل إلى دلهي في تلك الفترة السيد محمد يونس سليم (حاكم ولاية بهار)، وشري كرشن كانت (حاكم ولاية أندهرابراديش) بالصُّدفة، ونظّما لي لقاءً خاصاً مع المستر «نرسمها راؤ» رئيس وزراء الهند، وتقرّر أن يعقد هذا اللقاء في منزل حاكم ولاية أندهرابراديش (كرشن كانت) بدلهي، بدلاً من مقرّ رئيس الوزراء الرسمي، ورافقني في هذا اللقاء رفيقي ومعاوني الشيخ عبد الكريم باريكه، والسيد يونس سليم، وبرغبة الشيخ عبد الكريم باريكه، والعزيز محمد الرابع الحسني الندوي (مدير دار العلوم ندوة العلماء حالياً).

وقصرت حديثي متعمداً على استعراض الوضع السائد في البلاد بصفة عامة، والاضطرابات الطائفية التي حدثت في غجرات، ومهارشتر، وقلت له بصراحة تامة: إن البلاد تحترق في هذا الوقت، وهي على فوهة البُركان، ولا بدّ من التنبّه له، واتخاذ إجراء عاجل قبل أن تفوت الفرصة، ويُفلت الزمام من اليد، وقدمت إلى رئيس الوزراء نسخة من كلمتي التي ألقيتها في ٦/ يناير في لكهنؤ، أمام جمع حاشد متنوع، ومرّت هذه الكلمة في الصفحات السابقة.

وطلبتُ منه أن يلقي نظرة عليها، فوعد وأخذ النسخة مني، ولا أعلم هل أتيحت له فرصة للاطلاع عليها، أم لا، ولكن لم أقتصر على هذه الكلمة

المكتوبة، بل صارحته شفهياً، وقلت له ما وفّقني الله في تلك الفرصة، واستمع إليَّ، وأصغى إلى حديثي، ووعد بأنه سيتّخذ إجراءً مناسباً.

كانت أخبار الاضطرابات العنيفة، والإجراءات الوحشية بسفك الدماء والتدمير، تَرِد في ذلك العهد من بومباي، وتتناقلها الجرائد، والإذاعة، وكنت أتلقاها بالهاتف، ومن عادتي منذ عدة سنوات أن أقيم خلال زيارتي لبومباي مرة أو مرتين في السنة في منزل الحاج غلام محمد بهائي، صاحب شركة نقل آندهرا، في قصر سُهاج بمد بنورة، وأحياناً تدوم هذه الإقامة عدة أسابيع.

وقد أُتيحت خلال الإقامة في الجو الهادىء هناك، أن أُنجز عدة مشاريع لي للتأليف والبحث العلمي، وأكملت عدة مؤلفات لي هناك، فكنت مُنزعجاً جداً لمّا علمت بالهاتف أنّ وضع بومباي خطيرٌ للغاية، ويمكن أن تحدث أية مأساة كبيرة في أي وقت، وكان مضيفي أيضاً في خطر، فشعرت بحق أهل بومباي والامتنان لمضيفي والتقدير لما كان يوليني به من حفاوة وتكريم، وبشاشة ومحبة من خلال كل ما قدّمه لي.. أن أبلغ رئيس الوزراء خطورة الوضع، وأطلب منه أن يتّخذ إجراءً عاجلاً لإنقاذ بومباي، ويتخذ تدابير لازمة لوقاية الأرواح والممتلكات للمواطنين هناك من الأخطار المحدقة بها، فوعد، وعلمت من بعض التقارير التي نشرت فيما بعد، أن الإجراءات العمليّة قد اتّخذت فعلاً، وكان لها أثر بالغ في تأمين سلامتهم، وإن كانت محدودة، وغطَّت منطقة معينة، وبقيت أجزاء أخرى في حالة خطر، إلا أن الوضع قد هدأ نوعاً ما.

وكانت هيئة الأحوال الشخصية تعقد اجتماع اللجنةِ العاملة في الوقت نفسه، وكانت التقارير المفزعة تقلق بال المشتركين، فقرَّروا أن يتوجَّه وفد إلى رئيس الوزراء في حالة انعقاد الاجتماع مباشرة، ويطالبه بأن يزور بومباي بنفسه عاجلاً، ويطَّلع على الوضع الراهن، ويتّخذ إجراءات لازمة لتغيير الوضع،

وإعادة الجوّ إلى حالته الطبيعية، وإن تطلّب ذلك تغيير القيادة السياسية، والجهاز الإداري.. والتقى الوفد به، ووعد رئيس الوزراء باتخاذ إجراء مناسب، ولكنه اتّخذ هذا الإجراء متأخّراً، وكانت زيارته لبومباي قصيرة ومحدودة، فلم يتغيّر الوضع تغيُّراً ملموساً.

ويجدر بالذكر هنا، وأذكره على مضض أن بعض الدوائر الطامحة، والناقدين ـ الذين يعتبرون الالتقاء برئيس الوزراء شرفاً كبيراً ـ لم يعجبهم اللقاء الأول، الذي جرى بيني وبين رئيس الوزراء في منزل المستر (شري كرشن كانت) (حاكم ولاية أندهرابراديش)، وبدأت بعض الصحف التي لا تبالي بالاحتساب والمسؤولية في الآخرة تبدي تكهُّنات ومضاربات، وأبدت مخاوفها بأن اللقاء السرّي ربما أدّى إلى مساومات وصفقات، ومنافع ذاتية.

* * *

الانفجارات العنيفة في بومباي

في ١٢/ مارس سنة ١٩٩٣م، (١٧/ رمضان سنة ١٤١٣هـ)، حدث في بومباي خلال صلاة الجمعة ثلاثة عشر انفجاراً في أماكن مختلفة، وكانت هذه الانفجارات عنيفة للغاية، أدّت حسب التقارير الرسمية إلى مقتل (٣١٧) شخصاً، وتفيد التقديرات غير الرسمية بأن عدد القتلى كان أضعاف هذا العدد، ويقال: إن أكثر من ألف شخص أصيبوا بجروح[١].

ووصف المستر شرد بوار (كبير وزراء ولاية مهاراشتر) أن الانفجارات كانت مؤامرة لتجميد الحياة الاقتصادية للهند.

واتّهم المستر شوان (وزير الداخلية الهندي) أنّ الانفجارات كانت جزءاً من المؤامرة الدولية، لإحداث القلاقل في المدينة.

وحدثت في كلكتا أيضاً انفجارات هائلة في المحلاّت التجارية والسكنيّة، لقي على الأقل (٥٥) شخصاً مصرعهم، وأُصيب أكثر من مئة بجروح.

ويمكن أن تعتبر هذه الانفجارات ردّ فعل للأحداث الوحشية البربرية، والاضطرابات الطائفية (التي تعرّض لها رجال الأقليّة) من طرف واحد، ومثل هذا الانفعال طبيعي وفطري، ولكن لم تحصل الدوائر الرسمية على أي دليل موثوق به، على إقدام أي جهة معيّنة عليها، أو تورّط أي قوة خارجية فيها، ولا يغرب عن البال في هذا الصدد، أن العنف أصبح اليوم مرضاً متعدّياً، إذا بدأ لا يبقى محصوراً في أي فريق أو طبقة، بل يستمرُّ لمصالح سياسية

---

(١) يطول تفصيل الأماكن التي وقعت بها الانفجارات.

واقتصادية، ومالية، وانتخابية، وتكون له عوامل ودوافع مختلفة.

ونقتبس هنا بعض التصريحات والبيانات الجريئة، القائمة على الواقعية لبعض الزعماء والصحفيين:

«تنشط في الوقت الحاضر قوتان لإضعاف الهند، وزحزحة استقرارها، القوة الأولى هي العناصر الموالية للهندوسية، التي قامت بهدم المسجد البابري، في السادس من ديسمبر ١٩٩٢م، ولا يستطيع أيُّ مواطن هندي ذو وعي وشعور إغفال هذه الحقيقة.. إن هدم المسجد البابري بطريق وحشي أدّى إلى اندلاع العُنف الطائفي المُخيف في البلاد كلّها، وسهّل للإرهابيين الدوليين استغلال الأراضي الخصبة للهند لأغراضهم؛ ثم ظهرت على منصّة الشُّهود قوّة ثانية، وهي قوة الإرهاب العالمي لإضعاف الهند، ويتَّضح هذا الأمر ويزداد وضوحاً أنّ الانفجارات في بومباي وكلكتا، كانت نتيجة لردّ الفعل على هدم المسجد البابري.. وإنه لمحاولة لحصر التقدُّم الاقتصادي لبلادنا، ويجب على زعماء (ب، ج، پ) أن يتحمَّلوا مسؤولية فتح مدن الهند أمام المنظَّمات الإرهابية العالمية، ومن الأفضل لحزب (ب، ج، پ) أن يضع حدّاً لحملته الطائفية، ويدع الجماهير تخرج من صدمة هذه الانفجارات، ويسمح لها بأن تركِّز جهودها على مواصلة تقدُّم البلاد اقتصادياً وسياسياً، بدلاً من التركيز على مطالبة رئيس الوزراء والحكومة بالاستقلال»[١].

«بعد الانفجارات التي وقعت في بومباي وكلكتا في الأيام الماضية، تروّج شائعات أن المسلمين انتقموا من هدم المسجد البابري في أيودهيا، وإني لا أتفق مع هذا الرأي، وإني أعتقد أنَّ الحِلم الذي تظاهر به المسلمون في قضية أيودهيا طيلة هذه المدّة، يستحق التقدير والثناء، تُبذَل محاولات متكررة لإثبات أن المسلمين يشعرون بنوع من خيبة الأمل، إني لا أستطيع أن أوافق

---

(١) دي سري نواس، مدراس دي هندو ٢٢/ ٣/ ١٩٩٣.

على هذا التصوُّر، إن الشعور بالهزيمة يوجد إذا وجد الشعور بتوقع الانتصار، إن ما حدث في أيودهيا لا يشكِّل هزيمة لأي فريق، وإذا كانت فيه هزيمة، فإنها هزيمة الإنسانية.

ومهما تكن دعاوى الزعماء فيما بينهم، أو أدلوا ببيانات لتضليل عامة الناس، فإن الحق الذي لا ينكره أحد، هو أن كل شخص شعر بهذه الهزيمة. . إنه لم يكن مسألة دين، وعلى أي حال إني أشعر في مثل هذه الأحوال أن المسلمين القاطنين في الهند، قد أبدوا حلماً وحزماً فائقين، فلم ينفعلوا في أي وقت، ولم يظهروا سخطهم.

أما الاضطرابات الطائفية التي اندلعت، إذا قام أحد بتحليل أسبابها وعناصرها بدقَّة فإنه يرى فيها تورُّط عناصر تعيش على الإرهاب والعُنف، وتقضي حياتها في جوّهما، ولا يثيرها إلا القادة السياسيين لمصالحهم.

وقد أُشيعت أراجيف أن المسلمين يقدمون على الانفعال، وينغمسون في أعمال الانتقام، وقد يكون عدد معدود منهم يحملون هذه الطبيعة، ولكن لا يعني ذلك أن تُتَّهمَ به الفرقة بكاملها، وإذا فعل أحد فإنه يساعد العناصر السياسية، ويرادف ذلك خدمة مآربهم.

ولذلك يجب أن يُشْعَرَ بِجَدٍّ أن المسلم العامّ لا صلة له بهذه الأحداث والوقائع، وهو بريء منها، فإن جهده لتحقيق حاجاته اليومية لا يترك له مجالاً لذلك، فأين له الوقت لينغمس في الحِيَل والمكائد. . إنها لمؤامرة المغرضين، الذين لا يحملون أيَّ هم للمسلمين، ولا صلة لهم بالإسلام، وإنما يجعلونه سلَّماً للصعود إلى مراتب القيادة، فلا يتردّدون في اختيار هذه السبل دون أيّما تردد، وهذا ما يحدث اليوم»[1].

* * *

---

(١) هندي ملاب اليومية ـ حيدرآباد.

مُقتطفات وخُطَب

نقدم في الصفحات الآتية مقتطفات من بعض الخطب والكلمات التوجيهية، التي ألقيتها بهذه المناسبة، نظراً للوضع وما آل إليه، من تشويش واضطراب ذهني، وكشف عن مؤامرات عميقة واسعة المَدى، حاكها الأعداء، والدعاية، والمحاولات التي تقوم بها بعض الجهات، والأفراد من المعاندين، تفيد في فهم الأوضاع.

أ ـ الوضع الجديد ومواجهته[1]:

بعد قرون عديدة، اتفق الذهن اليهودي، والقوَّةُ المسيحية، وحدث تضامن بينهما، رغم وجود عناصر التعارض والمُنافاة إلى أقصى حدٍّ ممكن بين هذين الدينين، فإن المسيحية تقوم على أساس عقيدة أن المسيح ابن الله، واليهود يطعنون في نسب المسيح عليه السلام، وهو مطعن لا يستطيع أي مسيحي أن يحتمله، ولكن تنوسيَ هذا الخلاف، حتى أن البابا عفا عن هذا الخطأ لليهود.

إنَّ الأصولية عنوان لمؤامرة دقيقة النسج، فقد أدركت بريطانيا وأمريكا وسائر الدول الأوروبية، بعد انفكاك الاتحاد السوفيتي، أن الخطر الوحيد والمُنازل الوحيد الذي يمكن أن يواجهها ويتصدَّى لها: هو الإسلام والمسلمون، فدبَّروا مؤامرة بذكاء مفرط ولباقة تامَّة، وساهم في تدبيرها ونسجها الذهن

(١) خطاب ألقيته في قاعة اتحاد الطلبة في ندوة العلماء في ١٤/ مايو ١٩٩٣.

اليهودي مساهمة كبيرة؛ وهي: الأصولية، والرجعية، والتخلُّف.

وقد كان في عهد طفولتي يُستَخدَم تعبير «الرجعي» أو المتحجّر، ومحب القديم، في هذا المعنى الذي يستخدم له الأصولي.

وتقوم دعاية مكثَّفة، ويُنشر هذا التصوُّر بكل قوة وجهارة، ويُحدث الصخب، ويُملأ الفضاء به بطريق مُخطَّط؛ ويعدُّ له الجوّ، بحيث يصعب على أي إنسان أن يقول: إنه أصولي، ويقرُّه؛ وإن كان يلزم لكل من يؤمن بدين أن يتبع تعاليم دينه، والشريعة المقررة له، والقِيَم الخلقية، والمُثُل الثّابتة، ويقلّد منهجاً صالحاً نابعاً من العقيدة التي يؤمن بها، فإذا كان مسلماً فأصوليته أن يؤمن بالنصوص القطعية، والصحف السماوية، والأوامر التي وردت في كتاب الله، وإن كان مسيحياً فعليه أن يتَّبع ما ورد في الإنجيل.

لقد شاع مصطلح «الأصولية» اليوم شيوعاً كبيراً، وانتشر استخدامه، فوصل إلى الدول العربية، وقد كانت ألفاظ: المبدئيين، والرجعيين، والمتزمّتين، والمتطرّفين، تُستخدم في اللغة العربية، وكان أصحاب القلم والخطباء يستخدمونها مقابل ألفاظ المتنوِّرين، والتقدُّميين.

وقد وردت إليَّ أخيراً رسالة من منطقة عربية، يطلب فيها الكاتب منّي أن أُبدي رأيي عن المتطرّفين، وأنه يرسل استبياناً إلى نخبة من أصحاب العلم، ليُدلُوا بآرائهم في الدعاة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية، والتعاليم الإسلامية، على المجتمع، وإقامة حكم على ضوئها، ويطالبون بتنفيذ القانون الإسلامي.

إن معنى كلمة المبدئي الذي يؤمن بالمبادئ والأصول، ويلتزم بالأخلاق والمُثُل؛ والواقع أن فساد العالم اليوم يرجع كُليّاً إلى الانحراف عن الأصول والمبادئ، والميوعة في الفكر، فلا يتبع مبدأ، وإنما يتبع الإنسان اليوم أهواءه، ويجتهد للحصول على اللّذة والمُتعة في الحياة، سواء خالف ذلك القِيَمَ المقبولة، وكان له أثر سيِّئ على المجتمع بأسره، والإنسانية جمعاء، والعصر بكامله، وإنما هدفه الوحيد ومقصده الأصلي هو تحقيق مآرب النفس؛ وذلك

ما تعنيه الحُرِّيَّة عن القِيَم، وإن هذه الحرية عن القيم والمبادئ هي التي وصلت بالإنسانية إلى الوضع الذي يستطيع أن يقيم القيامة في أي وقت.

إن القيامة الحقيقية تأتي في وقتها، ويأتي بها الله في موعدها، ولكن القيامة الصغرى تستطيع أن تقوم في أي وقت، وقد كانت الحرب العالمية الأولى نوعاً من القيامة الصغرى، وكذلك كانت الحرب العالمية الثانية قيامة صغرى، ومثل هذه الحروب يمكن أن تحدث مرة أخرى، وربما تحدث بنطاق أوسع، فقد كانت تلك الحرب قد جرت بين بريطانيا وألمانيا، وانضمّت إليها دول أخرى فيما بعد، كذلك كانت الحرب الثانية.. لم تكن الأسلحة النووية عامة في ذلك الوقت، وهي اليوم عامة منتشرة، ويمكن أن تتّسع رقعة الحرب الجديدة، ويكون كل ذلك نتيجة للانحراف عن الأصول والمبادىء، والجري وراء النفس، والحُريّة المطلقة، والبعد عن الدين.. ولكن لا يخجل هؤلاء الأعداء للإسلام في اختيارهم لهذا المُصطلح، فإن الفساد كله يرجع إلى هذا الانحراف، قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

ما معنى هذه الآية؟ إذا تدبرتم في هذه الآية وسياقها، علمتم أنَّ هذه الآية تُشير إلى هذا الانحراف عن الأصول، وهذا الاتباع لهوى النفس، وهذه الحريّة المطلقة، وهذا الإعداد لتسلية النفس واتباعها، الذي يساور أذهان معاندي الأصولية، وتشتمل عليه دعوتهم، وتسعى إليه نفوسهم، ويهدفون إلى الحصول عليه، وقد بيّن الله تعالى ذلك في قوله: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، فكّروا في بلاغة القول في القرآن الكريم، إنه نَسَبَ الفساد إلى كسب أيدي الناس، ولم ينسبه إلى شيء آخر؛ أي ما اجترحته أيدي الناس، وارتكبته، إنما اجترحته أيدي الناس الذين لا يؤمنون

بأي مبدأ، ولا يتفقون بأي أصل من الأصول، لم يكن لهم حدود يقفون عندها، ولا يعتدون عليها.

إنَّ هذا العصر خطير وشائك للغاية، إنه يقتضي براعة في الكتابة، وصلاحية التعبير، وصلاحية الخطابة، وصلاحية التفهيم، وصلاحية تبادل وجهات النظر، كل ذلك مطلوب في هذا العصر، إنه لمؤامرة عالمية، مؤامرة واسعة النطاق، دقيقة النسج، وعميقة الجذور، ولها ملابسات وأبعاد دقيقة عميقة، ولا أذكر رغم مطالعتي الواسعة مؤامرة أخطر وأكبر من هذه المؤامرة في التاريخ، فقد انضمَّت القوى اليهودية والمسيحية في مجهود مكافحة «الأصولية»، وعزمت على استئصال جذورها، لكيلا تبقى حدود، ولا مبادئ، ولا أصول، فيمكن للمرء أن يفعل ما يشاء، كما كانت الفلسفة اليونانية المعروفة بالأبيقورية.

ورد ذكرها في تاريخ أوروبا، وكان معنى الأبيقورية أن يفعل الإنسان ما يجد فيه اللذة، ولعل أوروبا كلها اليوم تفكّر من هذه الزاوية، إنها أصبحت أبيقورية، تفعل ما فيه اللذة والمتعة، إلا أنها وسَّعت دائرة اللذة، وأدخلت فيها لذة السياسة، ولذّة العلم، والنشوة في النصر، ولذة انتهاك الحرمات، ولذة الظلم والاضطهاد، إنها لمؤامرة دقيقة لهذا العصر، لا تعدلها مؤامرة، وقد بدأت آثارها تظهر، وترتفع الأصوات في البلدان العربية، وبلدان الخليج أيضاً لمعارضة المتطرّفين، وقد كانت المعركة ساخنة في الجزائر، وتونس وليبيا قبل ذلك، وتجري فيها الحرب ضد العاطفة الدينية، والتديُّن العام، وضد المجهود الذي يبذل لغلبة الإسلام.

ما هي مطالب «المتطرّفين»؟، إنهم يقولون أن يصبغ المجتمع بالتعاليم الإسلامية. . أن يكون رائده خشية الله، وخوف الآخرة، وأن تُرعى فيه الحقوق، ولا تنتهك فيه الأعراض، ولا يتعدى فيه على أحد، ليسود فيه الهدوء

والطمأنينة، والأمن والسلام، ويشعر فيه الإنسان بالشرف والكرامة، ويتمتَّع بالحياة السعيدة، والعيش الهانئ.

وتخاف الحكوماتُ الدعاةَ إلى تطبيق الأحكام الشرعية (فضلاً عن تنفيذ العقوبات)، والذين يريدون اتباع أحكام الشرع، والالتزام بالحدود في الحياة العامة، بنطاق محدود قابل للعمل.. تخافهم الحكومات، ويتّضح ذلك في الصحف والمجلات الصادرة منها، وينعكس ذلك عن الرسائل والتقارير التي ترد منها.

تفكر أمريكا وبريطانيا، بالنسبة للأصولية، هذا التفكير، وعلى هذا التصور تقوم بالدعاية، والآن بدأ صداه يُسمع في الدّول الشرقية.. إنها مؤامرة عميقة وخطيرة، وينبغي أن يُعَدّ لها إعدادٌ مناسب وعلى نطاق واسع.

يقال عن العقيدة والإيمان، والالتزام بالدين، وخوف الآخرة، والخضوع لأوامر الله سبحانه وتعالى.. إنها كلها رجعية، وأخيلة قديمة، وأمور لا صلة لها بهذا العصر المتحضر، ويريد المعاندون بذلك أن يزول التمييز بين الحلال والحرام، والطاعة والمعصية، والمعروف والمنكر، والخير والشر، والحسن والقبيح.

فيجب على العلماء والأدباء والمثقّفين والباحثين والكُتّاب والصحفيين، أن يشكّلوا جبهة متضامنة قوية لمواجهة هذه المؤامرة، لأنها إذا نجحت تزلزلت قواعد الدين، وانهارت أسس الأخلاق والقِيَم، وتزعزع نظام الأمن العالمي؛ ويحدث فوضى واضطراب، ويسود قلق وحنق، ويوجد وضع انتحار عالمي واجتماعي، لا يبقى معه نظام العالم، بل يُطوى بساطه.

ب ـ الاحتفاظ بالشخصية الملّية:

لا يكفي الملة الإسلامية تأمين سلامتها جسمياً، وعنصرياً، واستمرار

بقائهما؛ ولا يكفي أن يكون أفرادها في نجوة من الخطر لأنفسهم ولممتلكاتهم، وأن تُتاح لهم فُرص للاستفادة من التسهيلات التعليمية والاقتصادية والسياسية والديمقراطية، وأن يتمتعوا بحرية الانتفاع بها؛ بل لا يكفي الإسهام في الإدارة والحكم في أي نظام ديمقراطي، ولا يليق بصاحب العقيدة، وصاحب الدعوة والرسالة، ولا يجدر بمكانته أن يقتنع بذلك، وإنما يلزم له الاحتفاظ بالشخصية الملّية المتميّزة في كل بلد وفي كل عصر، وضمان حرية اتّباع الشعائر الإسلامية، والعيش طبقاً لما تقتضيه العقيدة الدينية، والعمل حسب التعاليم الدينية، وقانون الأحوال العائلية، والعيش بالالتزام للثقافة والحياة الاجتماعية الخاصة، المنبثقة من تصورها الديني الخاص، وأن يستمرّ الارتباط بالدين والوقوف على تعاليمه، وإلا تنقطع الصلة بالماضي.

فإذا فقدت هذه الشروط والضمانات الشخصية الملّية في بلد أو بيئة، لا يمكن أن تعتبر المِلّة الإسلامية حُرّة ومَصونة، ولا يعتبر شرفها مأموناً، ولا تُعتبر عضواً مساوياً محترماً، وخاصة في البلد الذي يعرف بميل طبيعة سكانه إلى إذابة الأديان الأخرى، والثقافات الأخرى، في دينه وثقافته، لطبيعته وتاريخه، وطبيعة دينه، ولكونه محصوراً ومنقطعاً قروناً طويلة، جغرافياً وسياسياً، عن بقية العالم المتحضّر. . في مثل هذا البلد يتطلّب الوضع مجهوداً جبّاراً، ويقظة دائمة، واستعداداً متواصلاً، للاحتفاظ بالشخصية الاجتماعية والمعنوية للملّة الإسلامية.

وقد وصف الشاعر الإسلامي الكبير «خواجه ألطاف حسين حالي» طبيعة الهند وثقافتها بأنها أكّالةُ الأمم، فقد ذابت فيها جميع الأمم التي وردت من الخارج وقضت فترة من الزمن في جوّها، فاندمجت فيها، وفقدت جميع خصائصها ومزاياها، وتنازلت عن شخصيتها وهويّتها، وصدق عليه المثل الهندي: «كل ما دخل في معدن الملح صار ملحاً»، فإن الضرورة إلى

الاحتفاظ بالشخصية الملّية، والحساسية الدينية والثقافية، والمحاسبة الواقعية، والاحتساب القومي في هذا البلد أشدّ وأقوى من أي بلد آخر.

وهناك عنصر آخر يدعو إلى هذه الجهود المُضنية للاحتفاظ بالشخصية الإسلامية، وهو عمل صناعة التاريخ في هذا البلد، لأسباب تاريخية خاصة، ومصالح سياسية وانتخابية، ومؤامرات دولية دقيقة؛ فقد جرى عملُ تلقيح التاريخ بمواد تبثُّ الكراهية بين مختلف الطبقات، وبدأ العمل لإبادة الجنس، على الأقل في مجال الثقافة والفكر، على أساس مخطّط مدروس، وقرار قومي، تعكسه البيانات والتصريحات، التي مرّت في الصفحات السابقة للزعماء المتطرّفين الطائفيين.

في مثل هذا الوضع تتضاعف المسؤولية، ويؤدي أي تهاون أو إغفال في هذا الأمر إلى ردّة فعل ثقافية وذهنية للمِلّة، هذا إذا لم يؤدِّ إلى ردّة فعل عقائدية (لا قدّر الله).

إنّ البلد الذي حكَمَه جزء من الملّة الإسلامية قروناً، ولم يعرفه إلا بعقيدة التوحيد، والمساواة واحترام الإنسانية، والمعارف والعلوم والآداب، والأفكار الجديدة، والاتجاهات الحديثة، بل أغناها وأثراها بها، يمكن أن تحوله تلك القوى المعادية للإسلام إلى الأندلس الأخرى.

يتفاقم هذا الخطر مزيداً عندما يتقدّم من الملّة الإسلامية نفسها أفراد (مهما يكن عددهم قليلاً) إلى الميدان، ينكرون ضرورة الاحتفاظ بالشخصية الملّية، ويصفونها بأمر ليس بلازم في هذا العصر، ويحطّون من شأنها، ويقلّلون من أهميتها وقيمتها.. ويعتبرون أمراً من أمور الدين، وتحقيق مطلب من مطالب الأمة، والسعي لتحقيقها، تفرقةً وتشرذماً، وعائقاً في سبيل تقدم البلاد ورقيها، ويتعدّون إلى حمل ذلك الجُهد على سذاجة القادة المسلمين، وانفعاليتهم الزائدة، وسوء فهمهم للأمر والواقع.. وحتى المجهود المستمرّ،

الذي بُذل لصيانة قانون الأحوال الشخصية الإسلامية، يكون في نظرهم أمراً لا داعي له ومرادفاً لتضييع الوقت.

حينئذٍ تشتدُّ ضرورة هذه اليقظة والوعي، والحميّة الدينية، والإباء والأنفة، والحزم والعزم على الحفاظ على هذه الشخصية الملّية (بجميع فروعها).

قبل حوالي ثلاث عشرة سنة كنت صرحت في كلمة ألقيتها أمام جمع حاشد من المسلمين، يعدُّ بمئات الألوف من الناس، بمناسبة الاحتفال المئوي لتأسيس دار العلوم دبويند، المنعقد في مارس ١٩٨٠م، ولم يكن مثل هذه الأخطار، ولم يكن مثل هذه التحدّيات قد تراكمت في الفضاء، ولم تظهر مثل هذه البيانات المهددة كما ظهرت اليوم، قلت في كلمتي:

«إنني أعلن بوضوح وقوة وصراحة تامة، وأريد أن تعلنوا أنتم أيضاً، أننا غير مستعدين بأي حال من الأحوال أن نعيش كحيوانات تكفيها وجبتها الغذائية، وسلامتها الذاتية، ونحن نرفض ألف مرة وأكثر من ذلك، أن ننزل إلى هذا المستوى ونرضى بهذا النوع من الحياة.. إننا سنعيش بأذاننا وصلواتنا، بل إننا نعيش بتراويحنا، وصلوات الإشراق والتهجّد، ولن نرضى بهجرها، ولن نرضى بأن نتنازل عن أية خطوة، بل أية نقطة من خطوات الرسول ﷺ، اقتداءً بسيرته وتيمناً بهديه».

وقبل ذلك قام المجمع العلمي الإسلامي بطبع ترجمة كتاب «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم» لشيخ الإسلام العلاّمة ابن تيمية رحمه الله، كتبت كلمة تقديم لهذا الكتاب، أقتبس منه هنا، أن الحقائق العديدة التي انكشفت بدراسة العلم الجديد، وعلم النفس والاجتماع، والتجربة المتكرّرة المتسلسلة لآثار الشعائر والعادات، والمزايا والثقافة والاجتماع، وخاصة منذ أوائل هذا القرن، قد أوضحت بلا مراء وأثبتت أن قضية الثقافة

والميول الاجتماعية ليست في تلك السطحية والبساطة، التي كانت تُعتبر قبل مدة من الزمن، وكما كان ينظر إليها في أوائل هذا القرن، عندما قدّمها الدُّعاة إلى تقليد الحضارة الغربية ومحاكاتها، وفي أواسط هذا العصر الدعاة إلى التضامن القومي، فقد بات مُسلّماً اليوم، وأصبح حقيقة لا تنكر أنّ العادات والتقاليد والأعراف والميول والنزعات، تستمدُّ جذورها من القلب والشعور، وتؤثر فيهما، وتحمل تأثيراً عميقاً في صياغة الأمم والملل، وفي تشكيل الأذهان والعقول.

إنَّ الثقافة شكل خارجي للعواطف، الميول، والاستحسان، والكراهية، والاتجاه الذهني؛ وإن مضامين الثقافة وعناصرها تكون مضمَرة ودقيقة، بحيث لا تُشاهد ولا تقاس، وحتى بالمجهر، فلا يمكن أن تعرف ما امتزج بأخلاط طبيعتها وتكوينها عناصر الشرك، والجهل والظلم والكبرياء وميول الترف والغفلة، وبأي تناسب امتزجت، وهل يمكن فصلها أم أصبحت جزءاً لا يتجزَّأ منها، وما هي الظروف والخلفيات الفكرية، والنفسية، والخلقية، والسياسية، والاقتصادية، التي نشأت فيها هذه الثقافة، وترعرعت ونمت وارتفعت، وما تركته من آثار لا تُمحى فيها ولا تندرس، ولا يسهل تحليل هذه العناصر على مؤرّخ وعالم كبير لفلسفة الاجتماع، ولم يُكتشف حتى الآن مختبر لتحليل هذه العناصر بنجاح.

وإنّ عمل الأخذ والقبول والاقتباس الذي يتم في ميدان الثقافات والمجتمعات، كيف وبأي مدى يؤثّر على نفسية الملّة، ويبعدها عن مكانتها، وكيف تتغير مقاييس البرّ والإثم، والإسلام والجاهلية، والطاعة والمعصية، والحياء والخلاعة، والعدل والظلم، والقناعة والترف، وكيف تتغيّر تلك الملة، رغم بقائها في هيكلها، وفي خليّتها من داخلها، وفي طبيعتها، لا يستطيع أحد أن يُقدّر ذلك. . وحتى قائد حكيم ومصلح ذو فراسة دقيقة.

إنه هو الله العليم الخبير، الذي يدبّر بالنصوص والأحكام الإلهية المنزَّلة في الكتاب، والشريعة والدين، لوقاية أمة يعدّها لهداية البشرية، بالحفاظ على مميزاتها وخصائصها؛ وإن الحذر البالغ، والاحتراس الزائد في الإسلام في التشبّه والتقليد والمحاكاة، وبيان الأحكام الإسلامية المفصّلة، وتعيين الحدود، وإصرار الشريعة على الالتزام بها، يدلُّ على أن الإسلام ليس بمجموعةٍ من بعض المعتقدات والتقاليد؛ بل إنه يدعو إلى منهج كامل معيّن للحياة، إنه ينادى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾، ويدعو كل ثقافة لا تصدر من منبع الحكم الإلهي، والهداية الربّانية، بل تصدر من الهوى، والمصلحة، واللّذة، والشرف، وتكون مجرّد تجربة وقياس بالجاهلية.

إنه أعلن لأول مرة هذه الحقيقة أنّ أي فرد إنساني لا يستطيع أن يعيش على العقائد وحدها، ولا يمكن منع الثقافة والاجتماع من التأثير على العادات، والأخلاق، والعقائد، والعبادة، وأن إقامة جدار بينهما محاولة غير طبيعية، كما فعلت الحضارة الغربية في عهد النشأة الثانية لها، يجعل الدين مسألة شخصية.

إن حياة الإنسان ليست مجموعة لوحدات متفرقة، تُجْمَع في وقت، وتُفْصَل في وقت آخر، وإنما هي وحدة بنفسها، يمكن أن يُعبَّر عنها بالعبودية، أو الإسلام، أو الدين أو الطاعة، وذلك هو ما يستفاد من الحكم الإلهي.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

* * *

مؤتمر تاريخي عظيم لرسالة الإنسانية

أُعلِنَ عقد اجتماع لرسالة الإنسانية في قاعة (شري كرشن) في (بتنه) بولاية بهار، في ٣٠/ يونيو ١٩٩٣م، (٩/ محرم الحرام ١٤١٤هـ)، بعد صلاة المغرب، وكانت القاعة كبيرة، فكان الناس يشكُّون في أن تكتظَّ القاعة بالحاضرين ـ لسعتها ـ وينجح الاجتماع، فأشار بعض الإخوة المخلصين على أن يعقد الاجتماع في ساحة غاندي، بدلاً من عقده في هذه القاعة التي تكلّف كثيراً، ولكن أصرَّ الشيخ نظام الدين السكرتير العام لهيئة الأحوال الشخصية على أن يُعقد الاجتماع في القاعة نفسها، توكُّلاً على الله، وثقة منه، بأن عدداً كبيراً من الناس سيأتي لحضور الاجتماع، وكان ذلك في فصل الأمطار، فكان يُخشى أن ينزل مطر أثناء انعقاد الاجتماع، ولذلك آثر عقد الاجتماع في القاعة على عقده في ساحة مكشوفة.

وعلى عكس ما كان يخشاه الناس، تدفَّق آلاف من الناس إلى مكان انعقاد الاجتماع، واكتظَّت القاعة بهم، وسمع الناس الخطيب برغبة وشوق بالغين.. أعتقد أن ذلك النجاح الذي أحرزه الاجتماع يرجع إلى أهمّية الموضوع واهتمام الناس به، وإخلاص الشيخ محمد نظام الدين، وجهد الدكتور أحمد عبد الحي، وخلقه الذي كسب له ثقة الناس.

توجَّهتُ إلى القاعة بعد صلاة المغرب، كنت أخشى أن عدد الحاضرين لا يملأ نصف المقاعد، ولكن عندما دخلتُ صادفتُ أنَّ القاعة مكتظّة بالحاضرين، ولا يرى فيها مقعد فارغ، وعلمت بعد الاجتماع أن عدد الحاضرين تضخَّم إلى حدّ أنْ اضطُرَّ مئات من الناس كانوا يستمعون واقفين

خارج القاعة، منصتين بكل هدوء وطمأنينة.

وكان على المنصّة المستر لالوبرشاد يادو (كبير الوزراء) والدكتور جكناته زاد (كبير الوزراء السابق)، والمستر ميكورام (المفتّش العام للشرطة)، والجنرال «ايس، كي، سنها» (أحد قادة الجيش السابق)، والأب بال ريكسن (قسّيس الكنيسة)، والميجار بلبير سنكه، والسكرتير السابق لحكومة بهار، والشيخ السيد نظام الدين (الأمين العام لهيئة الأحوال الشخصية)، والشيخ عبد الكريم باريكه، والدكتور أحمد عبد الحي (أحد أشهر أطباء بتنه).

واستهلّ هذه الاجتماع بتلاوة آي من الذكر الحكيم، على خلاف العادة، وكان يرفرف علَمٌ كُتِبَ فيه بيت شعر أردي معناه:

رسالتي رسالة المحبة، فلتبلغ حيث استطاعت أن تبلغ.

وبعد تلاوة القرآن الكريم قُدّمت ترجمة للآيات المتلوّة بالإنجليزية والهندية، وقدّم الدكتور أحمد عبد الحي كلمة الترحيب، عرض فيها أهداف « رسالة الإنسانية »، وشرح أهمّيتها في الهند الحديثة، وضرورتها في الأوضاع الرّاهنة، ونشرت جريدة «تائمس آف إنديا» في نفس اليوم في طبعتها الصادرة من (بتنه) مقابلةً معي، حول أهداف رسالة الإنسانية وخلفياتها، ونشرت الصحف الأخرى أيضاً الصادرة بالأردية والإنجليزية تقارير عن المؤتمر، ونُظّمت لقاءات خاصة؛ وبهذا الاعتبار يستحق هذا الاجتماع أن يعتبر أنجح مؤتمر لرسالة الإنسانية.. بدأ بعد صلاة المغرب في الساعة السابعة، وانتهى في الساعة العاشرة بهدوء تام.

كلمتي في المؤتمر:

بدأتُ كلمتي تلقائياً باقتباس من الأقوال الحكيمة لمصلح ربّاني كبير، ومحقّق وعارف بالله، عاش في بهار، في القرن الثامن للهجرة، وهو مفخرة

الهند كلها، وهو مخدوم المُلك الشيخ شرف الدين يحيى المنيري، رحمه الله[١]، فقلت: أبدأ كلمتي بقصة حكاها عالم ربّاني كبير من بلدتكم، وهي قصة لا تليق بهذا المقام والمكان فحسب، بل تليق بالموضوع، وتشكّل خير تمهيد للكلمة وخير خلفية لها، يقول الشيخ شرف الدين يحيى في رسالة له، كتبها إلى أحد مسترشديه[٢]:

«بنى غنيٌّ من الأغنياء قصراً شامخاً على قمّة جبل، وجمع في القصر أنواعاً وأصنافاً من النعيم، فلما حانت منيّته، وأيقن أنّه سيموت، دعا ولده الوحيد، وأوصاه بأن يفعل ما يشاء في قصره، وهو حُرٌّ في تعديل أي شيء، لكنه يترك نباتاً له رائحةٌ طيّبة، عليه أن لا يقلعه من مكانه، مهما حدث له من جفاف أو ذبول.

وحان وقت الربيع، فاخضرّت الأرض كلها على قمة الجبل، وظهرت أشجار وحشائش كثيرة، كانت أجمل من ذلك النبات القديم الذابل، الذي تركه والده، ونمت أشجار وزهور جديدة عطّرت الفضاء، وفاحت ريّاها، وانتشر شذاها في القصر، وغلبت على شذى هذه الشجرة الذابلة، وظن الولد أن الوالد ترك هذه الشجرة لرائحتها وطيبها، لكنّها الآن أصبحت ذابلة، ولم تعد تنشر شذاها، فأمر بأن تُقلع وتُلقى خارج القصر، وفور خروج هذه الشجرة من القصر، دخلت حيّة من جحر ولدغت هذا الولد فمات.

كان في إبقاء هذه الشجرة فائدتان، إحداهما الرائحة الطيبة التي كانت تفوح منها، والثانية منع الحية من دخول المنطقة التي تقع فيها، كأنها كانت ترياقاً لسمّ الثعبان، ولم يكن يعرف أحد هذا التأثير، وكان الولد فخوراً بذهنه الوقّاد، وذكائه الحادّ، فاعتقد أن ما يحيط به علمه هو آخر ما وصل إليه العلم،

---

(١) ولد في منير ٦٦١هـ، وتوفّي في بهار الشريف ٧٨٦هـ.
(٢) مكتوبات سه صدى، رسالة رقم ١٧.

ونسي ما جاء في القرآن الكريم ﴿ . . . وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [الإسراء: ٨٥]، فاغترَّ بذهنه وذكائه، وأدّى ثمن هذا الغرور، بتضحية حياته.

بعد سرد هذه الحكاية قلت: إن هذه الحكاية تتعلق بقطعة أرض، حيث نبتت حشائش وأشجار نافعة مريحة ومروّحة، وتتعلق بأهمية شجرة واحدة، تأثيرها على حياة فرد، أُخرجت من الحديقة فدخلت حيّةٌ لدغت صاحب الحديقة وكلّفت حياته، ولكن بلدنا الهند بلد عظيم واسع مترامي الأطراف، وفي حديقته الواسعة ثلاثة أشجار تتوقف على بقائها حياة الملايين، إذا اُقتُلعت هذه الأشجار الثلاثة، دخلت ثلاث حيات كبيرة سامّة باعتبار مساحة هذا البلد وباعتبار سَعَة الحديقة، إحداها اللاعنف (Non Violince)، والثانية العلمانية (Seculairam)، والشجرة الثالثة هي الديمقراطية (Democraey).

فإذا اقتلعت شجرة اللاعنف، دخل ثعبان عنيف فاغراً فاه، وعمَّ في الهند كلها القتل وسفك الدماء، والتدمير، والوحشية، والبربرية. . اعتدى إنسان على إنسان مواطن ومجاور له، واعتدت طائفة على طائفة تعيش معها منذ زمن بعيد، وعاملتها معاملة الوحشية والقسوة، التي لا يوجد لها مثيل في حياة الغابة بين الوحوش الضواري والسباع والبهائم، إلا نادراً.

إننا لم نسمع أبداً، ولعلكم أيضاً لم تسمعوا أن ذئاب غابة أغارت على ذئاب غابة أخرى مجتمعة، أو كلاب حيّ من أحياء المدينة زحفت إلى كلاب حيّ آخر وجرت بينهما حرب أدّت إلى مصرع عدد وإصابة عدد كبير منها؛ ولكن في هذه البلاد التي عُرفت بحبّها للإنسان، واحترامها للإنسانية، وذاع صيتها في ذلك، وعُرِفت بتصور اللاعنف، والأمن والسلام في العالم كلّه ـ تحدُثُ حيناً بعد حين حوادث تُسيء إلى سُمعتها، وتُلصق وصمة عارٍ على جبينها، وتشوّه تاريخها، وتجبر الزُّوار للبلدان الأخرى على الخجل، وتنكس رؤوسهم أمام المواطنين في البلدان الأخرى.

إني أقول لكم بصراحة: إني التقيت برئيس الوزراء المستر «نرسمها راؤ»، في ٩/ يناير ١٩٩٣م، في دلهي، وكنت قد تلقّيت في نفس الفترة دعوة من رابطة العالم الإسلامي كعضو للمجلس التأسيسي لها لحضوري دورتها السّنوية، وقد اتُّخذت الترتيبات اللازمة للسفر، ولكني اعتذرت خوفاً من أن يذكر أحد في مجلس من المجالس أو في لقاء من اللقاءات حادث ٦/ ديسمبر (هدم المسجد البابري)، وما تعاقب بعده من اضطرابات طائفية دموية؛ ولو وجّه إليّ سؤال عن ذلك فبماذا أجيب؟ هل أكذب؟ لا، لا قدّر الله ذلك، هل أحكي الحكاية بالصدق؟ وهذا أيضاً لا أستطيعه، لأنه يجلب العار لوطني، ويشوّه سمعة بلادي، ويسيء إلى كرامتها، ففضّلت عدم الذهاب إلى السعودية، وحدث مثل ذلك مرّتين أو أكثر.

ثم إن هذه الاضطرابات لا تستثني امرأة ولا طفلاً ولا شيخاً، فلا تراعى فيها حرمة النساء، ولا يرحم فيها الأطفال والضعفاء، وأكبر من ذلك أنه يُعتدى على العرائس، البريئات الشريفات، الشابات الفاضلات؛ بعنوان الجَهاز، وعدم تلبية رغبات الرجال، فيرتكب الرجال جريمة إحراقهنّ أو تسميمهن للتخلّص منهن. . إن هذا العمل جريمة وحشية لا يوجد لها نظير في البلدان الأخرى، وتفوق هذه الجريمة قسوة عادة «ستي»، التي كانت الأرملة فيها تُقدّم نفسها، لتُحرق مع زوجها المتوفّى.

كل ذلك نتيجة للتخلي عن مبدأ اللاعنف، فإن العنف طبيعته أنه لا ينحصر في دائرة محدودة، بل ينتشر ويتعدّى، ويختار طرقاً وأشكالاً مختلفة، وإذا لم يجد صيداً في الخارج اصطاد نفسه لإرواء غليله، وإطفاء نار قلبه، وقد قال شاعر عربي، وهو يبيّن حكمة صادقة:

والنـــار تـــأكـــل نفسهـــا إن لـــم تجـــد مـــا تـــأكـــلُ

فإذا وجد هذا العنف في بلد أو في أمة، فلا يتعرض له رجالُ دين آخر،

بل يتعدّى هذا العنف، ويطغى على الطوائف، والأسر، والعائلات، والضعفاء والمساكين من نفس الدين، ويصبح كل عنصر هَدفاً لعنصر آخر، وصيداً له.

هذا ما يتعلق باللاعنف (Non violence)، وهو شجرة من أشجار هذه الحديقة الغنّاء، التي اهتمّ بها المناضلون للحرّية، وغرسوها، ونمّوها، وسقوها بدمائهم، وشعروا بأهميتها، وحتى قبل الاستقلال، وعلّم ذلك علماء الأخلاق والأديان بأهمية بالغة وتأكيد كبير.

فإذا اجتُثّت هذه الشجرة من أصلها، عمَّ الفساد والدّمار، وبدأ القتل والنهب، وسفك الدماء، وهتك الأعراض، وساد الظلام والفوضى، وأصبح الإنسان يصيد الإنسان ويقتنصه، وأخشى أن يتفاقم الأمر، فيتعدى العنصر العالي على العنصر السافل، والأغنياء على الفقراء، والضباط على الموظّفين الصغار، وفئة كثيرة على فئة قليلة، ويعمّ العنف بينهما، وتحترق البلاد كلها في هذه النار.

خذوا الآن العلمانية (Secularsm)، فإن الحزب الحاكم (Ruling Pawer) يريد أن يرى هذا البلد (الذي كان موطن ديانات وثقافات، ومدنيّات، ولغات ورسوم الخط، والعلوم والفنون المختلفة، وكان مجمعاً لها، وكان يُعدّ ذلك مفخرة لها وسِمة تعرف بها) تابعاً لدين واحد، وثقافة واحدة، ولغة واحدة، وتقاليد وعادات طبقة واحدة؛ بل يريد أن يصهرها في بوتقة واحدة، وقد أعدّ لذلك منهجاً خاصّاً للتعليم، وخطّة لتغيير الخطّ، ويحاول أن يُخضع سكان البلاد جميعهم لهذا المنهج، ويبدأ العمل لصناعة التاريخ، ويؤسس قاعدة لتاريخ، تصبح من خلاله الكراهية المتبادلة صبغة دائمة.

وبهذا ينجز عملاً عجز عن إنجازه المؤرخون الإنجليز، فتجرح به مشاعر أتباع الأديان الأخرى، ورجال الأقلّيات المختلفة، فتهمهم وقاية الدين، والثقة الذاتية والهدوء الذهني، والتسلسل الديني، والثقافي والعنصري، وتشغل

بالهم، وتصرف القوى والطاقات التي كان يجب أن تصرف في خدمة البلاد، ورقيّها وازدهارها، في صيانة الأنفس ووقاية الخصائص الثقافية والعنصرية، وذلك يشكل خسراناً كبيراً لهم.

الشيء الثالث: هو الديمقراطية (Democraey)، ولا يحتاج هذا الأمر إلى إيضاح أو تفصيل، فإنه نظام قَبِلَه معظم دول العالم في العصر الحاضر، ويُعمل به في كثير من الدول، واعترف بأهميته العالم كله وطالب به، وانقضى بذلك عهد الحكم الفردي والاستبداد الذي إذا وجد في مكان فإنه يُستنكر ويندّد به ويُكافَح للقضاء عليه.

والأمر الذي أصيبت به هذه البلاد كمرض عضال، وأصبح وبالاً على المجتمع والحياة، هو الهَوَس الزائد بالمال، بل عبادته وتقديسه، فيُبذَل الجُهد للحصول على المال من أيّ طريق يمكن به الحصول عليه، وتستباح في سبيله كل الذرائع، فتعمّ الرشوة في المكاتب الرسمية، والمال هو الذي يقضي الحاجات الكبرى وتُباع أسرار البلاد، وأسهم البنوك، و به يجري كسب الانتخابات بشراء الأصوات.. وإذا كنتَ تملِك مالاً فتستطيع أن تحقق كل ما تهدف إليه؛ فأصبحت الحياة العامة وبالاً.

كانت هذه البلاد تمتاز -بصفة خاصة- بعدم الاكتراث بالمال والتعفّف عنه، وبالجرأة الخلُقية، والجرأة على قول الحق وبدون مبالاة أو خوف من سطوة أصحاب الثروة والقوّة والنفوذ، وبالتزهُّد في الحياة، وبالإيثار والتضحية، وعُرِفت بهذا التراث والتقاليد المتميّزة، ثُمّ أثراها المعلّمون الروحانيون والخلقيون والقادمون من الخارج، فزادوها تحلّياً بهذه المُثُل العليا، وقدّموا نماذج للزهد والقناعة، والإيثار والفداء، والبساطة في الحياة، بل الفقر والجوع، والمجاهدة والورع، والتُّقى والعفاف، واحتمال الأذى، والصبر على المكروه.. مما يندر وجوده في الدول الأخرى، وكانت هذه المُثُل

سِمات السُّكان القدماء لهذه البلاد، والأغلبية فيها، وبها كانوا يباهون، ويفاخرون.

ولكن الأمر قد انعكس اليوم، وانقلب كُلّياً، فأصبحت الثروة، وكسب المال، والحصول على السُّلطة.. أهم هدف من أهداف الحياة، وأصبح المال رمزاً للنجاح، وعلامة للرفعة وعلوّ الشأن، بل صار إلهاً يُعبَد ويُقدَّس، بكل معنى الكلمة.

أيُّها السادة! إذا كان يمكن لي أن أنقل إليكم أنين هذه البلاد، بشقّ الصدر، وإراقة الدموع، لفعلتُ ذلك، ولنقلت إليكم ذلك الأنين والشعور بالألم والاستغاثة، ولو كانت الأشجار والأنهار تعرف التكلّم، لقالت: إن ضمير هذه البلاد قد جُرح، وكرامتها قد وُطئت، وسمعتها قد شُوّهت، وإنها تواجه خطر الانحطاط والتردّي، والمحنة والأزمة، فليقدم النُّسّاك، والكهنة، ورجال الدين والمثقّفون، والمؤلّفون، والمعلّمون إلى الميدان، وليخرجوا لإطفاء النيران المشتعلة، وإضاءة مصابيح المحبة والأخوّة.

إنّ أنهار هذه البلاد الجارية وجبال الهيملايا الممتدّة، وكل ذرّة من ذرات هذه الأرض.. تناشد ضمائركم، أن لا تريقوا دماء الإنسان، ولا تبذروا بذور الكراهية والحقد، وأنقذوا الأطفال الصغار من اليُتم، والزوجات من أن يصبحن أرامل، إنّ الذين قادوا حركة تحرير البلاد، وحرّروها من نير العُبودية، حمَّلونا أمانة الحِفاظ على أشجار اللاعنف والتسامح والديمقراطية، وأمرونا بأن لا نمسّ هذه الأشجار بسوء.

لكننا أخفقنا في الحفاظ عليها، وفشلنا في صيانتها من الذّبول والجفاف والاقتلاع والاجتثاث، فهاجمنا شيطان العُنف والصّراع، بكل شراسته وغلظته، وتهدّدتنا نار الكراهية والعُنف بأن تشعل جميع ما نملك من التُّراث والتقاليد التي عُرفنا بها في العالم كلّه، واشتهرنا بها، وكان يُنظَر إلينا باحترام ومحبّة، وإكرام

وتقدير من أجلها، وقد نكّست رؤوسَنا في الخارج أخطاؤنا، ووصلت بنا إلى حالة لا نستطيع أن نواجه العالم الخارجي.

ولكن رغم هذه الأوضاع المتردّية لستُ بقانط ولا يائس، فإنّ قدومكم لحضور هذا الاجتماع بهذا العدد الضخم، واهتمامكم بهذا، يدلّ دليلاً واضحاً على أن ضمير هذه البلاد لم يَنَمْ كُلّياً، فضلاً عن أن يموت، وأن هذه الحالة طارئة وغير طبيعية، ولن تبقى طويلاً.. ولكن الوضع يحتاج لإصلاحه إلى بذل مجهود مثل المجهود الذي بُذل لتحرير البلاد، بل أعظم وأشدّ من ذلك المجهود».

وبعد كلمتي تحدث عدد من المحاضرين، وألقى رئيس الجلسة كبير وزراء بهار المستر (لالوبرشاد يادو) كلمته، وكان من بين الخطباء المعروفين الدكتور جكناته زاد، كبير الوزراء السابق، والمفتش العام للشرطة المستر ميكورام، والجنرال المتقاعد (ايس، كي، سنها)، والأب (بال ريكسن) قسيس الكنيسة[1]، والميجار (بلبير سنكه) كبير أمناء ولاية بهار، والأمين العام لهيئة الأحوال الشخصية الإسلامية، وقد خطب الشيخ عبد الكريم كالمعتاد، وكما كان يتوقع منه، فكانت كلمته مؤثّرة للغاية، وسمعها الحاضرون باهتمام بالغ، وأنشد الأستاذ كليم عاجز شاعر بهار المعروف قصيدة مؤثّرة بصوته الرخيم.

* * *

---

(١) عُلم أنه نقل رسائل الشيخ شرف الدين يحيى المنيري إلى اللغة الإنجليزية.

حقائق مُرَّة وأحداث مؤلمة تبعث على القلق والاهتمام

قبل أن تواصل هذه المسيرة الذاتية سفرها، وتسرد المراحل الأخرى للسفر، أرى من اللازم أن أركّز اهتمامكم على حقيقتين مرّتين مؤلمتين، وتستحقان التدبر والتفكير والبحث والدراسة، تُشاهدان على مستوى العالم الإسلامي، وتبعثان على القلق، ويتعرض لهما من جهة أخرى المجتمع الإسلامي بصفة خاصة، وهذا البلد نفسه بصفة عامة، وهما تحتاجان إلى بذل مجهود عام للسيطرة عليهما، فإنه واجب ديني وخلقي أؤديه لأهميته بقلب يملؤه الهم والكظاظة.

أ ـ حملة أمريكا على «الأصولية» و «الأصوليين»:

واجه المجتمعُ الإسلامي، والذهن الإسلامي، والعقيدة الإسلامية، في مختلف عصور التاريخ والفترات، حركات تبعث على الاضطراب والتضليل، والقلق والتشكيك، وإثارة الشبهات، والدعوات الضالة والمضلة، كان منها الاعتزال، وعقيدة خلق القرآن، والفلسفة اليونانية، ومركّب النقص إزاءها، والتعسُّف في التأويل في حقائق الدين والشريعة، وشرحها على ضوء أصولها، وفي العهد الأخير الحضارة الغربية، والفلسفة الغربية، ومركّب النقص منها، والخضوع والاستسلام لها، وتأويل القرآن الكريم والدين وشرحهما شرحاً يتلاءم معهـا، ثم اتجاهـات اللادينيـة، والإلحاد والزندقة، التي سـادت على العالم الإسلامي، وعلى المثقفين بالثقافة العصرية في عهد الاستعمار الغربي، وغلبته على النفوس.

ولكن لم يكن عنصر من هذه العناصر (رغم تأثيره وسحره المؤقت والمحدود) خطراً لوجود الإسلام وبقائه، ومؤامرة لإخراجه من الحياة، وتجريده من التأثير، وإحراز النجاح، وتحدّياً للعالم الإسلامي بأجمعه، مثلما كانت نعرة أمريكا وجُهدها، وحركتها المنظّمة المُخطّطة، والدعوة المُكثّفة لها، بعنوان «الأصولية» و«الأصوليون»، وقد تعاون معها في تدبير هذه الحركة ونسج هذه المؤامرة: الذهن اليهودي، والشعور بمركّب النقص علمياً وفكرياً ودعوياً في أمريكا وأوروبا، بالنسبة للقوة الإسلامية النامية، وخطر انتشارها في أمريكا وأوروبا نفسها، وإقبال النفوس عليها.

وأخيراً خطرُ ظهور قوة إسلامية يمثّلها العالم الإسلامي، (الذي تتغلغل في أحشاء السكان فيه عاطفية تطبيق التعاليم الإسلامية والعودة إلى الإسلام، ويحمل كفاءة لعرض نموذج ساحر للحياة)، فيصبح بذلك جبهة قوية أمام أوروبا المادية، وهذا هو الدافع الرئيسي للحملة التي تشنُّها أمريكا وأوروبا باسم مكافحة الأصولية.

وتجري دعاية مكثّفة، وحملة إعلامية مركزية عن طريق وسائل الإعلام، والترغيب والترهيب، والعلاقات السياسية العسكرية، وتبادُل الزيارات والوفود، والاجتماعات الدولية، وفوق ذلك عن طريق تخويف دول العالم الإسلامي من الطبقة التي تدعو إلى تطبيق التعاليم الإسلامية في الدول الإسلامية، وتبذُل المساعي لإحداث الذُّعر في السلطة الحاكمة والدوائر الرسمية، والمسؤولين عن الصحافة والإذاعة في تلك الدول الإسلامية، بأن هذه الطبقة المحبّة للإسلام (التي يطلق عليها مصطلح الأصوليين) إذا غلبت ونالت السيادة، ووصلت إلى مواقع النفوذ، فإن هذه الحكومات والمؤسسات الأساسية ستواجه مصيرها المحتوم، وتُحرَم من كل نوع من التأثير والسلطة، بل يصعب عليها أن تعيش في تلك الدول بحُريّة، وتضيق عليها الحياة في

بلادها التي تملك فيها زمام الأمور وتتمتّع بالسيادة المُطلقة، وتفعل ما تشاء.

ينتشر هذا التصور بسرعة فائقة، وينال الشعبية في الدول العربية والإسلامية، وقد انتبهت لهذا الخطر عدة دول من دول إفريقيا العربية، كالجزائر وتونس وليبيا، واقتحمت مصر أيضاً في هذا النضال، وتصرف الآن القوى إلى تطويق هذه الطبقة أو الجماعة، وتعطيلها والوقاية من خطرها في المستقبل كلّياً، وأن الذين تلهج ألسنتهم بالدين ويتظاهرون بالدين، ويردّدون اسمه، ويرغبون في أن يصبح المجتمع مظهراً للتعاليم الدينية، وأن يكون متحلّياً بالتعاليم الخلقية والاجتماعية والشرعية للإسلام، يطلق عليهم حيناً مصطلح المتزمّتين أو المتطرّفين، أو الرجعيّين، أو الأصوليين؛ ويلقي المسؤولون والحكام خطبهم المجلجلة في التحذير منهم، وإدانتهم، وتوجه استفتاءات واستبيانات عنهم إلى العلماء في العالم الإسلامي لإصدار الحُكم عليهم، وتنشر الجرائد المؤيدة للحكومة مقالات وتحليلات ضدّهم، وتعقد اجتماعات وندوات عنهم.

إنّ هذه المؤامرات اليهودية والصليبية التي هي أخطر للعالم الإسلامي من غارات التتار الوحشية، تحتاج إلى مجهود مؤثّر، علمي وفكري، وإعلامي وسياسي وتنظيمي وإدراي، وعلى المستوى المحلي والدولي، لأنه تمّ جلاء الإسلام من الحياة، وطُمست المبادىء والأصول، والخطوط والحدود كلها، فكيف يبقى ذلك الدين الذي يميّز بين الكفر والإيمان، والتوحيد والشرك، وحتى بين السنة والبدعة، والطاعة والمعصية، والصلاح والفساد، والصدق والكذب، والحلال والحرام؟.. والذي يقول بصراحة: ﴿... قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ..﴾ [البقرة: ٢٥٦]، والذي يطالب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ...﴾ [البقرة: ٢٠٨]، والذي يعلن

بصراحة تامة ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ . . ﴾ [آل عمران: ١٩].

إنَّ التحدي الأكبر للإسلام والمسلمين في هذا العصر، وأكبر خطر عليهم هو تلك الحركة والمؤامرة الغربية، التي أطلقت اليوم باسم «الأصولية»، ضد جميع الأديان، وخاصة (وحقيقة) ضد الإسلام.

ب ـ حركة الاضطراب الذهني، وتشويه السمعة وعدم الثقة في الشريعة الإسلامية، والقلق النفسي:

إن الحركة المنظمة التي تجري في هذه البلاد منذ عدة سنوات ماضية، لتجريد الملّة الإسلامية الهندية من خصائصها، وملامح شخصيتها الاجتماعية والملية، وثقافتها، وقطع صلتها بعقائدها المميّزة، وحرمانها من مزاياها التي سبقت تفاصيلها وشواهدها في الصفحات السابقة لهذا الكتاب، كانت تتطلّب أن تسود في هذه الملّة وحدة حال، وثقة متبادلة، بل تعاون علمي، واحترام لعلماء الدين، وقادة الملّة الإسلامية؛ ولا يوضع ما يشاع عنهم لمصالح معينة، أو لخلافات فرعية، لتجريح شخصيتهم، والإساءة إليهم، والحط من شأنهم ـ موضع الاعتبار، ولا تولى باهتمام؛ لأن هذه المعاملة تخيّب مساعيهم، وتثبط همتهم، وتُقِلُّ من قيمتهم، وتُحدث في أذهان عامة الناس، ليس بالنسبة للعلماء والقادة فحسب، بل بالنسبة للدين والشريعة: عدم الثقة، والاضطرابات الذهنية، والقلق النفسي، والفوضويّة، والأنانية؛ وقد جُرِّب ذلك في بعض الدول، وبعض عهود التاريخ، وتوجد في التاريخ شواهد كثيرة لذلك، ويتوافق ذلك مع حكم الحقيقة النفسية، ومنطق الأسباب والمسببات.

ولكن من المؤسف أن هذا الوضع ـ وهو ينذر بخطر جسيم ـ يُشاهَد في التاريخ المعاصر للهند (وخاصة في العصر الذي يبدأ منذ تقسيم البلاد)، فقد أصبح القادة المخلصون والعاملون النشيطون، والمنظّمات والمجالس، والحركات التي

لا تفيد فقط، بل إنها تلزم لهذه الملّة التي أصبحت هدفاً للاعتراضات، وتثار حولها الشبهات والمطاعن، وتستهدَف للدعاية المعاندة، وتتعرض للجرح والنقد، وفي مثل هذه الحملة للكراهية تلعب الصحافة المعترضة التي لا تشعر بالمسؤولية عند الناس ولا عند الله، دوراً رائداً، بل تسبق فيها على أصح التعبير، ونتيجة لهذه الحملة تعيش الملّة الإسلامية بكاملها في جوّ الشكوك والشبهات، وعدم الثقة، وخيبة الأمل، وتعاني من الانهزامية، وفتور الهمة، والضعف والاستكانة والإحباط، ويصبح كل قائد موضع شك، فيقول عامة الناس: من يصلح لقيادتنا؟.

ومن أمثلة هذا الموقف المهيمن، أنَّ هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية حقَّقت نصراً هائلاً في مطالبتها ومجهودها، لا يوجد له نظير في تاريخ الحركة الدينية أو المطالبة العامة في وقت قريب إلا نادراً، وذلك في ظروف طارئة ثائرة، كانت الأغلبية غير الإسلامية في الهند وقادتها، وصحافتها الإنجليزية والهندية تنظر إلى مطالبة المسلمين بالاحتفاظ بقانون أحوالهم الشخصية، ومعارضة فرض قانون مدني مُوحَّد، ومجهودهم للتعديل في القانون لإلغاء حكم المحكمة العليا، كأنها غارة من قوة خارجية على الهند، أو كأن زلزالاً عنيفاً يهزُّ البلاد، أو كأن البرق يكاد يسقط عليها.

وكُلّلت جهود هيئة الأحوال الشخصية بالنجاح النهائي، عندما وافق البرلمان الهندي، في ٥/مايو ١٩٨٦م، بأغلبية مطلقة على مشروع قانون التعديل، وغير حكم المحكمة العليا، وتحقّق بذلك ما لم يكن ليتحقّق، وكان ذلك نتيجة مباشرة وحتمية لوحدة كلمة المسلمين ووحدة صفوفهم، وتأييدهم الساحق والكامل لهذه المطالبة، والاجتماعات الحاشدة، والجولات الواسعة في طول البلاد وعرضها، وألوف من البرقيات التي أُرسلت إلى الحكومة لهذا

الغرض، وأكثر من ذلك، كان نتيجة للاستراتيجية التي اتّخذت بالذهن المفتوح، والخطّة الإيجابية للعمل، لتحقيق هذا الغرض.

ويجدر بالذكر هنا بصفة خاصّة أنّ الموافقة على هذا القانون المعدل، الذي كان تتويجاً لجهود المسلمين الإيجابية، ومنهج الحركة، وأسلوب عرض المطالبة المنطقي والعملي.. فتحت أذهان كثير من العقلاء، وخبراء القانون، والدوائر غير الإسلامية، للاعتراف بأنّ القانون الإسلامي قانون عادل وكامل.

ونورد هنا على سبيل المثال: البيان الذي أدلى به الراحل راجيف غاندي (رئيس وزراء الهند في ذلك العهد) في مقابلة أجراها المستر جورانه سوامي، رئيس تحرير الجريدة النصف شهرية الصادرة من مدراس في يناير ١٩٨٦م:

«إن القانون الإسلامي يضمن حقوق المرأة ومصالحها أكثر مما يضمنه قانوننا، وقال إنه عَلِمَ بتبادل وجهات النظر مع خبراء القانون الإسلامي، والعقلاء والعلماء، والمثقّفين بالثقافة العصرية، أنَّ حقوق المرأة يمكن أن تُضمن ضماناً كاملاً في إطار الأحوال الشخصية الإسلامية، وقال: إن المسلمين يشعرون بأن المحاكم لا تُنصف الأحوال الشخصية، وتفسرها تفسيراً خاطئاً، فلو شرحت المحاكم القانون الإسلامي شرحاً سليماً، لما كان لديهم أيّ اعتراض».

والآن قارنوا ذلك بصبر وحلم، بل بندم وخجل.. بين هذا الموقف الموفَّق، وبين ذلك الموقف الشائن الآخر.

كانت هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية تواصل حركتها الإصلاحية والبنّاءة، وقد شنّت حركة في طول البلاد وعرضها لإصلاح المجتمع الإسلامي، ولمكافحة البِدَع والعادات والتقاليد التي تسرّبت إلى الحياة الإسلامية كمطالبة الجهاز، والسرف، والبذخ، والاهتمام الزائد بالمظاهر الخلاّبة، التي تجاوزت

كل الحدود، ولم يكن يطاق في ذلك الوقت إثارة قضيّة تُحدث في المسلمين عدم الثقة في القوانين العائلية، والطلاق والنكاح، فضلاً عن إثارة الشكوك فيها في أذهان غير المسلمين، وأثارت بعض الجهات قضية الطلقة الواحدة والطلقات الثلاث، ولم تكن الأوضاع تسمح بأن تنقل هذه الحرب إلى الشوارع، وتكون حديث الصحُف، والمجلات، والاجتماعات، فإذا كانت هناك أي حاجة إلى بحث هذا الموضوع علمياً ودعوياً أو دينياً، كان المنبر المناسب لتلك المناقشة المجالس الفقهية، والندوات العلمية، أو المدارس الإسلامية، أو دُور الإفتاء، وخبراء الفقه الإسلامي.

ومن المؤسف جدّاً أن بعض الدوائر والجماعات أثارت قضية الطلاق الواحد، والطلقات الثلاث في مجلس واحد في الصحف، ومفترقات الطرق، وبدأت الصحف تنشر رسائل ومقالات بأقلام كُتّاب لم يكن عندهم علم ولا معرفة كافية لفهم الموضوع وعرضه، بل اشترك في كتابتها النساء، فلم يمرّ يوم إلا وحملت الصحف والمجلات مقالة أو رسالة في هذا الموضوع، وكانت بعض هذه الكتابات في أسلوب التهكّم والسخرية والازدراء والاعتداء، يثير الشكوك والشبهات، ويحط من شأن خبراء القانون والفقهاء في العهود الأولى لتدوين الشريعة الإسلامية في أذهان عامة الناس، ويصبح بذلك موضوعاً للمناقشة والمجادلة وإظهار اللباقة اللسانية، والخطابة.

وكانت النتيجة المخزية لهذه المجادلة، أن الصحف الهندية والإنجليزية وجدت فرصة للتدخُل في الموضوع، وتمكّنت من الاستخفاف والسخرية، والطعن في الشريعة الإسلامية، وأتيحت لها فرصة لإذلال القانون الإسلامي، والنظام الإسلامي، والشريعة الإسلامية، والإهانة والاحتقار لها، وكل من يقرأ تلك المقالات المُزرية، التي نشرتها هذه الصحف الإنجليزية والهندية في ذلك

العهد، والتعليقات التي اشتملت على التعريض والغمز واللمز، والاستهانة، والقصص التي نقلت للسخرية من عمل الطلاق لإثبات أنه فعل ظالم، وإظهار بؤس المطلّقات وشقائهن، وأن هذا العمل الذي يؤدي إلى شقاء كبير للمرأة، ويلجأ إليه المسلم عفواً، وبدون مبالاة، وللتفرّج فقط؛ من يقرأ تلك المقالات ينكس رأسه خجلاً وحياءً وكظاظة، ويثور دم الذي يغار على شريعته، ويتندّى جبينه ويتصبّبُ عرقاً.

إنَّ هذه الفرصة أتيحت بسبب الارتجالية، والعاطفية، وضيق الفكر الذي ظهر من بعض أوساطنا العلمية، ومدارسنا الفكرية.

* * *

أطول رحلة في الحياة

لقد قمت برحلات متعددة لأوروبا، وقد سبق ذكر كثير منها في الصفحات السابقة، فقد سافرت عدة مرات لحضور جلسات المركز الإسلامي في جنيف بسويسرا، ثم قمت خلالها بزيارة إنجلترا، وفرنسا، وألمانيا، وإسبانيا، وسبق ذكرها.

ثم قمت برحلة طويلة وبعيدة لأمريكا في عام ١٩٧٧م، أتيحت لي فرصة لزيارة معظم المدن الكبرى في القارة الأمريكية ومراكزها، كان منها كندا، وقد بدأت هذه الرحلة في ٢٨/ مايو ١٩٧٧م، وانتهت في ٦/ أغسطس ١٩٧٧م.

ثم تم تشكيل المركز الإسلامي المتفرّع من جامعة أكسفورد، في يوليو عام ١٩٨٣م، وعُيّنتُ رئيساً له، وقمت بالرحلة لهذا الغرض، برفقة العزيز محمد الرابع الحسني الندوي، في ٢٠ ـ ٢١/ يوليو ١٩٨٣م، ووصلت إلى لندن، ثم استمرّت هذه السلسلة، فكنت أسافر كل عام لحضور جلسات المركز الإسلامي، وقمت بزيارة للكمبرج وبلجيكا، في أكتوبر ١٩٨٥م، لحضور لجنة البحوث الإسلامية، ومنذ ذلك استمرّت زيارات لندن كُلَّ عام لحضور جلسات المركز الإسلامي.

ولكن في عام ١٩٩٣م في شهري أغسطس وسبتمبر، عندما كنت مرهقاً بالأسفار، وكانت صحتي لا تحتمل الرحلات الطويلة، ومسؤوليات كبرى، والقيام بأشغال جديدة صعبة في الظاهر، أجبرت ـ والغيب عند الله ـ على القيام بأطول وأبعد رحلة انتقلت فيها إلى بلدان مختلفة، وحضرت فيها اجتماعات عديدة وترأست بعضها، ولعل هذه الرحلة كانت أطول رحلة قمت بها في حياتي وقد غطّت ثلاث قارات: أوروبا، وأمريكا، وآسيا.

بدأت هذه الرحلة من استانبول (القسطنطينية قديماً) فلندن، فأكسفورد،

ثم شيكاغو، ونيويورك (أمريكا)، وجنيف (سويسرا)، وفي الختام الحجاز، حيث قمت بزيارة المدينة المنورة، وأدّيت العمرة في مكّة المكرّمة، فكانت هذه الرحلة مسك الختام.

وصادفت هذه الرحلة محنة، بعثت على القلق والاهتمام بالنسبة لي شخصياً، وهي إصابة بعض أقاربي في أسرتي الصغيرة بجروح أدت إلى كسور في العظام في مدة قريبة، اثنان منها في أسرتي الخاصة، فكان القيام بالسفر أثناء إصابتهما ومرضهما، وتركهما طريحي الفراش، امتحاناً واختباراً، ولكنّ الظروف والدواعي القاهرة للسفر اضطرّتنا إلى القيام بالسفر، فبدأنا السفر متوكّلين على الله، إلا أن قلبي كان مشغولاً بهما، وظللت مشغولاً بالدعاء لشفائهما.

كانت المناسبة لهذه الرحلة الطويلة، اجتماع مجلس الأمناء لرابطة الأدب الإسلامي العالمية، والمؤتمر العام لها في استانبول، في ٣/ ربيع الأول ١٤١٤هـ، الموافق ٢٠/ أغسطس ١٩٩٣م، أو ٨/ ربيع الأول ١٤١٤هـ (٢٥/ أغسطس ١٩٩٣م)، وكان قد تقرر ذلك لأسباب خاصة، وكنت مرغماً على السفر، لكوني رئيساً للرابطة، والعزيز محمد الرابع الحسني الندوي، لكونه نائب الرئيس والمسؤول عن مكتب شبه القارة الهندية، والبلدان غير العربية، ومن جهة أخرى، كان من المقرّر عقد اجتماع للمركز الإسلامي في ١ـ٢ من سبتمبر، فكان من اللازم أن أصل إلى لندن في ٢٨ـ٢٩ من أغسطس.

وبالإضافة إلى ذلك، كان من المقرر عقد اجتماع للأديان العالمية في شيكاغو (أمريكا)، في ٢٨/ أغسطس ١٩٩٣م، إلى ٥/ سبتمبر ١٩٩٣م، وقد وُجِّهت الدعوة لحضوره إلى خُبراء الأديان العالمية، ورجال الدين، والزعماء والعلماء والباحثين، ويُعقَد هذا المؤتمر بعد مئة سنة، فقد انعقد مؤتمر من هذا القبيل هنا في عام ١٨٩٣م، وحضر هذا المؤتمر زعيم الدين الهندوسي

المعروف سوامي وويكانند، وتحدّث فيه، واتُّخذت فيه إجراءات لائقة لهذا المؤتمر العظيم على المستوى الدولي، وكان الهدف الرئيسي للمؤتمر التعريف بالأديان، وإثبات فائدتها ونفعها للبشرية، وإثبات صلاحيتها لمواجهة التحدّيات المادّية الجامحة، وهي: النفس، والنفور من الدين، والإلحاد، والدهرية. . ودراسة إمكانيات تشكيل جبهة موحَّدة لمواجَهة اللاّدينية والعداء للدين، والرُّوحانية في هذا العصر[1].

تسلَّمت الدعوة لحضور هذا المؤتمر من المدير التنفيذي للمؤتمر، بعنوان ندوة العلماء (لكهنؤ)، وقد صدرت الدعوة بإمضائه في ٥/ أغسطس ١٩٩٣م، وجاء في الدعوة أنَّ حوالي أربعة آلاف مندوب من الأديان المختلفة، يُتوقَّع أن يحضروا هذا المؤتمر، وقد نُظِّم ٧٥٠ بحثاً، ومعملاً، وندوة، وبرنامجاً ثقافياً، وستنال مداولات المؤتمر ونتائج البحث فيه تغطية إعلامية عالميّة النطاق.

كنت على معرفة سابقة بنتائج مثل هذه المؤتمرات، التي تُعقد بدون رعاية شخص مؤيَّد من الله، أو جماعة تشتمل على المخلصين، وكنت أخشى كذلك أن تكون وراء هذا المؤتمر حكومة أمريكا، ترعى هذا المؤتمر لمحو العار الذي لحق بها بمحاربتها «الأصولية» في الدوائر الدينية، ودعايتها ضد القِيَم والمثُل الخلقية، وتصدّيها لها، الذي ورّث في الدوائر الدينية النفور والكراهية لها.

أو يعقد هذا المؤتمر بإيعاز منها، فلم أكن منشرح القلب لحضور المؤتمر، لأني لم أكن متأكّداً بأن تُتاح لي فرصة كاملة للتعبير عن وجهة نظري بحريّة، وأستفيد من هذا المؤتمر، الذي يضم شخصيّات مختلفة لها زوايا

---

(١) مقتبس من نشرة المؤتمر (The parliament of the world Rebigurns lehieage) U.S.A.

فكرية مختلفة، وماذا يكون موقفي في هذه المسابقة الدينية الصاخبة، فكنت في غاية من التردّد، ولم أفكّر في القيام بهذه الرحلة الطويلة الشاقة جدّياً، إلا أنّ أحد أقرب معارفي وثِقاتي ورفاقي الدكتور أحمد عبد الحي، أحد أشهر أطباء بتنة بهار، أرسل برقيات ورسائل متتالية وأصرَّ على حضوري، وألحَّ عليَّ، وأبدى اتجاهه القلبي له، وكان من بواعث إصراره أن السيد حامد عبد الحي الذي يقطن في شيكاغو كطبيب خبير في أمراض القلب، كان من المتعاونين من المسلمين لهذا المؤتمر، وكان أيضاً يعقد آمالاً طيّبة لهذا المؤتمر، ويريد أن يكون للإسلام تمثيلٌ لائق، ولذلك كان يرغب في أن أشترك فيه، وأمثّل الإسلام.

وازداد هذا الطلب وقَوِي، فلم يعد لي مجال لأرفض طلب الدكتور أحمد عبد الحي، الذي تقوم بيني وبينه صلة قوية، وقد جرَّبتُ حفاوته وإكرامه البالغ لي خلال إقامتي في بتنه، والذي كان من عناصر النجاح والتوفيق لمؤتمر إصلاح المجتمع الإسلامي، في ١٩٩٢م، ثم مؤتمر (رسالة الإنسانية) عام ١٩٩٣م، فوعدته بحضور المؤتمر بتوفيق الله؛ وهيَّأ لي ولمرافقي العزيز محمد الرابع الحسني الندوي تسهيلات السفر، عن طريق شقيقه في شيكاغو، فأُدخل هذا البرنامج أيضاً في برنامج رحلتي.

وكان من الطبيعي أن يُضَمَّ إلى رحلة شيكاغو، رحلة نيويورك، لأنَّ مرافقي في مثل هذه الرحلات الأخ المحب محمد عثمان، حامل الجنسية الأمريكية يقطن نيويورك، ومنزله الشخصي فيها، يسكن فيه أعضاء أسرته، وهو مهندس في الخطوط السعودية، وكانت له رغبةٌ قويّةٌ منذ زمن بعيد أن أقضي بعض الوقت في منزله، وأبدى هذه الرغبة بل الأُمنيّة عدّة مرات، وكان قد قدم لمرافقتي في هذا السفر خصّيصاً من المملكة العربية السعودية، ليرافقني من دلهي، ويهيّئ لي جميع التسهيلات، ووسائل الراحة في السفر، بالإضافة

إلى مخلصين ومحبّين آخرين كانوا في نيويورك، وكان يمكن أن تعقد هناك عدة اجتماعـات لإلقاء محاضـرات دعويـة؛ واشتمل برنامج السفر رحلة نيويورك أيضاً، وكان السفر من لندن إلى شيكاغو يتطلّب المرور بنيويورك، لأنَّ شيكاغو تقع غربها، فكان من الأسهل اختيار طريق نيويورك.

وكان التوجُّه في العودة من نيويورك إلى الحجاز، وإنهاء السفر بإقامة وجيزة به، أمراً طبيعياً، واقتضاءً شعورياً عاطفياً ودينياً، فأدخل برنامج زيارة الحجاز في هذا البرنامج، ولم يكن خط مباشر من نيويورك إلى جدّة، وكان يلزم التعريج على جنيف، ومن جنيف إلى جدّة، فدخلت جنيف بطبيعة الحال؛ وكان من بواعث اختيار جنيف، لقاء الصديق القديم والعزيز الدكتور سعيد رمضان المصري (صهر الإمام حسن البنا الشهيد، مؤسس حركة الإخوان المسلمين) مؤسس المركز الإسلامي بجنيف، فقد انقضت مدة طويلة ولم نلتقِ.

وإلى القرّاء الآن تفاصيل هذه الرحلة:

من دلهي إلى استنبول

غادرتُ دلهي في ١٩/ أغسطس ١٩٩٣م، في الساعة العاشرة صباحاً إلى دبيّ، لأنَّه لم يكن هناك خطٌّ مباشر من دلهي إلى استنبول، وكان يرافقني في هذه الرحلة في طريقي إلى استنبول العزيزان: محمد الرابع، ومحمد واضح رشيد الندوي (أستاذ الأدب العربي في دار العلوم ندوة العلماء ورئيس تحرير صحيفة الرائد)، والعزيز سعيد الأعظمي الندوي (عميد كلية اللغة العربية لندوة العلماء ورئيس تحرير مجلة «البعث الإسلامي»)، وكلاهما من أعضاء مجلس الأمناء لرابطة الأدب الإسلامي العالمية، والأخ الكريم محمد عثمان المهندس الحيدرآبادي.

وصلنا إلى مطار دُبيّ الدُّولي في الظهيرة، وكان في استقبالنا عدد كبير من أعيان دُبيّ والشارقة، والعاملين في مجال الدّعوة الإسلامية، والمعنيّين بالشؤون الدينية، وحَمَلة الفكر والاتّجاه الإسلامي؛ وفي مقدّمتهم وعلى رأسهم الشيخ عبد الله الغُرير، والشيخ سالم بن علي المحمود، والشيخ سعيد أحمد لوتاه، وعدد من الأصدقاء والمحبين من الهنود العاملين في الإمارات، وكان من بينهم سعيد نوائط، ومحمد إسماعيل، ومولوي عبد العزيز، والمقري عبد الحميد الندوي، وكان حاكم الشارقة سموّ الشيخ سلطان بن محمد القاسمي، الذي يقوم بيني وبينه صلة قوية، في زيارة لأوروبا في تلك الأيام، وكذلك الشيخ سيف الغُرير الذي كان خارج البلاد في تلك الفترة، وتغدّينا في منزل الشيخ عمر، الذي كان يشغل منصباً كبيراً في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في أبو ظبي، وكان قد اهتمّ فيه اهتماماً بالغاً.

أدهشني خلال هذه الزيارة بَريق مدنيّة هذه البلاد التي تكررت زياراتي لها، لا شك أنها قطعت أشواطاً بعيدة من الرقيّ والتقدّم في مدة قصيرة، وتطوّرت تطوّراً حضارياً كبيراً، حتى أصبحت كمدينة من مدن أوروبا؛ لكن بالنسبة لي شخصياً ولمن يعرف مكانة الجزيرة العربية، ويعرف رسالتها ويعرف دورها القيادي، وإسعافها للإنسانية البائسة، ويقوم بالدعوة والإرشاد ـ لا يبعث على السرور والارتياح بَريق مدينة إسلامية، وشموخ مبانيها، ووفرة وسائل الحياة الراقية، وآثار البذخ، والكماليات فيها، وإنما يبعث على القلق والاهتمام، والخوف من العواقب.

كانت إقامتنا في دُبيّ ثلاث ساعات، من الساعة الواحدة إلى الساعة الرابعة، استرحنا فيها في دار ضيافة الشيخ عبد الله الغُرير، وتوجّهنا إلى مطار الشارقة للسفر إلى استنبول في الساعة الخامسة، ووصلنا إلى استنبول في الساعة التاسعة، حسب توقيتها المحلي، وعلى المطار استقبلتنا مجموعة تضم عدداً كبيراً من المسؤولين في رابطة الأدب الإسلامي، والعلماء والدُّعاة الأتراك ومنظّمي هذا المؤتمر.

ونزلنا بفندق سلطان في حي «لالي لي»، وغَمَرني السرور حينما علمتُ أنّ زميلي القديم السيد محمد ناظم النّدوي قد وصل أيضا إلى استنبول لحضور هذا المؤتمر، ويقيم الآن في الفندق الذي أقُيم فيه، فالتقينا، فوجدته ضعيفاً نحيلاً، لكنّه رغم ذلك كله احتمل متاعب هذا السفر الطويل. وسأحكي الذكريات القديمة التي تجدّدت من هذا اللقاء، في الصفحات الآتية، ومن حسن الحظّ كان اليوم التالي يوم الجمعة، فأدّينا صلاة الجمعة في جامع السلطان محمد الفاتح، وكان المسجد مكتظّاً بالمصلين، وكانوا جميعاً مشغولين إما بتلاوة القرآن الكريم، وإما بصلوات النوافل، وكان بعضهم جالسين في أماكنهم بهدوء وصَمت حسب عادتهم المعروفة، وقرأنا الفاتحة

على قبر السلطان محمد الفاتح، الذي كان يجاور المسجد بعدما انتهينا من الصلاة، ودعونا له.

وفي اليوم التَّالي في ٢٠/ أغسطس عُقِدَ اجتماع مجلس الأمناء لرابطة الأدب الإسلامي، واستغرق هذا الاجتماع يومين، ثم عُقِدَت جلسة الهيئة العامّة لرابطة الأدب الإسلامي العالمية في ٢٢/ أغسطس، واستمرّت إلى ٢٥/ أغسطس، وعُقدت الجلسة الثانية لمجلس الأمناء لرابطة الأدب الإسلامي العالمية في ٢٦ ـ ٢٧/ أغسطس.

وكان موضوع المؤتمر (تقريب المفاهيم لقضايا الأدب الإسلامي)، ويدلُّ على نجاح هذا المؤتمر قدوم عدد كبير من الأدباء والكتَّاب والباحثين الذين كانوا يُمَثّلون دولاً مختلفة بعيدة، وقد بلغ عددهم ثلاثة وأربعين مندوباً، وكان منهم عشرة مندوبين من مصر، وثلاثة من سورية، وعشرة من السعودية، وخمسة من الأردن، ومندوبان من الكُويت، حضر ـ بجانب هؤلاء الضيوف القادمين من الدّول العربية المختلفة ـ عدد كبير من إخواننا الأتراك المهتمين، بالأدب الإسلامي، ومراسلو الصُّحُف العربية والتركية ووكالات الأنباء، كان منهم من يفهم اللغة العربية ومنهم من يستفيد من الترجمة التركية.

وأقمنا جميعاً في فندق (سلطان)، وكان ممن شارك في هذا المؤتمر من الهند الأستاذ ضياء الحسن الندوي (رئيس قسم اللغة العربية بالجامعة الملّية الإسلامية، وعضو رابطة الأدب الإسلامي)، وكان قد قدّم في هذا المؤتمر بحثاً نال إعجاباً وتقديراً من المستمعين.

الجلسةُ الأولى للهيئة العامة لرابطة الأدب الإسلامي:

عُقِدَ اجتماع مجلس الأمناء في قاعة المحاضرات لفندق سلطان، في ٣/ ربيع الأول١٤١٤هـ، الموافق ٢٠/ أغسطس ١٩٩٣م، وكانت القاعة

تغصُّ بالحاضرين والمستمعين، فبدأت الجلسة بتلاوة آي من الذّكر الحكيم.

ثم أَلقيتُ كلمتي كرئيس لهذه الجلسة، وافتتحتُها بأبيات للدكتور محمد إقبال، لأنها تمثّل الأدب الإسلامي تمثيلاً صادقاً، وتلقي على موضوع رابطَة الأدب الإسلامي العالمية ضوءاً كاملاً، وتشرح أهدافها، وتبيّن أهمّيتها وضرورتها.

أنشدتُ هذه الأبيات أولاً بالأردية، بحماس ولحن إلى حدّ ما، ثم ترجمتُها إلى اللّغة العربية، وهي كما يلي:

« ياأهل الذوق والنظّر العميق! أنعم وأكرم بنظركم، ولكن أي قيمة للنظر الذي لا يدرك الحقيقة، لا خير في نشيد شاعر، ولا في صوت مغنّ، إذا لم يفيضا على المجتمع الحياة والحماس».

ويقول: «لا بارك الله في نسيم السَّحر إذا لم تستفد منه الحديقة إلا الفتور والخمول، والذوي والذبول، إن غاية الإحسان في فنّ من فنون العلم والأدب، لوعةُ الحياة الدائمة. . ما قيمة شرارة تلهتب سريعاً وتنطفئ سريعاً؟، وما قيمةُ لؤلؤة كريمة أو صدفة لامعة لا تُحِدث اضطراباً في الأمواج، ولا اضطراباً في البحار؟. . لا نهضة للأُمم إلا بمعجزة، ولا خير في أدب ولا شعر إذا تجرَّدا عن تأثير عصا موسى».

ثم قلت في ضوء هذه الأبيات المُوجَّهَة للأدب: إن ميزة الأدب الكبرى وقوته الحقيقية، هي أنه يؤثر في النفوس والقلوب، ويغيّر الاتّجاهات والميول، ويُحدِث الانقلاب في الأخلاق والعمل والتفكير، ولذلك يستطيع أن يكون أداة تدمير أو بناء، أداة خير أو شرّ، أداة إصلاح أو إفساد، ويمكن أن يستعمل في تحقيق الأهداف النبيلة السامية، أو للوصول إلى الغايات الرذيلة الرديئة، فلذلك ينبغي أن لا تغمض عنه العين، ولا يصرف عنه البصر؛ وشوهدت نماذج هذين الصّنفين من الأدب في كل عصر. . إنه يستطيع أن ينشئ

المجتمعات، ويؤسس الحكومات، فلا بد أن يوجه إلى اتجاه سليم، ويخضع لمنهج صحيح،(كتابـة، وخطابـة، وشـعراً، ونثراً)، ولا يعتبر مجرد وسيلة للتّسـلية والمتعـة، وأداةً لإرضـاء النفـس، وإثـارة شـوارد الفكر، ودافعاً إلى مخالفة القِيمَ والمُثُل، وإنما يتّخذ أداة للإصلاح والتنمية، والتُّقَى والعَفاف، والحِلم والصّبر، والتوجيه والإرشاد[1].

وألقى الأستاذ محمد قطب كلمة أعضاء الشرف، فتحدّث بالتفصيل عن الانحرافات والمتاهات التي وقع فيها المسلمون منذ عهد الاستعمار في السّياسة والاقتصاد، والعقيدة، والاجتماع، والفكر؛ ووصف هذا الانحراف بالتيه الذي ضلّ فيه المسلمون عن جادتهم، واتبعوا مناهج متفرّقة لا تتناسب مع التصور الإسلامي، فلم تغنهم هذه المناهج والأفكار، والحمد لله على أن المسلمين بدؤوا يعودون إلى المجرى الحقيقي، ويعمّهم الشعور بأن لجوءهم إلى المناهج والمذاهب الأخرى لم يكسبهم السَّعادة والنجاح، وذكر بصفة خاصة اتّباع الأدباء المسلمين لمذاهب الأدب الغربية، فبلغ تقليدهم لأوروبا إلى حدّ أن أحد الأدباء كتب أدباً لا معقولياً، لكيلا يقال: إنَّ الأدب العربي لا يوجد فيه الأدب اللا معقول.

وأشاد الأستاذ محمد قطب بتأسيس رابطة الأدب الإسلامي، التي تقوم بتوجيه مسار الأدب، وأبدى سروره بالالتقاء بهذه النخبة الطيّبة من الكُتّاب والأدباء والشعراء الإسلاميين.

وعقد جلسة مجلس الأمناء لرابطة الأدب الإسلامي العالميّين، في قاعة فندق سلطان في ٢٠ـ٢١/ أغسطس، ثم عقدت جلسة الهيئة العامة لرابطة الأدب الإسلامي في الفترة ما بين ٢٢ـ٢٥/ أغسطس، ثم عقدت الجلسة

---

(١) راجع كتاب نظرات في الأدب، طبعة دار البشير، عمّان، و«دور إقبال في توجيه الأدب والشعر».

الثانية لمجلس الأمناء في ٢٦ـ٢٧/ أغسطس، وشارك العزيز محمد الرابع الحسني الندوي في هذه الجلسات كلها بالمداومة، وكنت أتمتع خلال هذه الفترات بصحبة زميلي الأستاذ محمد ناظم الندوي، وكان يأتي إلى غرفتي، ويقضي معي ساعتين أو ثلاث ساعات، ونسترسل في الكلام، ونستعرض ذكريات، وكانت هذه المجالس وُدّية وعلميّة وأدبية.

لقد قضينا أربع عشرة سنة (من ١٩٣٤ إلى ١٩٤٨م) معاً عندما كنّا من أعضاء هيئة التدريس في ندوة العلماء، وقضى الأستاذ محمد ناظم خلال هذه المدة فترة قصيرة كعميد لهذه الدار، وانضمّ أيضاً إلى هيئة التدريس في الجامعة الإسلامية بدابهيل، في ولاية غجرات، لمدة قصيرة.

فكنّا كلّما جلسنا انفتحت أوراق ذلك الكتاب الذي يضمُّ الذكريات التي تمتدُّ إلى أربع عشرة سنة، وتتجدّد ذكريات ذلك العهد الذي قضيناه معاً، نتبادل فيه وجهات النظر، ونتبادل الموضوعات العلمية والأدبية والسياسية بالحديث والبحث، ونتحدث حول الحركات القومية، والحركات الدعوية والإصلاحية، والاتجاهات الحديثة في العالم الإسلامي، ونُبدي فيها آراءنا، ونتغنى بأبيات الدكتور محمد إقبال، ونشرحها، ونتمتّع بها، ونعلّق على الأدباء والكتّاب العرب، ونتناول مؤلفاتهم بالبحث والنقد.

وبعدما انتهينا من أعمال الجلسات المختلفة لهذا المؤتمر، عقدَت أمسية شعرية، حسب العادة المتّبعة لمؤتمر رابطة الأدب الإسلامي بقرب بحيرة في غابة بلغراد، التي كان جوّها جميلاً هادئاً، ومنظرها بهيجاً رائعاً، أنشد فيها عدد من الشعراء قصائدهم حول الموضوعات الإسلامية، كان في مقدّمتهم الدكتور محمد التهامي، والدكتور جابر قميحة، والدكتور عبد الرحمن صالح العشماوي، وشاعر طيبة الشيخ ضياء الدين الصّابوني، والأستاذ علي نار، وآخرون، وحضرت أنا هذه الأمسية الشعرية واستمعتُ إلى القصائد، وأبديت

ارتياحي وسروري بهذا المجلس الكريم، وختم المجلس بالدعاء.

ثم أَلقيت كلمتي في الجلسة الختامية للمؤتمر، وقلت فيها: «إنّ من معجزات الإسلام الباهرة، ومن دلائل عالميّة اللغة العربية الكبرى، أن يُعقَد مؤتمر رابطة الأدب الإسلامي العالمية، الذي يدور حول موضوع دراسة الأدب العربي في مدينة ليست اللغة العربية فيها لغة النطق والتفاهم، ويرأسه رجل وُلد في الهند ونشأ بها ودرس، وينطق باللغة الأردية».

وانتهزت هذه الفرصة، وقلت: إنه ينبغي أن يقدّم أعضاء هذه الرابطة، والمشاركون في هذه الندوة العالمية نماذج علمية للسيرة الإسلامية المثالية، تجذب القلوب، وتلفت الأنظار، وتدعو إلى دراسة الإسلام، وتُفنِّد الأباطيل التي تشاع حوله، بالإضافة إلى ما يقومون به من أعمال أدبية، وما يقدِّمونه من إنجازات لغوية إسلامية، (كتابة وخطابة).

أتيحت لنا فرصة خلال هذه الفترة التي دامت ثمانية أيام لزيارة المنطقة الشرقية المتصلة باستنبول مرتين، أولاً تلبيةً لدعوة أحد أصدقائنا الأعزّاء، ومترجم مؤلفاتي إلى اللغة التركية، الأستاذ يوسف قره جه، (الذي تعلَّمَ اللغة الأردية وأتقنها خلال فترة دراسته في ندوة العلماء لكهنؤ وقد نقل فعلاً أكثر من عشرة كتب لي)، وتعشَّينا في منزله، ثم عدنا إلى المنطقة الأوروبية بعد العشاء. وفي المرة الثانية ذهبنا إلى منطقة تقع بجانب بوسفور، حيث يقع منزل الأستاذ حسن كامل ايلماز، وتعرف هذه المنطقة «بوائي كوئي». وكانت هذه الرحلة بصحبة أحد أقدم أصدقائنا الشيخ أمين سراج، الذي تعرفنا عليه خلال فترة إقامتي بمصر عام ١٩٥١م، ودامت هذه المعرفة وتوثَّقت بمرِّ الأيام، وصلَّينا المغرب في هذا المكان الجميل المطلّ على البحر، وكان المنظر جميلاً، وكانت السفن البحرية تمّر أمامنا بل تحتنا، لأنّ المنزل كان على تلّ مرتفع، تحيط به حدائق جميلة، وكان الجوُّ هادئاً رزيناً، ثم تعشَّينا، وكان في

الضيوف أربعة عشر تركياً، والشيخ محمد ناظم الندوي، والمرافقون لي في هذه الرّحلة، ثم عُدنا إلى المنطقة الأوروبية لاستنبول، في فندق سلطان.

كان من أهم البرامج وأنفعها، والذي يعتبر فرصة نادرة، وحصيلة السفر إلى تركيا، الاجتماع العام الذي انعقد في قاعة في وسط استنبول، أَلقيتُ فيه محاضرة دعوية خالصة، وقد ألهمني الله ووفقني، فتدفّقَتْ في ذهني المعاني، ويمكن أن توصف هذه الخطبة بأنها ملهمة من الله.

افتتحت حديثي بالآية القرآنية: ﴿.. وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقلت: إنني كلما أقرأ هذه الآية ينتقل ذهني إلى الشعب التركي المسلم، وأستحضر كأنَّ الله سُبحانه وتعالى يخاطب الجيل الجديد من الأتراك، ويقول: إن ما كنتم تملكونه من الثروة الإيمانية، وما تظاهر به آباؤكم وأجدادكم من الحميّة الدينية، وما قدَّموه من التضحيات الجسيمة للدفاع عن الإسلام، وما بذلوه من جهود جبّارة للحفاظ على المقدسات الإسلامية، كالحرمين الشريفين والقدس الشريف، وما أوقعوه من رُعب وهيبة في نفوس أعداء الإسلام في أوروبا، فلا تذهب سُدىً هذه الأمجاد والمآثر، والبطولات والتضحيات، ولا يحرم هذا الجيل الجديد، أبناء هؤلاء المناضلين والمجاهدين عن الإسلام، لأن الله بالناس لرؤوف رحيم.

وإذا قال أحد: إنه مضى على انقراض الدولة العثمانية وزوال معالم الإسلام في هذه البلاد وتمزق الوحدة الإسلامية، وانقطاع صلة الشعب التركي عن ماضيه حضارياً وثقافياً، وحال بينه وبين عهد الإسلام فترة طويلة لا تقلُّ عن مئة سنة، فكيف يمكن في هذه الظروف أن يعاد ذلك العهد، وإلى متى تراعى تلك الأمجاد والبطولات، التي لم يرتبط بها الشعب التركي الآن إلا عنصرياً وتاريخياً، فردّ الله سبحانه وتعالى على ذلك بحكاية قصة موسى وخضر عليهما السلام، في سورة الكهف، فقال:

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ. . . ﴾ [الكهف: ٧٧].

فأقبل خضر عليه السلام على هذا الجدار، وجعل يشيده ويحكمه، رغم ما واجهه من معاملة قاسية جافية منكرة من أهل هذه القرية، فأعرب سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام عن استعجابه، وقال له: كيف اعتنيت بهذا الجدار الذي كان يملكه رجال لم يضيفوك، ولِمَ لم تتّخذ عليه أجراً نسدُّ به حاجتنا أو نشتري به طعاماً؟ فأجاب خضر عليه السلام على ذلك وَبيَّنَ سبب إقباله على بنائه فقال: ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ. . . ﴾ [الكهف: ٨٢].

فإذا سقط هذا الجدار يبرز ذلك الكنز الخفي ويطَّلعُ عليه الناس، ويأخذونه بالباطل، ولا يجد الغلامان اليتيمان شيئاً منه، فأراد الله تعالى أن لا يحرمهما من هذا الكنز، الذي وضعه أبوهما تحت الجدار، وذلك لأنَّ أباهما كان صالحاً.

فحكى الله سبحانه وتعالى هذه القصة، ولم يحكها للتسلية، ولا لقيمتها التاريخية، ولا لمكانتها الروائية، وإنما حكاها لنا لأنها تدل على التعاليم الإلهية، والسيرة النبوية، ومعرفة فضل الإنسان وإحسانه، ولو كان هذا الفضل والإحسان يرجع زمنه إلى تاريخ قديم.

فإذا اعتنى الله سبحانه وتعالى بهذا الجدار من أجل رجل صالح، فكيف لا يعتني بالشعب التركي الذي لم يكن أب من آبائه، بل مئات وآلاف من الآباء كانوا أصحاب غَيرة إيمانية، وحماسة إسلامية وشجاعة نادرة، وكانوا حُماةً للخلافة الإسلامية التي ورثوها عن بني العباس كابراً عن كابر، وحملة راية

الإسلام إلى قرون طويلة، وقاموا بصيانة عزّ المسلمين وكرامتهم، والحفاظ على مُقدَّساتهم، وكانوا يملكون صلاحية للقيادة البشرية، وإسعاف الإنسانية البائسة المنكوبة.

فقصَّ الله سبحانه وتعالى قصة موسى وخضر عليهما السلام هذه، لكيلا نيأس من رحمة الله، ولا نقنط من إعادة المجد الغابر، والعقيدة الماضية، والقِيَم والموازين، والمُثُل والأقدار التي كانت تسود هذه البلاد قبل قرون، وأوضح بحكاية هذه القصة أنّ الأعمال الصالحة التي قام بها الآباء والأجداد في عهودهم لا تذهب سُدىً، بل ينتفع بها أولادهم وأحفادهم، وهذا أمر لا يبعث على الدهشة والاستعجاب.

ثم قلت: إنه إذا سأل أحد أنه كيف تخضرُّ شجرة الإسلام التي ذبلت وذَوَتْ؟، وكيف تقوى هذه الصلة التي تُنسَج لها مؤامرات دقيقة متتالية، وتعاني من هجوم عنيف مستمر. . فقصّ الله سبحانه وتعالى للردّ على ذلك قصة أخرى، وهي قصة عزير عليه السلام، فقال:

﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

فإذا كان اللحم لا يتسنّى، وأعاده الله تعالى إلى الحياة واللذة، وأعاد هذا الحمار إلى الحياة، فكيف لا يعيد الإسلام إلى الحياة، هل قيمة الإسلام عند الله أقلُّ من الزاد الذي كان يحمله هذا النبي، ومن الحمار الذي يركبه؟! أبداً، إن الإسلام هو الدين الأخير الخالد، تتوقَّف عليه سعادة البشرية، ومستقبل الجيل الجديد، ولا يستقيم أمر العالم إلا به.

يستفاد من هذه القصة أيضاً أنه لا ينبغي أن ييأس المسلم من عودة الحياة إلى أمة أو دين، مهما تكاثفت المؤامرات، وتفاقمت الأحداث، ومرّ الزمن، وبعُد عهد المجد، إن الله يحيي الأرض بعد موتها، فلا يحرم أبناء الأمة التركية المسلمة الباسلة ـ التي تحمل تاريخاً حافلاً بالأمجاد والبطولات، وتتميَّز بالعاطفة الدينية والحميّة الإسلامية ـ من الإيمان، ومن إتاحة الفرص لخدمة الإسلام، ففي هذه الآيات القرآنية درس لنا وعبرة وراحة وطمأنينة.

ثم قلت: لكن هذا الأمر يحتاج إلى جهود طبقاً للقانون الإلهي والتعليمات الإسلامية، فيجب عليكم أن تغاروا على الإسلام، وتعتنوا بالتعاليم الإسلامية، وتنشئوا في بيوتكم جوّاً دينيا، وعقائديّاً وعملياً، وخلقياً، يسود هذه البيوت؛ وتُعلّموا أولادكم أهمية العقيدة الإسلامية، وتُلقّنوهم السّيرة النبوية، وسِيَر الصحابة، وتؤسسوا مدارس وكتاتيب دينية حرة، وأدخلوا فيها موادَّ دينية، وتحكوا لهم حكايات الأتقياء والصالحين والمجاهدين والمناضلين.

وذكرت في هذا الصدد الجهود التي يبذلها المسلمون في الهند لتربية أبنائهم تربية دينية، والخطوات التي يتّخذونها لصيانتهم من الاندماج في الشعب الهندوكي، ثقافياً وحضارياً ولغوياً.

وذكرت أيضاً بهذه المناسبة علاقة الشعب الهندي المسلم بالخلافة العثمانية، وتحمُّسهم لها، وأنشدت البيت الذي كان يُنشَد في الأسواق، وفي المناسبات العائلية، والحفلات الدينية، وكان أشهر عندها من «قِفَا نَبْكِ»، وهو بيت الشاعر على لسان أم الزعيم محمد علي، يقول:

«أيها الابن العزيز كن فداءً بنفسك وروحك لحماية الخلافة العثمانية».

وذكرت أنّ الحركة التي هبَّت في الهند، وكانت كعاصفة هوجاء لحماية الخلافة العثمانية، كان لها فضل كبير في الهند حتى في حركة تحرير البلاد، وفي طرد الإنجليز، والقضاء على الحكم الأجنبي، في شبه القارة الهندية.

وأنشدت أيضاً بهذه المناسبة بيتاً للعلاّمة شبلي النعماني، الذي زار تركيا، وأكرمه السلطان عبد الحميد خان بمنح جائزة، وذلك لمّا ابتُلِيت الخلافة هناك، فنظم قصيدة، وجاء إلى لكهنؤ، وقام يُنشد هذه القصيدة التي من أبياتها:

«إنّ انقراض الخلافة العثمانية، انقراض مجد الأمة وشرفها، فيا أبنائي وأعزائي! إلى متى تفكرون في عائلاتكم وأسركم وفيما يخصّكم ويخصُّ عائلاتكم، اعتنوا بحماية الخلافة العثمانية أكثر من اهتمامكم بأولادكم وصحتكم وحياتكم وشرفكم».

وكان ٢٦/ أغسطس يوم الجمعة، فأدّينا صلاة الجمعة في جامع السلطان سليمان القانوني، وهو من أكبر المساجد في تركيا كما يُعتَقَد، وكان يسوده جوّ هادئ رزين مثل ما كان يسود جامع السلطان محمد الفاتح.

وسعدنا كذلك بزيارة قبر سيدنا أبي أيّوب الأنصاري، الذي كان يقع على طرف من ثغر قسطنطينية الحاضرة.

وقرأت الفاتحة على قبره، وعلى لسان العلامة شبلي النعماني، على قبر مضيف مضيف العالم.

خمسةُ أيّام في لندن

غادرت إلى لندن في ٢٨/ أغسطس، للمشاركة في الجلسة الإدارية لمركز أوكسفورد للدّراسات الإسلامية، وتوجه العزيز محمد واضح رشيد الندوي والعزيز سعيد الأعظمي الندوي، والعزيز ضياء الحسن الندوي إلى الحجاز لأداء العمرة والزيارة، وكان قد تقرَّر أن يعودوا من الحجاز إلى الهند مباشرة، وكنتُ قد غادرتُ استنبول إلى لندن وقت الظهر، لكن وصلت إلى مطار لندن قبل العصر، وذلك لأنّ السفر كان من الشرق إلى الغرب، فكان في المطار لاستقبالنا المؤرخ الشهير البروفيسور خليق أحمد النظامي، والعزيز الدكتور فرحان أحمد النظامي، والعزيزان مسرور أحمد ومحمد أكرم الندوي، وتوجَّهت مع العزيز الدكتور فرحان أحمد النظامي إلى أوكسفورد التي تقع على بُعد خمسين ميلاً من لندن.

وأقمنا في أوكسفورد بمنزل العزيز الدكتور فرحان أحمد النظامي، حيث كان يقيم أبوه البروفيسور خليق أحمد النظامي من قبل، وكان من المُقرَّر أن تُعقَد الجلسة الإدارية لمركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية في ١-٢/ سبتمبر، فقضينا ثلاثة أيّام في منزل العزيز فرحان أحمد النظامي، تمتّعنا خلالها بصحبة البروفيسور خليق أحمد النظامي، واستفدت منها كثيراً، ووجدته معجباً بالجزء الخامس لكتابي رجال الفكر والدعوة، الذي يختصُّ بحياة الشاه وليّ الله الدهلوي، وكان لا يخلو مجلس من ذكره لهذا الكتاب، وإعجابه به، وهو يعتبر هذا الكتاب مصدراً موثوقاً به لهذا الموضوع.

وسنحت لي وللعزيز محمد الرابع الحسني الندوي فرصة لمُشاهدة

نشاطات المركز، وأعماله وإنجازاته خلال هذين اليومين، وسُرِرتُ كثيراً بالتعرُّف على هذه النشاطات العلمية، فكانت تجري هناك أعمال إعداد خريطة تاريخية ثقافية للعالم الإسلامي، بالإضافة إلى تدوين كتاب يشتمل على اثني عشر جزءاً حول موضوع تاريخ الإسلام، على مستوى عالٍ، وكان قد وزّع هذا العمل على خُبَراء التاريخ الإسلامي، وكذلك قد بدأت أعمال إعداد قائمة للمخطوطات الإسلامية النادرة التي توجد في مكتبة هذا المركز.

سررت جداً لمّا علمت أن كتاب نزهة الخواطر «الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام»، لوالدي السيد عبد الحي الحسني رحمه الله، قد نقل إلى الحاسوب (الكمبيوتر)، ويسهل الآن معرفة أي مكان أو ترجمة عن طريق الحاسوب، وهناك مشروع لنقل الكتاب إلى الإنجليزية.

انعقدت الجلسة الإدارية للمركز في ١ ـ ٢/ سبتمبر، وشارك فيها معالي الدكتور عبد الله عمر نصيف (الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي سابقاً، ونائب رئيس مجلس الشورى في المملكة العربية السعودية حالياً)، والباحث الإسلامي الكبير الدكتور يوسف القرضاوي، عميد كلية الشريعة بجامعة قطر، ومعالي الشيخ عبد العزيز وزير التعليم في دولة بروناي كممثّل لبلاده، وعضو للمركز.

إنني رحّبت بالمشاركين في هذه الجلسة بالعربية أولاً، وشكرت الله سبحانه وتعالى أنه منحني هذه الفرصة للحضور في هذه الجلسة وللتحدّث فيها، ثم فوّضت مسؤوليتي الرياسية إلى الدكتور عبد الله عمر نصيف بالإنجليزية، لإدارة هذه الجلسة، لأن أعمالها تجري باللغة الإنجليزية، فهو يقدر عليها، ويتقنها أكثر مني.

وكان مشروع إنشاء معهد علمي تذكاري، على مقربة من قبر الإمام البخاري رحمه الله تعالى في أزبكستان تحت الدراسة منذ أمد بعيد، فتقرر أن

تُوَجَّهَ الدعوةُ إلى العلماء والكتّاب الذين يتمكّنون من إلقاء الضوء على مآثر الإمام البخاري العلمية، ومكانته، وخدماته في فن الحديث، وعُيّن لعقد هذا المؤتمر الأسبوع الأخير لشهر أكتوبر، وقد تمَّ التوصُّل إلى معاهدة بين رئيس جمهورية أزبكستان وبين المسؤولين عن المركز، تنفذها حكومة أزبكستان.

انتهت هذه الجلسة التي كانت عُقدت في ٢/ سبتمبر، في فندق ريندلف (Randolf Hotel)، وتغذَّينا في الفندق نفسه، وودّعنا جميع الضيوف.

وفي مساء ٢/ سبتمبر جاء العزيز عطاء الله بسيارته، وانتقلنا بها من أوكسفورد إلى منزل العزيز مسرور في لندن، وأدّينا صلاة الجمعة في اليوم التالي في مسجد كبير كان تحت البناء (North London Mosque)، وألقيتُ كلمة في هذا المسجد قبل صلاة الجمعة، وعدنا إلى مقرّنا بعد الصلاة مباشرة، ومكثنا برهة، وصلينا العصر، وتوجّهنا إلى نيويورك قبل غروب الشمس، وكان قد هيّأ العزيز محمد عثمان المهندس التسهيلات اللازمة، وحجز المقاعد الأمامية للدرجة الأولى في الطائرة، ووصلنا إلى نيويورك بعد العشاء، على الرغم من أنّ السفر استغرق سبع ساعات، والتقينا هنا بأبناء أستاذي عبد السميع الثلاثة، وهم الدكتور أحمد مطيع الصديقي، والأستاذ فصيح أحمد الصديقي، والدكتور رضى أحمد الصديقي، وابن الشيخ هداية حسين المسؤول عن القسم المالي في ندوة العلماء: الأستاذ ساجد حسين)، وابن الصحفي الكبير الشيخ أمين سلونوى: الدكتور عرفان أمين، وغيرهم من الأصدقاء والزملاء الهنود؛ وبتنا الليلة في منزل العزيز محمد عثمان الذي يقع في (Hang gsland)، وغادرنا إلى شيكاغو في ٤/ سبتمبر في اليوم التالي.

في شيكاغو

إنّ مدينة شيكاغو هي أكبر مدينة من مدن أمريكا، أو المدينة الثانية الكبرى لها، باعتبار سُكّانها ومساحة أرضها، وشموخ مبانيها، ويبلغ عدد المسلمين فيها مئتين وخمسين ألفاً؛ وعندما زرت أمريكا في عام ١٩٧٧م، بناءً على دعوة من اتّحاد الطلبة المسلمين، وللعملية الجراحية في العين، وامتدّت الإقامة إلى شهرين، زرتُ شيكاغو ثلاث مرات، وفي المرة الثالثة كنت ضيفاً على السيد عظمة الله القادري الحيدرآبادي، المهندس المدني في شيكاغو، واستغرقت هذه الزيارة عشرِة أيام، وفي هذه المرة أيضاً عندما علم بنيّتي لزيارة أمريكا، اتَّصَل بي هاتفيّاً، وأصرَّ على أن أقيم بمنزله، ثمَّ سأل العزيز محمد الرابع الندوي عن نظامي، ووظائفي اليومية، وما أرغب فيه من أنواع الطعام، وما لا أستطيع أن أتناوله للظروف الصحيّة، ونظراً لاهتمامه بهذا الموضوع، وحرصه الشديد على الاستضافة قرَّرتُ الإقامة بمنزله في شيكاغو.

كان من المقرر أن تغادر الطائرة نيويورك إلى شيكاغو، في الساعة السابعة أو الثامنة صباحا، ولكن فوجئت بإلغاء الرحلة، فاخترت مطاراً آخر في نيويورك للسفر إلى شيكاغو برحلة أخرى، وكان يلزم أن أخبر المستقبلين في مطار شيكاغو بتغيير الرحلة، ولكن لم يتيسَّر لي ذلك لظروف خاصة، فأخبر الأستاذ محمد عثمان المهندس هاتفياً خلال الطيران من الطائرة نفسها، وعلمت لأول مرة هذا النظام الجديد، وهو الاتّصال هاتفياً من الطائرة أثناء الطيران.

وصلنا إلى شيكاغو في الساعة التاسعة أو العاشرة، وكان على المطار الدكتور أحمد عبد الحيّ وشقيقه حامد عبد الحيّ، والسيد عظمة الله القادري،

وكان ذلك اليوم الرابع من سبتمبر، وهو آخر يوم لمؤتمر الأديان، ولم يكن بالإمكان أن أشترك في الجلسة الختامية، إلا أني علمت أن مقالتي التي أرسلت مكتوبة على الآلة الكاتبة بالإنجليزية، وكان عنوانها: «منّة رسول الإسلام ودينه الذي أتى به على الإنسانية، ومآثر عهده والثورات الحادثة به، قد وُزّعت على المشتركين، ونشر القسط الأول لهذا المقال في العدد الأخير في المجلة الإسلامية الصادرة من شيكاغو(Muslim Jaurnal) .

ولعدم تمكُّني من الاشتراك في الجلسات الأولى للمؤتمر، وإلقاء الكلمة فيها، رغب الأخ الفاضل الدكتور أحمد عبد الحي وأصحابه الذين كانوا يُمثّلون المسلمين، في أن أشترك في الجلسة الختامية الخاصّة بالكلمات الوداعية، والدعـاء، وأن أتحدّث في الكلمـة الختاميـة للدعـاء عن الإسـلام والدعوة الإسلامية مع المسؤولين عن المؤتمر وأقنعهم بذلك، فأدرج ذلك البرنامج في جدول الأعمال.

ولكني كنت في تَردُّد شديد، في مسألة إلقاء الكلمة والدعاء في الجلسة الأخيرة، لأني كنت أخشى أن أسمع وأشاهد في هذه الجلسة ما لا يرضى به ضميري ولا ذوقي، ثم إني كنت أخشى أن بعض كبار قادة الأديان الأخرى «كدُلائي لاما» سيقودون جلسة الدعاء.

ولكن إصرار الأحبة، وقولهم بأنّ هذا السفر من أجل الاشتراك في المؤتمر، والناس يتوقعون ذلك، وأنهم تحملوا مصاريف السفر، فإن لم أشترك في هذا المؤتمر كُليّا، فإنه يُثير تساؤلات في النفوس فقبلتُ الدعوة مكرهاً.

ووصلت بعد العصر إلى محل انعقاد المؤتمر الذي كان يبعد عن محل إقامتي مع رفيقي، فلمّا وصلتُ رأيت أن الناس يذكرون جهرياً، ويُسبِّحون بلغة غير مفهومة، ولم أكن على ثقة بأنهم يسبحون لله، أو لأيّ إله آخر، وشاهدت

من بعيد أن عدد النساء أكثر من عدد الرجال، فاستوحشتُ كثيراً، وشعرت بالاشمئزاز بهذا المنظر، وخشيتُ أن أشاهد ما هو أنكرُ من هذا، وأسمع ما هو أسوأ مما أسمع.

وكان الدكتور أحمد عبد الحي قد أخبر المسؤولين عن قدومي المنصّة، ووافق المسؤولون على دعائي وكلمتي الختامية، وتقدم قسيس مسيحي كبير لاستقبالي، ولكن أبت نفسي، ولم ترضَ بالاشتراك بأي حال من الأحوال، وأردت أن أخبر الدكتور أحمد عبد الحي بذلك، ولكن لم أستطع الوصول إليه، وكان من الصعب الحصول على سيارة تاكسي في ذلك المحل، ولكن من حسن الحظ هيأ الله لي سيارة، كان سائقها شاباً أردنياً مسلماً، فأخذنا التاكسي ووصلنا إلى مقرّنا.

وكنت أخشى أن الدكتور أحمد عبد الحي ربما يشعر بخيبة أمل، أو ينكر هذا الموقف مني، فقلت للعزيز محمد الرابع الندوي في الصباح أن يقيم اتصالاً بالدكتور أحمد عبد الحي، ويعرف ما هو شعوره، فاتَّصل به هاتفياً، وجعل يتحدّث معه، فأخذت السماعة منه، وتكلمت معه مباشرة للاعتذار، ولكن فاجأني بقوله: إن عدم الاشتراك كان أفضل، وأن هذا القرار كان ملهماً، ومن توفيق الله تعالى، فإنّ الجلسة كانت اشتملت على برامج الرقص والغناء أيضاً، فلو كنا حاضرين في الجلسة لكان من بواعث العار والخزي لي، وشكرت الله على ذلك، وقلت: «ولكنّ الله سلّم».

وعلمت من معارفي ومن الشواهد الأخرى خلال إقامتي بشيكاغو التي دامت ثلاثة أيّام، أن هذا المؤتمر العالمي للأديان، كان بمثابة مطارحة شعرية، ينشد فيها كل شاعر قصيدة في مدح ديانته، ولم يكن هناك أي حرص أو رغبة في البحث عن طريق الحق، ولا عزيمة أو إرادة لمكافحة الفساد والاضطراب، والماديّة الطاغية، واتّباع هوى النفس، ولم أعرف من تحدّث من المسلمين،

وماذا كان أثره على المستمعين، وعلى أساس هذه المعلومات والتقديرات لم يؤسفني عدم الاشتراك في هذا المؤتمر كثيراً.

في الخامس من سبتمبر كان من المقرّر عقد اجتماع إسلامي باسم دولة الأمة، في قاعة كلية «مالكم ايكس»، فاشتركت في هذا المؤتمر وقرأت مقالتي التي كانت حول مساوئ الحضارة الغربية، ونقدها وإظهار اليأس منها، واعتُبر هذا المقال، وفرصة التعبير عن تصوراتي في هذا المؤتمر: حصيلة رحلة شيكاغو[1].

انعقد في اليوم نفسه قبل المغرب، اجتماع في القاعة نفسها، وكانت القاعة الواسعة مُكتظّة، وكان عليَّ أن أرأس الاجتماع، وقام الشيخ عبدالله سليم بتعريفي، وتقديمي، وكان الدكتور أحمد عبد الحي مقرر الاجتماع، فقرأت في هذا الاجتماع مقالي الطويل بالأردية، لأن معظم المستمعين كانوا من الهند وباكستان. وكان عنوانه: «رسالة هامة إلى المقيمين في ديار الغرب من الشباب المسلمين»، وذكرت في المقال كيف يمكنهم أن يستفيدوا من الإقامة في أوروبا وأمريكا، وكيف يمكنهم أن يُفيدوا، وكيف يمكنهم أن يمثّلوا الإسلام تمثيلاً صادقاً، ويحدثوا في المواطنين - بسلوكهم وتعاملهم وأقوالهم، ومنهج حياتهم - الشعورَ بالخطر المحدق بهم، الذي يترتّب عليهم، من الحضارة الغربية، والذي يعمّ في المجتمع الأوروبي، وسمع الجميع هذا المقال باهتمام ورغبة.

توجهت إلى مركز التبليغ في السادس من سبتمبر، حيث تقع دار تحفيظ القرآن، وألقيت كلمة مناسبة للوضع والحال.

---

(١) كان هذا المقال مُهمّاً وقويّاً، كنت أعددت لإلقائه في المركز الإسلامي بأكسفورد عام ١٩٨٣م أمام نخبة من رجال العلم والتعليم بعنوان: «الإسلام والغرب»، وقرأت ترجمة المقال بالإنجليزية في قاعة الامتحانات لجامعة أكسفورد في ٢٢/ يوليو.

التقيت خلال إقامتي بشيكاغو ببعض المُحبّين والأصدقاء، والأساتذة القدامى، الذين حضروا للاشتراك في المؤتمر، كان في مقدمتهم الدكتور السيد سلمان النّدوي (نجل العلاّمة السيد سليمان الندوي)، والدكتور حبيب الحق الندوي، والدكتور مُزمّل حسين الصديقي الندوي الذي يشتغل بالدعوة والتعليم في كاليفورنيا، والدكتور أسرار أحمد خان، قائد حركة إسلامية معروفة في باكستان، وأُتيحت لي فرصة تبادل وجهات النظر معهم، إضافة إلى الدكتور إسماعيل مرجنت، الذي كان من أقرب المسترشدين والثقات للشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، وكان يمارس مهنة الطب منذ مدة طويلة في المدينة المنوّرة، وقد أنشأ مدرسة في بوفالو (Boffalo)، ويشرف عليها الآن، وله صلة دائمة بي، وقد وصل إلى شيكاغو عندما علم بقدومي، وأقام معي في منزل السيد القادري.

في نيويورك

كان يلزم أن نتوجَّه من شيكاغو إلى نيويورك مرة ثانية، ثم نتوجه إلى الحجاز، وكنا لم نقضِ هناك إلا ليلة واحدة، وكانت مركزية هذه المدينة، ومطالبة المحبين والأصدقاء الملحَّة فيها تقتضي أن أمدّد إقامتي بها، وقد كان الأخ الكريم محمد عثمان الذي رافقني في هذه الرحلة، وهيأ لي كل وسائل الراحة، يحرص على أن أقضي بعض الوقت في منزله بنيويورك.

فتوجهنا إلى نيويورك في ٦/ سبتمبر وقت العصر، ووصلنا إليها في السّاعة التاسعة ليلاً، وتعشَّينا في منزل الأخ الكريم محمد عثمان، الذي يقع في منطقة «آئي ليند» (aong Island) في ضاحية من ضواحي مدينة نيويورك، وبتنا الليلة هناك، وتغدَّينا في اليوم التالي في منزل الدكتور أحمد مطيع الصديقي ابن الأستاذ محمد سميع الصديقي (أستاذ اللغة الإنجليزية في ندوة العلماء سابقاً)، مع أشقّائه وعدد من الأصدقاء والمحبّين، واسترحنا قليلاً في منزله.

ألقيت كلمة في اجتماع عام عُقد في مسجد يُعرف بمسجد «مكّي» في نيويورك مساء ٧/ سبتمبر بعد صلاة المغرب، وكان قد نظّم هذا الاجتماع السيد ساجد حسين. دعوت فيها المسلمين الذين يقطنون في أمريكا إلى أن يمثّلوا الإسلام في هذه البلاد تمثيلاً جديراً به، ويقدِّموا نموذجاً كاملاً للإسلام، من العقيدة، والعمل، والمدَنية، والحضارة، والسّلوك والتعامل؛ وأشرت عليهم أن يقضوا في هذه البلاد حياة تميّزهم عن غيرهم، وتلفِت نظر المواطنين إلى الإسلام، وتدفعهم إلى دراسة مصادره الأصيلة من الكتاب والسُنّة، وتسوقهم إلى الاعتراف بمزايا الدّين الحنيف وسماته الرئيسية، وصلاحيته لقيادة البشرية،

وإسعافه للإنسانية المضطَهدَه المكلومة، وما يتميّز به المسلمون من الصّدق، والعفاف، وصفاء القلب، وطهارة البدن، وإنجاز الوعد، وغضّ البصر، والعدل والمساواة، والرحمة والرقة، حتى ينكشف الغِطاء عن وجه الإسلام اللاّمع، ويبتدر الناس إلى اعتناقه.

وتعشَّينا في منزل الأستاذ ساجد حسين بعدما انتهت هذه الحفلة، ووجدتُ في منزله معظم مؤلفاتي بالأردية والإنجليزية، وعلمت أن هذه الكتب تنتقل من يد إلى يد وتطالع.

قضيت اليوم الثامن من شهر سبتمبر في نيويورك ثم غادرت إلى جدة، وعلمنا أنه ليس هناك خط مباشر من نيويورك إلى جدة، فلا بد من التعريج على جنيف، حيث نقضي أربع ساعات في المطار لتغيير الطائرة، فخطر ببال العزيز محمد الرابع الندوي أن الدكتور سعيد رمضان يقطن في جنيف، وكان من أقرب أصدقائي من العرب، وكان يعد من كبار الدعاة والخطباء، وكان صهر الشيخ حسن البنا (مؤسس حركة الإخوان المسلمين)، وممثلاً كبيراً لحركته، وداعياً متحمّساً لها.

قام بإنشاء مركز إسلامي في جنيف، لتربية الشباب الذين يقطنون في أوروبا وأمريكا، وتوجيههم في ضوء الكتاب والسنة، وكان من أعضاء هذا المركز الشيخ أحمد الأنصاري من باكستان، والكاتب الشهير الدكتور حميد الله من فرنسا، وغيرهما من الكتَّاب والدعاة، والخبراء الإسلاميين، وكان يصدر هذا المركز مجلة إسلامية، كان اسمها «المسلمون»، وكنت أيضا من المساهمين فيها بالبحوث والمقالات، وانقضت فترة طويلة دون أن نلتقي، فرأيت من الواجب أن أخبره بقدومي إلى بلده، فاتّصلتُ به على الهاتف، ووصل إلى المطار قبل موعد هبوط الطائرة، وكان معه ابنان له، وقابلني بحفاوة بالغة وحماس كبير، وبعواطف ودّية

دعوية، ورأيت بوادر الشيخوخة تلوح على وجهه، ووجدت عينيه تنطقان بالكآبة التي يعاني منها، والتجربة المريرة القاسية التي مَرَّ بها في حياته.

ومما يؤسف له أنه لا يستطيع أن يعود إلى مصر، ولم تبقَ أيضاً علاقته بالسعودية، رغم أنه كان من مؤسسي رابطة العالم الإسلامي، ومن أهم أعضائها؛ ولم نتمكّن من معرفة أعماله وأشغاله في هذا اللقاء القصير الذي يسوده الألم والحزن ، ولم يجرِ الحديثُ حول مركزه الإسلامي، ونشاطاته وإنجازاته.

في الحجاز

كنت قرَّرتُ في أمريكا وأوروبا ـ نظراً لتدهور صحتي، والبرد القارس الذي يقع في هذه المنطقة ـ أن أتوجّه أولاً إلى المدينة المنورة، وألبس الإحرام هناك، وأنوي للعمرة بدلاً من الإحرام في أوروبا، فأقلعت الطائرة بنا من مطار نيويورك وقت الظهر، وهبطت على مطار جّدة وقت المغرب، وآلمني ما رأيت في هذه الطائرة المتجهة إلى المدينة المنورة أن معظم ركَّابها إما كانوا سائحين مسيحيين وإما كانوا عاملين في الحجاز من غير المسلمين، وإما كانوا أناساً لا يبدو من أزيائهم، وسلوكهم، وتعاملهم، وتكلُّمهم ما هو دينهم وعقيدتهم، وكان عدد النساء فيهم كثيراً، وهُنّ سافرات، ولم أجد من بين ركَّاب هذه الطائرة إلا ثلاثة أو أربعة رجال تشهد ملامح وجوههم، وملابسهم وسلوكهم، أنهم مسلمون، وأنا أعتقد أنهم كانوا ينتمون إلى مصر.

وصلنا إلى مطار جدّة، واستغرقت إجراءات جواز الدخول والتأشيرة وقتاً طويلاً، فلما انتهينا من هذه الإجراءات، خرجنا من المطار، واستقبَلَنَا مضيفنا القديم الذي يستضيفني دائما خلال زيارتي لمدينة جدّة، وهو الشيخ محمد نور عبد الغني نور ولي، وأخوه محمد ولي عبد الله نور ولي، وأبناؤهما البررة، فركبنا السيارة وتوجهنا إلى منزله، حيث أدّينا صلاة المغرب والعشاء، وتعشّينا ونمنا، وكان الشيخ محمد نور قد حجز التذاكر الثلاث لي وللعزيز محمد الرابع الندوي، وللأخ الكريم حسن طارق العسكري، للسفر إلى المدينة المنوَّرة بالطائرة التي تقلع في الصباح.

وكان اليوم التالي يوم الجمعة، فاغتسلنا وأحرمنا ثم غادرنا إلى المدينة

المنورة، ووصلنا إليها في الساعة العاشرة، وأدّينا صلاة الجمعة في المسجد النبوي الشريف، وكان قد خصَّ لنا الشيخ محمد نور طابقاً في المبنى الذي يقع على مقربة من المسجد النبوي في وسط السوق، ويتكوّن هذا الطابق من ثلاث غرف مكيّفة، وحمّامَين، وتتوفر فيه تسهيلات أخرى، وكان الأخ السيد حسن طارق العسكري (المهندس في قسم الهاتف) يأتي بالطعام لنا من منزله كعادته.

إن أكبر مشكلة أعاني منها خلال إقامتي بالمدينة المنورة هي أنني لا أستطيع أن أمشي على الأقدام بسبب ما أعانيه من مرض النقرس، لكن الله سبحانه وتعالى قد سهّل لي هذا الأمر، وحصل الأخ الكريم عبد الرشيد (أحد كبار المهندسين المدنيين الذي يشتغل الآن في أعمال توسعة المسجد النّبوي) على رخصة المرور ليذهب بسيارته إلى باب السلام، فكان يأتي هو نفسه أو سائقه إلى مقرّي، ويوصلني إلى باب المسجد النبوي في سيارته.

من عادتي أن أؤدّي صلاة المغرب والعشاء في المسجد النبوي الشريف، وأصلي على النبي ﷺ، وأسلّم عليه، ولا أتمكن من الحضور في الصلوات الأخرى في المسجد النبوي إلا في بعض الأحيان، من أجل ما أعانيه من ضعف وعجز، وصعوبة في المشي والجلوس طويلاً، وحينما أحضر إلى المسجد النبوي تجري على لساني هذه البيات التي قالها الدكتور محمد لإقبال، وأنا أتغنّى بها:

بيا إلى هم نفس باهم بناليم   من وتوكشته شان جماليم
دو حرفي بر مراد دل بكَويم   بيائي خواجه جشما را بماليم

كنت قررت بمناسبة زيارتي للمدينة المنورة أن لا أخرج من مقرّي إلا للذهاب إلى المسجد النبوي وذلك لسببين، أولهما أن الغيرة على هذه المدينة الطيبة، ومكانتها كانت تمنعني من ذلك، وثانيهما أني كنت عضواً للمجلس الاستشاري للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وسنحت لي فرص كثيرة

لإلقاء المحاضرات في هذه المدينة المباركة، ووفَّقَني الله تعالى للإقامة في هذه البلدة الحبيبة إقامة طويلة، وتعرَّفت خلالها على أساتذة الجامعة، وعلماء المدينة، وأدبائها ودعاتها وأعيانها، وقامت العلاقة بيني وبينهم وتوثَّقَت بمرور الزمن، فخشيت أنني إذا توجهت إلى أحد من الأصدقاء والمعارف، ولم أتمكّن من زيارة زميل آخر، فسيشعر به، ويشتكي منه، فلذلك قررت أن لا أزور صديقاً ولا أذهب إلى بيت زميل.

ولم يعرف معارفي عادةً نبأ قدومي، وكيف يمكن أن يعلموا؟، فإنني لم أشترك في حفلة، ولم يُنشَر خبر وصولي في صحيفة، ولم نلتقِ بأحد من المسؤولين عن الحكومة، ولم أُدلِ ببيان صحفيّ تغطّيه الصحف، فلذلك لم يستطع بعض أخصّ زملائي الذين تقوم بيني وبينهم صلة قوّية أن يأتوا إليّ، إلا فضيلة الشيخ صالح الحُصيّن، عضو رابطة العالم الإسلامي، ومن أعيان المدينة المنوَّرة، ومن معارفي القدماء، وهو يقدّر مؤلفاتي، ويقوم بطبعها ونشرها، ويهتمّ بشؤون ندوة العلماء، فقد علم بقدومي في الطائرة التي كان يسافر بها الأخ علي أحمد الندوي من الرياض إلى المدينة المنورة للقائي، فجاء إليّ في اليوم الذي كنت أتأهّب فيه للسفر إلى مكة المكرمة، وقابلني بحفاوة بالغة، وإخلاص تام، والثاني الدكتور عبد الله زائد (نائب رئيس الجامعة الإسلامية سابقاً)، الذي كان يمتاز بتيقظه، وسعة نظره، وسلامة فكره، وكانت بيني وبينه صلة وثيقة قديمة، وكان قد أتاح لي فرصاً كثيرة لإلقاء المحاضرات في الجامعة الإسلامية، فرآني في المسجد النبوي الشريف، فأتى إلى مقرّي، ولقيني، وجلس معي طويلاً، والثالث كان رجلاً متخصصاً في الحديث الشريف، وكان هؤلاء الثلاثة بالإضافة إلى الأستاذ (فِ عبد الرحيم)، والأخ أجمل الإصلاحي الندوي، اللذين كانا يأتيان إلى مقرّي كلَّ يوم، ويقضيان معي وقتاً طويلاً، وتكون هذه المجالس ممتعة ومفيدة.

توجَّهتُ إلى مكّة بنية العمرة في ١٣/ سبتمبر في يوم الإثنين مع الأخ الكريم محمد عثمان، وكان معنا أيضا الأخ طارق حسن العسكري، وهو دائماً يساعدني في أمور الطواف والسعي، والأمور الأخرى التي تتعلق بالعمرة، ويهيّئ التسهيلات اللازمة.

ونزلنا كالعادة في منزل الدكتور عبدالله عباس الندوي، الذي يقع على شارع منصور، واعتمرنا في نفس اليوم في الصَّباح على الأقدام، رغمَ ضعف صحتي وعجزي عن المشي، ولكن الله سهّل لي، وسعينا على الكُرسي، وحضرنا المدرسة الصولتية بعدما انتهينا من العمرة، وقمنا بزيارة أبناء الشيخ شميم رحمه الله لعزائه، ومكثنا هناك بُرهة، ثم عدنا إلى مقرّنا رأساً.

كان يجب عليَّ أن أعزّي بهذه المناسبة زميلاً قديماً، ومحباً كريماً كان قد رافقني في رحلة طويلة تشتمل على دول مختلفة من أفغاستان وإيران وسورية، وهو الأستاذ أحمد محمد جمال (عضو المجلس الاستشاري للمملكة العربية السعودية، وأستاذ الثقافة الإسلامية في جامعة الملك عبد العزيز بجدّة، والكاتب الشهير في الموضوعات الإسلامية والدعوية، الذي كان يشترك في المؤتمرات الدولية ويمثل فيها المملكة العربية السعودية)، لكن لم يتيسَّر لي ذلك بسبب أشغالي وضعفي ومرضي، وأنا متأسف على ذلك، وقد سنحت لي خلال إقامتي بمكَّة المكرمة فرصة لزيارة الكاتب الإسلامي الكبير والأديب الأريب، الشيخ علي الطنطاوي، الذي يسكن في حي العزيزية، وصار الآن ملازماً بيته، وعجزَ عن المشي والتنقل، أنا أعتبره أكبر كاتب وأقدر أديب في هذا العصر، قد قدّم لكثير من مؤلفاتي[1]، فكان قد بلغه نبأ قدومي إلى مكة المكرمة، وكان يشتاق إلى لقائي، وينتظرني منذ ذلك اليوم.

---

(١) المسلمون في الهند، في مسيرة الحياة، الطريق إلى المدينة، مختارات من أدب العرب.

التقى كلٌّ منا بحفاوة بالغة وحماس كبير، وأَعرَب عما في قلبه من حُبّ وإخلاص، وجرى الحديث خلال هذا اللقاء حولَ أمور مختلفة.

وتوجَّهت أيضا إلى منزل الأخ الكريم الدكتور عبد الرحمن نشاط على دعوة منه، وتعشَّينا في منزله، وكان من المقرر أن أقضي الليلة في منزله، ولكن تغيّر هذا البرنامج، ورجعنا إلى مقرّنا.

لم ينتشر خبر وجودي في مكّة المُكرّمة مثل المدينة المنورة، ولم يعلم حتى الزملاء الذين كانت بيني وبينهم صلة قديمة، وكانوا يشرّفونني دائماً بقدومهم، إلا الزميلين الموقّرين، وهما الشيخ محمد ناصر العبودي (الأمين العام المساعد لرابطة العالم الإسلامي)، والأخ الكريم محمد حافظ (مدير إدارة الصحافة والنشر في رابطة العالم الإسلامي)، فوصلا إلى منزل الدكتور عبد الله عباس الندوي، وكان من عادة الدكتور عبد الله عباس الندوي أن يقيم حفلة عشاء بمناسبة زيارتي لمكة المكرمة، ويدعو إليها عدداً كبيراً من العلماء والدّعاة والمعارف والأصدقاء، وأعيان مكة ووجهائها، وهكذا يتيح لي فرصة للاجتماع بهذه النخبة المختارة، والتحدُّث معها حول قضايا المسلمين الراهنة، لكن لم تسنح لي فرصة للتمتع والاستفادة من هذه الصفوة الطيبة في هذه الرحلة، لأن الدكتور عبد الله عباس الندوي كان في الهند خلال هذه الفترة.

ولا يمكن أن أنسى ما بذله الأخ الكريم عبد اللطيف الجونفوري من جهود لإراحة بالي خلال إقامتي بمكة المكرمة، كان يأتي بسيارته قبل موعد كل صلاة ويوصلني إلى المسجد الحرام، ثم يرجعني إلى مقرّي، وهكذا يفعل كل يوم.

أما أبناء الدكتور عبد الله عباس الندوي، وأفراد أسرته وعائلته الذين يقيمون في جدة والطائف، فهم في غنى عن الشكر والثناء، إنهم لم يألوا جهداً في توفير الراحة، وإثبات أسباب سعادتهم وتواضعهم، وكان في مقدمتهم العزيز طه عبد الله الندوي.

وطفت في ١٧/ سبتمبر طواف الوداع، ورجعت مع العزيز ضياء عبد الله إلى جدة بسيارته، وقضيت هناك ليلة، توجهت خلالها إلى منزل العزيز السيّد مصباح النبي (ابن أخي)، وقضيت وقتاً بين أسرته، وفي العودة اجتمع عدد كبير من المودّعين في منزل الشيخ محمد نور وألقيتُ كلمة في هذه المناسبة، على دعوة من الشيخ محمد نور، استرعيت فيها انتباههم إلى المسؤولية التي تقع على كواهلهم، بسبب إقامتهم بهذا البلد الأمين، ولفتُّ أنظارهم إلى أهمية رعاية آدابها، ومقتضياتها، وجلب منافعها التي هي غاية كل مسلم.

غادرت إلى دلهي صباح ١٨/ سبتمبر، ووصلت إليها عند المغرب، وكان في المطار الدكتور عبد الله عباس الندوي، والأخ نياز أحمد، وغيرهما من المحبّين والمخلصين، فتوجهت إلى منزل الدكتور عبد الله عباس الندوي الذي يقع في حيّ«اوكهلا» بدلهي الجديدة، وقضيت هناك يوماً، والتقيت بأقاربي الذين يقيمون بها، ورجعنا إلى لكهنؤ في ١٨/ سبتمبر بقطار الليل، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

* * *

التعبير السليم عن فكر المؤلف وتجربته

بعد أن انتهيت من عرض أهم أحداث أطول رحلة في حياتي، كانت اشتملت على ثلاث قارات، وبعدما ذكرت زيارة الحرمين الشريفين، كمسك الختام لهذه الرحلة الطويلة، أقدم فيما يلي رسالة لأحد الأصدقاء، قدّم فيها الكاتب خلاصة جيدة وعصارة لفكر هذا الكاتب، وتجاربه، ودراساته، وهذه الرسالة كتبها الأخ الكريم سهيل أحمد، نزيل أمريكا، وذكر فيها ما جرى في أحد مجالس شيكاغو التي تحدَّثتُ فيها، وأعربت عن آرائي وأفكاري، وتجدر هذه الرسالة بأن تُعرَضَ على القُرّاء، لأنَّها تشتمل على عرض سليم لأفكاري، وتصوّراتي ودراساتي؛

يقول الكاتب في رسالته:

سعدت بحضور أحد مجالس الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي، في ٢٥/ ربيع الأول ١٤١٤هـ، في شيكاغو، وكان ممن حضر هذه المجالس الدكتور محمد إسماعيل ميمن (أحد مسترشدي الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي المحدّث)، والدكتور مزمّل الصديقي من كاليفورنيا، وفي أثناء الحديث الذي جرى في ذلك المجلس، صرّح الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي وهو يلقي الضوء على الوضع الاجتماعي العامّ للمسلمين، أن اليهود والنصارى اتحدوا اليوم ضد المسلمين، رغم خلافاتهم الدينية وصراعاتهم التاريخية، وسُخِّرت لمحاربة المسلمين وسائلُ النصارى والصلاحيات الذهنية لليهود، وتستخدم لإخراج القيم الإسلامية من حياة المسلمين الاجتماعية والفردية،

فيجب في مثل هذا الوضع الخطير أن يكون المسلم على حذر من هذا الخطر، ويحاسب نفسه، ويتأكد من أنه لا يقع فريسة لمكايد اليهود والنصارى وعرضةً لمؤامراتهم دون أن يشعر بها.

ورداً على سؤال وُجِّهَ إليه عن إقامة نظام إسلامي، وتنفيذه في العالم الإسلامي، وكيفيته، قال: هناك طريقان، أحدهما: أن يوصل رجال الدين إلى كرسي الحكم، وثانيهما إيصال الدين والإيمان إلى رجال الحكم، أما الطريق الأول، ففيه أخطار كثيرة، ويُخشَى أن يفضّل رجالُ الحكم تحطيم الكراسي بدلاً من أن يخلوها لرجال الدين، وتتردّى الأمور، وتتدهور الأوضاع، وتصبح أسوأ مما عليه الآن، فضلاً عن أن تتحسّن؛ ولكن المنهج الآخر هو منهج طويل، منهج يتطلّب وقتاً، ويقتضي جهداً، ولكنه ثابت، متين، محكم، ولعله قد يكون لا مناص منه، وينعكس ذلك من منهج المجدّد للألف الثاني[١] وحركته للتجديد، أن يحتفظ رجال الحكم بكراسيهم، ويحتفظوا بهذا الشرف لأنفسهم، وأن رجال الدين يريدون إصلاح الكرسي، ولا يبتغون الكرسي بذاته.

صرّح الشيخ أن لكل عصر تحدّياً، وواجه المشايخ والعلماء والصالحون هذه التحدّيات بهمة عالية، وحكمة بالغة، وأن التحدّي الكبير للعالم الإسلامي في هذا العصر، هو إعادة الثقة إلى الجيل المسلم الجديد ـ الذي يعيش في البيئة الجديدة، وينشأ في جوّ الثقافة المعاصرة ـ بالإسلام كدين كامل يسدُّ حاجات كل عصر.

وإن زعزعة هذه الثقة تؤدي إلى الصراع الفكري بالنسبة لمكانة الإسلام، وقدرته العملية في العالم الإسلامي، وكنتيجة لزعزعة هذه الثقة، لا يسوغ

---

(١) وهو الإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندي، المشهور بمجدِّد الألف الثاني، (يراجع لسيرته ومنهج عمله كتاب المؤلف، الجزء الثالث من سلسلة كتاب «رجال الفكر والدعوة في الإسلام»).

لخرّيجي المدارس العصرية الغربية، أن يعتبروا الإسلام الذي مرّ عليه أربعة عشر قرناً، ديناً له مكانة في الحياة الفردية والاجتماعية، ومساهمة في معالجة القضايا المعقدة الراهنة، ونرى أن رجال هذه الطبقة هم يتولون أزمّة الأمور، ويملكون السلطة والنفوذ، فمنهم من يصرف جُلّ اهتمامه إلى محاربة الإسلام، ومجابهة العلماء والدعاة.

فالعمل المطلوب الذي يحتاج إلى الأرجحية، والأولية، هو أن يُتَوَصّل إلى هذه الطبقة، وتبذل الجهود لإعادة الثقة إليها، ويختار لذلك أسلوب علمي يتطابق مع المستوى الفكري لرجال هذه الطبقة المثقفة، ويعرض الإسلام كمنهج كامل حيّ سديد للحياة، وتشرح قلوبهم له، وتفتح عقولهم به.

وأكد الشيخ على أهمية تنقية الكتب الدراسية، والمنهج التعليمي للطلبة المسلمين، لتحقيق هذا الهدف، وتنقيح الأفكار الإسلامية، والقيم الدينية، ومواد التربية الخلقية، والتعاليم الإسلامية فيها، ليكون الشباب المسلم مع تزوّده بالعلوم العصرية جنديا قوياً وسفيراً مخلصاً أميناً للإسلام، ولكن هذا المجال للعمل لا يزال فارغاً، وقد صرف العاملون المخلصون والعلماء الصالحون انتباههم عنه حتى الآن، وإذا تصدى له المخلصون، فإنه سيؤدّي إلى وجود جيل مُسلم مثقّف يتحلّى بالقيَم والتربية الدينية، ويحمل الغيرة الإسلامية، ثم يجتهد هذا الجيل لتنفيذ الإسلام في حياته الفردية والجماعية، تنفيذاً كاملاً.

وفي مساء ذلك اليوم تحدّث سماحته في اجتماع بعد المغرب، وجّه فيه رسالة خاصة إلى الشباب الذين يقطنون في أوروبا وأمريكا، ويدرسون في جامعاتها ومعاهدها التعليمية، قال فيها: إن الغرب يعرض اليوم على العالم رقيه المادي الهائل، ولكن الحضارة الغربية داست القيم الخلقية والاجتماعية والروحية للإنسانية، وهي تدل دلالة ناصعة على فشلها التام، وتعود إلى الشباب المسلم اليوم مسؤولية خاصة ليصهروا حياتهم الكاملة في البوتقة الإسلامية،

ويقوموا بتربية أنفسهم الروحية والخلقية بطريق يتأثر كل من يلتقي بهم، بأخلاقهم وسلوكهم، ومنهج حياتهم، وإن هذه النقطة تكون بمثابة دعوة قويّة مجلجلة إلى الإسلام، وقال سماحته: إن المسلمين ليسوا بمكلّفين بصياغة حياتهم فحسب صياغة إسلامية، بل يستطيعون أيضاً أن يؤدوا بهذا المنهج للحياة وظيفة دعوة الآخرين إلى دينهم، وفي حياة الصالحين والدعاة المسلمين نماذج صارخة لهذا المنهج.

ونسأل الله التوفيق والسداد، آمين.

* * *

رحلة سمرقند وبُخارى

إن معرفة هذا الكاتب لتاريخ منطقة ماوراء النهر[1]، المنجبة لأعلام التاريخ الإسلامي في العلم والروحانية، الحافلة بالذكريات العطرة التي يفوح شذاها دائماً، والمليئة بالآثار العلمية التي خلّدتها، وتغني المتتبع لآثارها بمرّ العصور والأجيال، والتي لها منة عظيمة؛ وإن اعتراف هذا الكاتب وتقديره لأعلامها الذين لا نظير لهم، وامتنانه لهم، وغيرته عليهم، أبت أن يُحرَمَ من زيارة ذلك الإقليم العامر، رغم أسفاره البعيدة والطويلة إلى أمريكا وأوروبا، والرحلة الأطول التي قام بها وسبق ذكرها في الصفحات السابقة، ذلك الإقليم الذي أنجب أفذاذاً في الحديث كالإمام البخاري، والإمام الترمذي، وفي الفقه كأبي الليث السمرقندي، وشمس الأئمة السرخسي صاحب المبسوط، وأبي الحسن علي بن أبي بكر المرغيناني صاحب الهداية، وأبي يعقوب إسحاق بن ابراهيم الشاشي[2] صاحب أصول الشاشي، والعالم الجليل في علم الكلام أبي منصور الماتريدي من جهة، ومن جهة أخرى أنجب في العلوم العقلية كأبي النصر الفارابي، والشيخ الرئيس أبي علي بن سينا، الذين يفتخر

---

(١) يعتبر نهر جيحون حداً فاصلاً بين الناطقين بالفارسية والأتراك، وإيران وطوران وجميع الدول الواقعة وراء هذا النهر تعرف بما وراء النهر، وما يقع في غرب النهر يعرف بخراسان، عاصمتها خوارزم، ويشتمل ما وراء النهر: سنكيانج، قازقستان، قرغيزيا وتاجكستان، أزبكستان، تركمانستان، أذربيجان؛ ومن أهم المدن في هذه المنطقة: بخارى، سمرقند، فرغانة، مرغينان، نسف، ترمذ، فاراب، شاش، خجند، ساباط، أبيجاب، أشروسنة، فربر، أوزجند.

(٢) تُعرف الشاش الآن بتاشقند.

بهم التاريخ، ويندر وجود أمثالهم، ويعدون عمالقة في فنونهم.

وبالإضافة إلى هؤلاء الأفذاذ في الحديث والفقه، وأعلام الفلسفة والحكمة، أنجب أعلاما في التربية الروحية، وأئمة السلاسل الصوفية، والمجددين للإخلاص والتعلّق مع الله، كالشيخ خواجه بهاء الدين النقشبندي، مؤسس السلسلة العالية النقشبندية، وخواجه عبد الله أحرار من أعلام المشايخ الربّانيين، وفي الجهة الأخرى أنجب الفاتحين المحظوظين من أولي العزم والهمة العالية، ومؤسّسي الإمبراطوريات كظهير الدين بابر، مؤسس السلطنة المغولية، فالإقليم الذي يشتمل على فرغانة، ومرغينان، وترمذ، وفاراب، وخجند، وساباط، وفربر، ومناطق أخرى صانعة للتاريخ، ومُنجبة للأعلام.

وقد هُيِّأت وسائل للسفر إلى المنطقة العامرة، من الله تعالى، وأتيحت له فرصة كانت تلائم مكانة هذه المنطقة، وجديرة بها، فقد قرَّر المركز الإسلامي بأُكسفورد في الدورة السابقة له، أنه سيقيم مركزاً علمياً في جوار المسجد الواقع بقرب قبر الإمام البُخاري كتذكار له، وتخليداً لخدماته في تدوين الحديث، والتعريف بها، حسب اقتضاء العصر الحاضر، يقوم الباحثون فيه، والمقدرون لجهوده، بالبحث والتحقيق، ويعرضون مآثره العلمية، وكماله العلمي ـ الذي ينفرد به في خدمة الدين الحنيف ـ على العالم، ونال هذا المشروع رعاية السلطان حاجي حسن حاكم بُروناي، الدولة الإسلامية الفتيّة الغنيّة بالوسائل المالية التي تفوق بعض الدول الكبرى، واهتمام وزير تعليم بلاده الأستاذ بيهن عبد العزيز، أحد أعضاء المركز الإسلامي، وتعاونه المتواصل.

وحدّد المركز الإسلامي في اجتماعه السَّنوي الذي سبق ذكره (٢٣ـ ٢٤/ أكتوبر)، ووعد هذا الكاتب في تلك الجلسة بحضور هذه المناسبة باعتبارها مفخرة له، وسعادة كبرى في حياته، لكنه شعر بإرهاق بعد إكمال رحلته إلى

تركيا وأوروبا وأمريكا، والحجاز، وتردّد في هذا الأمر بعد انشغاله بالبريد الذي تراكم خلال سفره، وزياراته المحلية لرائي بريلي، وعكوفه على بعض أشغاله.

وصادف في هذه الفترة السفر إلى «أعظم جراه»، استجابة لدعوة الأخ العزيز الشيخ تقي الدين الندوي، لحضور اجتماع في مدرسته، وسافرنا في سيارة متواضعة، وكان الطريق غير مُعبّد كُلّياً، ثم توجهنا إلى مئو حيث نُظِّمت أربعة برامج، ووجدنا هناك سيارة فارهة، لجهود الأخ العزيز الأستاذ سعيد الأعظمي الندوي، واشتركت في اجتماع الهيئة التنفيذية لدار المصنّفين في «أعظم جراه».

ثم توجهنا إلى رائي بريلي، وقطعنا مسافة أكثر من ٢٠٠ كيل بالسيارة، ذهاباً وإياباً، وشعرتُ في «مظفر فور» بإرهاق شديد، وانهيار عصبي، اضطررت إلى استدعاء طبيب، فقام بالفحص، وأخبر أنه نتيجة لانخفاض ضغط الدم، وأوصى بالاستراحة كلّيا، لكن أبت نفسي وغيرتي أن لا أشترك في البرنامج الذي تُجشّم مشاق السفر من أجله، فاشتركت في الاجتماع في المساء وألقيتُ كلمة مسهبة.

كان من المقرّر أن نقوم بالسفر إلى أوزبكستان بعد أيام من هذه الرحلة، ولما كان السفر بالطائرة من لكهنؤ إلى دلهي، ومن دلهي إلى تاشقند، فتردّدت كثيراً ـ نظراً إلى صحتي ـ في القيام بالسفر، وكدت أعتذر عنه، ولكني علمت من دلهي أنّ مرافقي المحب الأستاذ محمد عثمان الحيدرآبادي قد وصل فعلاً من الرياض إلى دلهي لمرافقتي ولتسهيل سفري، وإراحة بالي على نفقته الخاصة، فإن ألغيت السفر، فإن هذه النفقات التي تحمّلها ستذهب سُدى، وكان من المقرّر أيضاً أن يرافقني في السفر العزيز محمد الرابع الحسني الندوي أيضاً، وقد وقع عليه الاختيار في اجتماع المركز الإسلامي، فعزمت على

السفر، وتوكّلت على الله، نظراً إلى أهمية السفر، وللذوق التاريخي والديني الذي ورثته، وتأهّبت للسفر، وأخبرت العزيز نياز أحمد في دلهي، الذي يهتم دائماً بأمور سفري، ويتّخذ الإجراءات لأسفاري المحليّة والدوليّة، ويقيم اتّصالاً بي حيث كنت، وأستعين به في الاتصال بأعضاء أسرتي، والتعرّف على الأحوال، فقام بحجز المقاعد الثلاثة لنا (أنا والأخ محمد عثمان المهندس، والعزيز محمد الرابع الحسني الندوي) في صباح ٢٢/ أكتوبر، على الخطوط الأوزبكية إلى تاشقند، وكان أمر الله قدراً مقدوراً.

في تاشقند:

غادرتُ في ٢٢/ أكتوبر في الساعة الحادية عشرة إلى تاشقند على طائرة أوزبكية، والتقيت في الطائرة فجأة بالأستاذ الدكتور خليق أحمد النظامي، فسُررتُ بهذه المصادفة، ووجدت الشيخ السيد أسعد مدني (رئيس جمعية علماء الهند)، ورفيقه الشيخ سعيد البالنبوري، وأُخبِرتُ أنَّ الرحلة إلى تاشقند ستستغرق ساعتين ونصف، ولكن استغرقت الرحلة في الواقع ثلاث ساعات، فوصلت في الظهر، واستغرقَتْ إجراءات جواز السفر والتأشيرة وقتاً طويلاً، وعلمت في هذا السفر أن الطبيعة الشرقية تسود في هذه المنطقة كلها، وصادفنا الكسل في العمل بدلاً من النشاط والسرعة في إنجاز العمل الذي تعوّدنا عليه في أسفارنا في أوروبا، ونزلنا فندق أوزبكستان في تاشقند، وهو فندق فاخر، ذو خمسة عشر طابقاً، ويبدو من ظاهره شبكةً من الحلقات.

كان يبدو أنّنا سنبيت في هذا الفندق، ولكنّنا أُخبِرنا بعد برهة بالاستعداد للسفر إلى سمرقند، ووصلنا إلى سمرقند بطائرة متَّجهة إلى هناك خلال أربعين دقيقة (بعد المغرب)، ونزل الضيوف من المندوبين عامة في فندق سمرقند، وأقمنا نحن (أنا ورفيقاي: الأستاذ محمد عثمان، والعزيز محمد الرابع

الندوي، والدكتور عبد الله عمر نصيف الأمين العام السابق لرابطة العالم الإسلامي، ونائب رئيس مجلس الشورى حالياً في المملكة العربية السعودية)، في دار الضيافة الحكومية.

انعقدت الجلسة الافتتاحية في ٢٣/ أكتوبر في الساعة العاشرة صباحاً، واستمرت ساعتين، تحدّث فيها حاكم سمرقند والنائب الأول لرئيس الوزراء، والدكتور عبد الله نصيف، وهذا الكاتب، والأستاذ حامد الغابد (الأمين العام لمنظّمة المؤتمر الإسلامي)، والدكتور فرحان النظامي (أمين المركز الإسلامي لجامعة أُكسفورد).

أُلقيت الكلمات ـ كالعادة ـ باللغة الأوزبكية والإنكليزية، أما كلمتي وكلمة الدكتور عبد الله عمر نصيف فكانتا باللغة العربية.

كنت أشعر خلال انعقاد المؤتمر، شعوراً غامراً أنَّ جوَّ المؤتمر لا يليق بمكانة إمام للحديث، بل أمير المؤمنين في حديث رسول الله ﷺ، ومؤلف أصحّ كتاب بعد كتاب الله عزّ وجلّ، وبتذكاره، والذي كان يجب أن يسود في مثل هذه المناسبة على الحاضرين جوٌّ من الحبِّ والاحترام، فأشرتُ في كلمتي إلى ذلك الجانب، وقلت: إنَّ الاحتفال الذي يُعقَد لتخليد ذكرى بطل من الأبطال، تلقى فيه كلمات، وتستخدم فيه لغة يشعر بها المستمعون بالفروسية، والفتوة، والبطولة، وتثور فيهم تلك العواطف، وتنعكس على الجوّ تلك المزايا، وإذا عقد احتفال للتعريف بأديب وشاعر، أو التنويه به، تسود البيئة الأدبية والبلاغية، ويشعر الحاضرون بتلك المزايا، كذلك إذا عُقِدَ احتفال في ذكرى مُصلح أو داعي انقلاب؛ فلكل مناسبة لغة وتعبير، وجوّ يعكس على المستمعين مزايا تلك الشخصية التي تُقدَّم كنموذج.

ولكن مع الأسف أشاهد من البداية، أنَّ الإمام البخاري رحمه الله، يُذكر في هذا المجلس الموقّر، وتُعرَض خدماته، ويُعرَّف بشخصيته، ولكن لا يخيِّم

على الجوّ موضوعه ولا مزاياه، ولم يقدم بحث، ولم تبين حقيقة ترشد إلى منهج للحياة، وتحدِث عاطفةً لقضاء الحياة في ضوء النبوّة والرسالة، والأحاديث النبوية الشريفة، ولذلك أقرأ عليكم الحديث الأول في صحيح البخاري، وإني أعتذر أنه لا يمكن تمهيد أو تقديم أفضل منه لأيّ كتاب، وقد أوضح الإمام البخاري رحمه الله، بإيراده هذا الحديث سبب تأليفه هذا الكتاب، ونيّته، وأرشد طلبةَ العلم إلى المنهج الذي يجب أن يقضوا به الحياة، وما هي النية التي يجب أن يحملوها، ويقصدوها، وذلك الحديث الأول، هو الحديث الآتي:

«إنّما الأعمال بالنيّات، وإنّما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه» (متّفقٌ عليه).

إنَّ هذا الحديث يطالبنا بأن تكون سائر أعمالنا لرضا الله، وأن يكون الحصول على الأجر والثواب بُغيتنا، ودستور حياتنا ومبدأ عملنا.

وفي الختام قرأت الحديث الآتي، وهو الحديث الذي ختم به الإمام البخاري كتابه: «كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان على الميزان، سبحان اللهُ وبحمده، سبحان الله العظيم».

انعقدت أربع جلسات في ٢٤/ أكتوبر من الساعة التاسعة والنصف إلى الساعة الثانية عشرة للمقالات، وترأّس إحدى هذه الجلسات العزيز محمد الرابع الندوي، أما الجلسة التي أَلقيت فيها مقالتي فترأّسها الفاضل الجليل وأستاذ الحديث الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، وكان عنوان مقالي: «الإمام محمد ابن إسماعيل البخاري، وكتابه صحيح البخاري، مكانتهما في تاريخ الإسلام

والدين والعلم والمكتبة الإسلامية العالمية»[1].

ذكرت في المقال الحاجة إلى جمع الحديث وتدوينه، وذكرت دوره في وقاية الدين من التحريف، والأمّة الإسلامية من الانحراف، ومآثره في إقامة البيئة الدينية، والمجتمع الإسلامي السليم، وصيانته، وأَوضحتُ أن التاريخ يشهد أن كل بلد انقطعت صِلَته بالحديث، وهجر الاشتغال والاعتناء به، فُتح فيه باب البدع، وتدفّقت التقاليد المعارضة لروح الشريعة الإسلامية، التي لا يمكن صدُّها إلا بالحديث النبويّ الشريف، ولا يمكن أن يغلق ذلك المنفذ إلا باتّباع السُنَّة، لأنها هي التي تميّز بين المعروف والمنكر، والسنّة والبدعة، وذلك هو الباعث الرئيسي لتصدّي المتغربين ومتّبعي الحضارة الغربية، للحديث والسنَّة، ومحاربتهم واستهدافهم لها، وقطع صلة المسلمين عنها، لأنَّها هي العقبة الرئيسية في طريقهم وفي إنجاز أهدافهم؛ ثم أَلقيت بعض الضوء على مزايا الإمام البخاري وخدماته الجليلة، ومزايا الجامع الصحيح، ومكانته العالية، وقدَّمت بعض التوصيات في هذا الأمر.

وفي الختام لفتُّ الانتباه إلى خطر، وهو أن لا يصبح في مرحلة من المراحل قبر الإمام البخاري ضريحاً مثل الضرائح الأخرى، تنشأ حوله نباتات، مثل قبور الصالحين في الهند، وتبدأ تأدية الطقوس، وتمارس أعمال تتعارض مع السُّنّة وعقيدة التوحيد، والتعاليم الإسلامية وأسوة الصحابة، فنقلت من الجزء الأخير من المقالة حديثين.

«لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، والحديث النبوي الشريف: «لا تجعلوا قبري عيداً».

---

(١) نشر هذا المقال «الإمام محمد بن إسماعيل البخاري، وكتابه صحيح البخاري» بعنوان «الحديث والسنة ودورهما في الصيانة عن التحريف والانحراف» من المجمع العلمي الإسلامي ـ لكهنؤ.

والحمد لله نال المقال اهتماماً بالغاً، وأصغى إليه الحاضرون، وعلمت من استعراض الخطط والمشاريع الإنشائية، أنه ليس في البرنامج إنشاء أي ضريح، أو مكان للاحتفال السَّنَوي، وإنَّما المقصود هو توسعة المسجد، وإنشاء مركز علمي للبحث والتحقيق، وعُرِضت مشاريع وتصميمات لها.

زيارة الآثار:

في ٢٤/ أكتوبر خرجنا لزيارة الآثار والأماكن الأثرية، التي تنسب إلى الأئمة والعلماء وقبورهم لقراءة الفاتحة، وتوجهنا إلى «خرتنك» التي تقع على بعد ١٥/ كم من سمرقند، وبها قبر الإمام البخاري رحمه الله، فقرأت الفاتحة، وعلى بعد خطوات منه يقع مسجد صغير، ووصل العالم المحقق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، والتحق بنا، وعلم سكان المنطقة قدومنا، واجتمعوا في المسجد، وأدَّينا صلاة الظهر في المسجد، وتشرَّفنا بالتحدث إلى المجتمعين، وسعدنا بالدعاء في ذلك المسجد، وحدث ذلك مرتين، وتحدَّث الشيخ عبد الفتاح أبو غدة أيضاً، ودعا.

وكانت هذه القافلة تتكوَّن من العزيز الأستاذ سلمان الحسيني الندوي (أستاذ دار العلوم ندوة العلماء)، والأستاذ ناصر علي (أستاذ الحديث بدار العلوم ندوة العلماء) وآخرون، ولم نكن نعتقد في الهند أنَّ قبر الإمام البخاري يقع في ضواحي سمرقند. فقد كنا نظن أنه في بخارى، وعلمنا بعد قدومنا أن معارضة الحكومة وبعض العلماء ومخاصمتهم للإمام البخاري ـ كما يحدث عادة بالنسبة للصالحين والباحثين والعلماء ـ أدّت إلى هجرة الإمام البخاري من وطنه، فسعدت سمرقند بأن تكون مثواه الأخير.

وفي سمرقند تغدّينا في أحد فنادقها، وعُدنا إلى مقرنا، وبعد العصر توجهنا إلى أماكن أثرية أخرى، فشاهدنا المبنى الفاخر لمدرسة «الغ بك»،

وزرنا من بعيد قبر قثم بن عباس، الذي جاء إلى سمرقند في الجهاد، وهنا تُوفي، ثم زرنا مدرسة خواجة عُبيد الله أحرار ومسجده، وقبره، وهو من كبار مشايخ السلسلة النقشبندية، وحلقة هامة لهذه السلسة الذهبية، وتمثل هنا بيت للشيخ جامي:

جون فقر اندر قبائي شاهي آمد   زتـد بيـر عبيـد اللهـي آمـد[١]

انتهى المؤتمر رسمياً في ٢٤/ أكتوبر، وجاء اليوم الخامس والعشرون من أكتوبر فِترة بدون برنامج، وقلنا في أنفسنا: إنه إذا لم ننتهز فرصة زيارتنا لهذا البلد الذي يعود شرفه ومكانته إلى وجود أماكن كسمرقند، وبخارى ـ وخاصة بخارى ـ، وخلت زيارتنا لهذا البلد من زيارة بخارى، فإنه سيكون خسارة كبيرة، وحرماناً، وسوء أدب، فعقدنا العزم على زيارة بُخارى، وأُخبرنا أنها تبعد من هنا بحوالي ثلاثمئة كيلٍ.

وحصلنا لجهود الأستاذ محمد عثمان، ومساعيه على سيارة تسع عدداً كبيراً من الركاب، إنها كانت أوتوبيس مصغّر، وكان الشيخ عبد الفتاح أبو غدة أيضاً في هذا الركب، وقد ترك مقعده، واختار مقعداً مجاوراً لي لحبه وكرمه، وأفادنا برفقته، وحبه وحديثه العلمي المفيد، فكلنا في شوق كأننا نزور ديار الحبيب، وانطلقت من ألستنا بعض الأبيات العربية في الشوق والهيام، فكان الشيخ يقول لنجله الكريم سلمان: سجِّل هذه الأبيات.

وأحسست بسكينة وطمأنينة في بُخارى، وما وجدت هناك أثراً للتقاليد والعادات الشائعة في مثل هذه الأماكن، ولم أجد شيئاً يتنافى مع الشريعة الإسلامية، وكانت هذه السِّمةُ اللازمة للطّريقة النقشبندية منذ نشأتها.

---

(١) معناه: إذا دخل الفقر (القناعة والزهد) في أبّهة الملوك، كان ذلك نتيجة الجُهد والإيثار الذي امتاز به الشيخ عبيد الله أحرار السّمرقندي في حياته، التي كانت تجمع بين الإمارة والزهد والتقشُّف.

وخرجت من مدرسة خواجة نقشبند، ومسجده، وتوجهت إلى المدينة، ودخلت حَظيرة كبيرة، يقال لها مدرسة مير عرب، ويقال: إن الإمام البخاري رحمه الله كان يدرس هنا الحديث الشريف، وكان مير عرب شيخاً يمنياً من بني شيبان، وكان زاهداً.

وتناولنا الفطور، واسترحنا قليلاً، ثم توجّهنا إلى سمرقند، ووصلنا بعد المغرب، وقضينا الليلة في فندق سمرقند حيث كنا نقيم منذ قدومنا، ثم توجهنا إلى المطار في ٢٦/ أكتوبر صباحاً للسفر إلى تاشقند، وفي تاشقند نزلنا في الفندق الذي كنَّا نقيم فيه خلال وجودنا في تاشقند، وكان موعد السفر للعودة إلى دلهي من تاشقند الساعة الحادية عشرة صباحاً في ٢٧/ أكتوبر، واستغرقت إجراءات السفر في العودة وقتاً طويلاً كما استغرقت لدى القدوم، واضطررت إلى المشي على الأقدام طويلاً رغم ما أعانيه من مرض النقرس.

نظرة على أوزبكستان:

تحرَّرت هذه المنطقة التي تُعرَفُ بأوزبكستان، وتشتمل على تاشقند، وسمرقند، وبخارى، بعد سبعين سنة من الحكم الشيوعي، من نير العبودية لموسكو، ولم يكن ذلك النظام، نظاماً سياسياً وإدارياً خاصاً، وإنما كان يتبع منهجاً خاصاً للحياة، وفلسفة وعقيدة شيوعية، ولم يكن من المقلِّدين لتلك العقيدة والمتمسكين بها، بل كان من الدُّعاة إليها، وكان يؤمن بفرضها جبراً وقهراً على الشعوب الأخرى، ولم يكن يُسمَح في ذلك النظام بالملكية الذاتية، والحرية الذاتية وحُرّية الدين، والاحتفاظ بشخصية ثقافية أو دينية، والعمل بها بحرية، ولا بالتعليم حسب عقيدة خاصة، وإعداد الجيل الجديد، حسب تلك المعتقدات والتصوّرات، ولا بإقامة علاقات وروابط مع العالم الخارجي، ولا مع اتِّباع دين يُؤمن به.

وكان المسلمون في هذه المنطقة مُوزَّعين على سبع ولايات، ولم يسجلوا صفحات خالدة في التاريخ الطويل الذي يمتد إلى قرون، في التمسُّك بالدين والشريعة، والانتساب إليهما فحسب، بل إنهم أنجبوا أفذاذاً عُرفوا بخدمات رائدة، ومزايا قومية تميّزهم عن غيرهم في تاريخ العالم الإسلامي الطويل، وفي الساحة الواسعة للعالم، وقد مرت أسماء بعضهم في الصفحات السابقة.

وقد انكشف هذا الكابوس إلى حدّ كبير، وواجهت الشيوعية انحطاطاً بل تراجعاً، لكن آثارها لا تزال تُلاحظ في أذهان الحكام والطبقات المثقفة، ورواسبها باقية في بعض مجالات الحياة، وذلك أمر طبيعي.

وتوجد في هذه المدن مساجد، وبعض مدارس دينية، يتعلّم فيها عدد محدود من الطلبة، وقد شعرتُ خلال إقامتي أنّ هذه المنطقة تحتاج للعودة إلى ماضيها المجيد إلى وقت، وجرأة، وانقلاب ذهنيّ، ونظام جديد للتعليم، وقوة فكرية، ومجهودات دعوية مُركَّزَة على المُستَوى الشَّعبي، وعلى مستوى المثقَّفين، فإن ساعدت الظروف، وكان التوفيق حليفها، وأتت هذه المجهودات والحركات إلى الوجود، وسُمح لها بالعمل، فلا يُستبعد أن تعود هذه المنطقة ـ التي لها مِنَّةٌ على الإنسانية ـ إلى الحَظيرة الإسلامية، إذا لم تعد إلى تلك القيادة العلمية التي عرفت بها في تاريخها الماضي، وصدق الله العظيم: ﴿ .. يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ .. ﴾ [الروم: ١٩].

* * *

زلزال لاتور

وقع زلزال عنيف في ليلة ٢٩ـ٣٠/ سبتمبر، في الساعة الثالثة والدَّقيقة الخامسة والخمسين في «كلاري» في مديرية لاتور، أدّى إلى تدمير المنطقة بكاملها، واشتهر ذلك في الهند بصورة عامة، وعرف كثير من أهل البصيرة، الذين يربطون الحوادث الكبرى فوق العادة، والمصائب والكوارث الطبيعية في ضوء تعاليم القرآن، والصحف السماوية، بالمظالم والجرائم، التي تحدث في المنطقة على الإنسان بأيدي الإنسانية، وخاصة بعد أن عُرِفَ تحمُّس سكان هذه المنطقة من غير المسلمين في قضية المسجد البابري، واشتراك عدد كبير منهم عمليّاً في هدمه، وكانوا قد جاؤوا للقيام بهذا العمل من لاتور إلى أيودهيا، وأفادت الأنباء والتقارير الموثوق بها أيضاً أن هذه المنطقة المنكوبة كانت تشتمل على سُكّان مسلمين وهندوس، ولكن نسبة الخسائر بينهما كانت متفاوتة تفاوتاً فادحاً، وقد اعترف بذلك عدد من الكُتّاب والمحلّلين في لغات مختلفة، وكان كثير منهم من الكُتّاب المسلمين، ونشرت بعض الصحف تقارير مفصلة عن هذا التفاوت.

إن هذا الكاتب لمعرفته بالتاريخ، ولدراسته الواسعة للنفسية الإنسانية، والعوامل والعواطف الدينية، ولتجربته الطويلة في هذا المجال، لا يثق بسهولة في النتائج المستخرجة من مثل هذه الحوادث، فرغب في أن يتأكد من هذه التقارير من دوائر موثوق بها، ويتحرَّى الأحداث باستخبار من له صلة قريبة بسكان هذه المنطقة بحكم جواره، أو من يتوجَّه خصيصاً إلى المنطقة للحصول على معلومات واقعية.

وكان من التوفيق الإلهي، أنه سنحت له فرصة للسفر إلى بومباي، وأقام هناك أسبوعين، وكعادته أقام بمنزل الأخ الكريم غلام محمد تبني «محمد بهائي»، ليستريح من البرد القارس الذي كانت تتعرض له المنطقة الشمالية في الهند، ولإكمال بعض أعماله العلمية في ١١/ نوفمبر ١٩٩٣م، وبهذه المناسبة وصل إلى بومباي عدد من العلماء ورجال الدين الموثوق بهم، والمحبّين من سكان أورنج آباد، وبونه، والمناطق المجاورة للمنطقة المنكوبة بالزلزال، وجرى الحديث معهم حول هذه الكارثة، ومساحتها ونتائجها، والمضرّرين بها، والذين كان لهم النصيب الأكبر من هذه الكارثة، وكان ذلك حق كل دارس للتاريخ، وهو وسيلة من وسائل الاعتبار، والانتباه، وخوف الله وخشيته، والإنابة إليه، والحذر من عذابه، وحصل لهذا الكاتب تقرير من صديقين معروفين يوثق بهما، ولا مجال للشك في بيانهما، لالتزامها بالصدق، والجدّية، وبُعدهما عن المبالغة والعصبية على أساس الدين أو الطبقة.

ويثبت التقريران أولاً أن الزلزال كان شديداً في غاية العُنف، ولم يبق في مديرية لاتور بصفة خاصة بيت ـ بل جدار بيت ـ سالماً، ولكن مسجداً كان في وسط هذه المنطقة لم يتضرَّر شيئاً، وبقيت نسخ المصحف الموضوعة على الرفوف في المسجد، ولم تسقط، بينما تهدَّمَ معبد هندوكي يتّصل به ـ وكان يرتفع ثلاثين قدماً، وكان مخروطي الهيئة ـ تهدُّماً كاملاً، وانهار على الأرض، وفي نفس الشارع تهدَّم مبنىً للبنك كان مبنياً بالإسمنت المسلّح، تهدُّماً كاملاً، ويقول الراوي: إن هذه القصة لم تحدث في منطقة واحدة، بل حدثت في اثنين وخمسين منطقة، وكانت نسبة الخسائر على المنهج نفسه، وقد انهارت منطقة كلاري المجاورة كُليّاً؛ وتُفيد التقارير الموثوق بها ـ حسب رواية أحد المحقّقين ـ أن عدد الخسائر من الأرواح بلغ أكثر من «٧٧٠٠٠»، أما نسبة المسلمين الذين استشهدوا في هذه الهزات الأرضية، فكانت «١٠٨٠».

* * *

حقيقة مؤلمة

أسبابها وطرق معالجتها

إن الذين يتابعون قضايا الدول الإسلامية من القُرّاء، ويطَّلعون على أوضاعها الراهنة، وسنحت لهم فرصة لزيارتها، ومشاهدة أحوالها، والإقامة في مدنها وأريافها، إقامة طويلة، ويقرؤون الصحف والمجلّات التي تصدر منها، ويعرفون الميول والاتّجاهات التي يحملها قادتها، والمشاريع والمخططات التي تُدبَّر في مجالسها التشريعية، ويحاول تنفيذها المسؤولون عن الإدارة، يمكنهم أن يشعروا بأن التخوّف من «الانتفاضة الإسلامية» قد بلغ حدَّ الحساسية الزائدة، والنظر إلى أشياء دقيقة بالمكبّرة والتجوّس [١] في عدد من الأقطار الإسلامية والعربية، حتى وصل ذلك إلى المخافة من العمل ببعض التعاليم الإسلامية فردياً، والظهور بالمظهر الإسلامي، والتكثير من الاستشهاد بالكتاب والسنة، والإنكار على بعض المنكرات وتقليد الغرب تقليداً أعمى، فضلاً عن المطالبة بتطبيق الأحكام الشرعية، وتمثيل الحياة الإسلامية والطِّراز الإسلامي في بلد يحكمه المسلمون.

وقد بلغ هذا التخوّف والعمل بمقتضاه حدَّ إخضاع نظام التربية ودور التعليم ووسائل النشر والدعاية والصحافة والإذاعة، للتخلُّص والأمان من النفوذ الديني، والغيرة الإسلامية، والمشاعر الدينية، وقد كان هناك مجالٌ مسوّغ للإشفاق من الرّدة الدينية العقائدية ـ لا سمح الله بذلك ـ فضلاً عن الردّة

(١) التجوّس: تسمُّعٌ إلى الصوت الخفيّ، وفزعٌ منه.

الفكرية، والثقافية، التي بدت طلائعها وأماراتها في كثير من البلاد العربية، ويشهد بذلك بعض البيانات والتصريحات للقادة السياسيين، والإجراءات التي اتُّخذت لمواجهة الاتّجاه الإسلامي.

ومن نتائج هذا التخوّف والإشفاق والحَذَر الشديد، من وجود الشعور الديني القوي في الجماهير، والاعتزاز بالدين، والطموح إلى أن تسود الحياة الإسلامية ـ بجميع شُعَبها ومناحيها ـ على البلاد التي تدين بالإسلام من قرون متطاولة، وفي مجتمعات ورثت الإسلام كابراً عن كابر وجاهدت في سبيله، وفتحت بلاد أقاصيه، ومثّلت الحضارة الإسلامية الزاهية، وأنتجت الثقافة الغنيّة الزاهرة، اللتين يندر أو يعدم نظيرهما في تاريخ الحضارة والثقافات العالمية، من نتائج ذلك أن ينشأ في هذه الأقطار والبلاد التي كانت فريسة هذا التناقض البعيد الأثر، العميق الجذور، بين الطبقات الحاكمة أو القائدة الزعيمة، وبين الجماهير والشعوب: صراع فكري وعاطفي، وعدم تحمُّس لتحقيق غاياتها ومشاريعها، فيكون في ذلك تضييع قوى وطاقات، ومواهب وجَدارات، كانت البلاد في غنى عنها، بل كانت في حاجة مُلحّة إلى تعاون وثيق، وثقة متبادَلة لا غنىً عنهما لبلاد تُرِيد التقدّم والاكتفاء الذاتي، والتخلُّص من النفوذ الأجنبي.

ثم تكون النتيجة الحتمية لهذه العملية النقلية، غير الطبيعية والعقلية، أن تفقد هذه الأقطار الحماس الديني والقدرة على المغامرة والمخاطرة بالنفس والنفيس في سبيل تنفيذ أوامر الله في خلقه، وصوغ الحياة والمجتمع وفق تعاليمه، وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام[1].

---

(١) كما قال ربعيّ بن عامر مُمثّل الجيش الإسلامي في العراق، لرُستم قائد الجيوش الإيرانية الأكبر، راجع البداية والنهاية لابن كثير: ٧/ ٢٩ـ٤٠.

وتلك خسارة قوية كبيرة لا تعوَّض بشيء آخر من الوسائل والطاقات والتعاليم، والتقدم في الصناعة والعلم، والفتوة التي فتح العرب المسلمون بها ـ ومن تبعهم من الشعوب المسلمة على أيديهم ـ البلاد القاصية الغنيّة القوّية، التي مرّ على حكمها قرون متطاولة، وأنشأت حضارة راقية، واتُّخذت قدوة ومثالاً، واعتُبرت رمزَ تقدُّم وشرف في العالم القديم، وأنشأت قانوناً انتشر في الآفاق، وعلوماً وآداباً كانت سمة للعقلانية والتقدّم، كالإمبراطورية البيزنطية، والإمبراطورية الساسانية، وشبه القارّة الهندية، الممتازة في العلوم الرياضية، والطبية والفلسفية، وما كان ذلك إلا لوجود الحماس الديني، والحنين إلى الشهادة والشوق إلى الجنة والعمل بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٤].

وإذا ضاعت هذه الثروة ـ لاقدّر الله ـ وهذه الميزة التي امتاز بها المسلمون الأوَّلون، ومن كان على شاكلتهم، في قرون تلَتهم، وهو الإيمان القويّ الحيّ بالله، المتغلغل في أحشائهم، والمسيطر على عقولهم ومشاعرهم، والمستهين في سبيل العمل به بكل خطر وخسارة، ومجازفة ومغامرة، وحُبّ الرسول ﷺ الغالب على كل حب، واتّخاذه قدوة وأسوة، والحرص على نشر تعاليمه، وأسوته في العالم، وإيثار الآخرة على الدنيا، والاستهانة بزخارف الحياة، لم يكن لذلك بديل في ما يمتاز به الغرب من علوم وصناعات، واختراعات واكتشافات، حتى القنبلة الذريّة التي هي آلةٌ للتدمير الكبرى.

وقد يكون من نتائج إغفال تنفيذ الشريعة الإسلامية في بعض البلاد الإسلامية القديمة الأصيلة، وفقد الغيرة على التشريع الإسلامي، زوال الغيرة الدينية في الشعوب الإسلامية القاطنة في بلاد عجمية قاصية، دخل فيها الإسلام قديماً عن طريق دُعاة الإسلام ومجاهدي العرب، وحماسها الديني في سبيل

بقاء الحرية في العمل بالشريعة الإسلامية في حياتهم الفردية والعائلية، كما كان في قضية المحافظة على قانون الأحوال الشخصية الخاص بالمسلمين، حتى نجح في ذلك المسلمون في الهند بفضل جُهدهم، وغيرتهم على الدين والشريعة، رغماً عن إصدار المحكمة حكماً بإلغاء هذا القانون، وإيجاب العمل بقانون مُوحَّد منافٍ لتعاليم الإسلام وتشريعه، وصمود الشعب الهندي والصحافة في المطالبة بتوحيد القانون، وما كان نجاحُ المسلمين في الدفاع عنه عن قضيّتهم، إلا بسبب الغيرة على التشريع الإسلامي، وحماسهم في الدفاع عنه، هذا فضلاً عن تمتُّعهم بالحرية في العمل بأحكام إسلامية شرعية عديدة كأداء صلاة الجمعة في وقتها وفي المساجد في وقت العمل في الإدارات والمكاتب.

إن هذا الوضع غير الطبيعي، الذي يعيش فيه العالم الإسلامي اليوم له أسباب عديدة، أهمها فيما يلي:

١ ـ نظام التعليم الغربي، الذي يزعزع ثقة الشباب المسلم، الذين يدرسون في الفصول الدراسية العالية، ويتوقع أنهم يتسلَّمون زمام الأمور، ويملكون السُّلطة والنفوذ، ويتولَّون إدارة البلاد ويشرفون على المؤسسات والمعاهد التعليمية والتربوية، ويقطع صلتهم عن تاريخهم وحضارتهم، فتضعف صلتهم بالله، وتنحلُّ رابطتهم بالدين، ويسود فيهم الشك والارتياب، ويصابُون بمُركَّب النقص، والبلبلة الفكرية والقلق، وعدم الإجلال للتعاليم الإسلامية.

ولا يمكن أن يضرب مثلٌ أحسن من المثل الذي ضربه باحث غربي في كتابه، لكون هذا النظام في غير مكانه، وكونه ضاراً بل قاتلاً، فيقول:

«تُصوِّر حكايةٌ شرقيةٌ الأخطارَ التي تصدر من مستشاري التعليم الأجانب تصويراً صادقاً، أنه جاء فيضان في عهد، ووقع في هذا الفيضان قِرد وسمك،

وكان القرد ذكيّاً فطناً، فصعد على شجرة وجلس في مكان مصون، ثم ألقى نظرةً إلى الأسفل، فرأى السمك يحاول التخلُّص من الأمواج المتلاطمة، فنزل بإخلاص تام، وعاطفة وُدِّية، وأخرج السمك من الماء، وألقاه على البّر، فكانت النتيجة أن مات السمك[1].

يصدق هذا المثل على الدول الشرقية والإسلامية التي قبلت الأفكار والقِيمَ الغربية، ونفَّذت نظام التعليم الغربي دون فحص وغربلة، واعتبرت التصوّرات والفلسفات الغربية حقيقة ثابتة.

٢ ـ لم تُشن حركة شعبية منظمة مؤثرة، ولم تُبذل جهود مَدروسَةٌ مُخطَّطة جدّية، لإعادة الثقة إلى الطبقة المثقَّفة الواعية بصلاحية الإسلام لقيادة الإنسانية، وتوجيه المجتمعات، ومعالجة المشاكل، وحلّ القضايا المُعَقّدة في كل عصر وفي كل مكان، ولم تشهد الدول الإسلامية محاولات جماعية في هذا الصدد، ما عدا الجهود الفردية التي ظهرت في صورة تأليف الكتب، ولا يستطيع أحد أن ينكر أهمية هذه الكتب، وقيمتها، لكنها كانت قليلة، وصدرت بنطاق محدود، وكانت لا تملأ هذا الفراغ الذي ينبغي أن يُملأ، فكانت النتيجة أن ساد في الطبقة الحاكمة، وعدد كبير من الكتَّاب، وأساتذة الجامعات العصرية، والمسؤولين عن المعاهد التعليمية والإعلام: الشكُّ في النهضة الإسلامية، وصلاحيّة الإسلام للقيادة والزعامة، بل جدارته للبقاء والخلود، إذا لم يتسرّب إليهم اليأس. وحينما تملك هذه الطبقة زمام البلاد، وتتولّى القيادة والزعامة، تَعتَبِرُ العلمانية حلاً لكل مشكلة وعلاجاً لكل داء، وضماناً لاستمرار الحكم، وهذا هو الاتّجاهُ الذي يسود في العالم الإسلامي اليوم.

اعترافاً بالحق، وإظهاراً للواقع، واقتضاءً للدقّة والأمانة التي ينبغي للمؤرخ أن يراعيها، أجد نفسي مُرغَماً على أن أعبِّر عن اعترافي بهذه الحقيقة،

---

(١) Educational Patterno in lontemfory Sowties P.63.

أن من الأسباب والعناصر التي ساعدت على تغيّر هذا الوضع، وشعور رجال الحكم، وواضعي القانون بالتخوُّف من الحركات الدينية، والدُّعاة إلى النهضة الإسلامية، هي تجربتهم بأنَّ كثيراً من الحركات الدينية التي قامت لإصلاح العقائد والأعمال، والقضاء على الخرافات والأباطيل، والدعوة إلى الرجوع إلى الله، والإنابة إليه، والتمسُّك بالشريعة، وتطبيقها في الحياة العامة، سرعان ما تتحوّلُ إلى أحزاب سياسية، وتتدخَّل في الأمور السياسية والإدارية للبلاد، وتُحاوِلُ الحصول على السُّلطة، والوصول إلى مناصب النفوذ، واستلام زمام الأمور في البلاد، فيبدأ صِدام بينها وبين الطبقة الحاكمة، يُتعامَل معها معاملة الأحزاب المعارضة.

وهذه نتيجة لذلك الخطأ الذي ذكرتُه في الجزء الثاني لمسيرة الحياة، بلسان العالم اليمني الشيخ ياسين عبد العزيز، عندما التقيتُ به في مستهلّ زيارتي لليمن، حيث قال لي وهو يعلق على الحركات والجماعات التي تعمل للدين، وتحكيمه في الحياة، وتقوم بالدعوة: إن هناك طريقين:

١ ـ أحدهما أن يصل الإيمان إلى أصحاب الكراسي، فيقبلوا الدعوة، ويتحمَّلُوا مسؤولية نشرها، ويتحمَّسوا لتنفيذها وتطبيقها، ويساعدهم رجال الدين على ذلك، وينصرونهم، ويدعون لهم، ويشجّعونهم على تبنّيهم هذه الفكرة.

٢ ـ الثاني أن يصل أهل الإيمان إلى تلك الكراسي، ويستولوا على مقاليد الحكم.

إنّ الطريق الأول هو طريق ناجح، ويأتي بنتائج إيجابية، والطريق الثاني (أي المحاولة للاستيلاء على كرسي الحكم مباشرة) يُثير المشاكل، ويزرع العداوة، ويحمل على محاربة ليس رجال الدين وحدهم، بل على محاربة الدين نفسه، والتخوّف منه، بل كراهيته والنفور منه، ويأتي هذا الطريق بنتائج معكوسة.

ثم قال: إنني قد فهمت من مطالعة كتاباتك أنّك تُرجِّح الطريق الأول، فقلت له، إني أوافقُ على ذلك، وكان ذلك هو الطريق الذي اختاره عندنا في الهند الإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندي (م ١٠٣٤)، المعروف بمجُدِّد الألف الثّاني، فأحدث انقلاباً في تاريخ الهند الإسلامي، ولا يزال هذا الانقلاب يحدث، من عهد الملك جلال الدين أكبر (م ١٠١٤) الذي كان يريد أن يحوّل الهند إلى طريق البرهمية، والثقافة الهندوكية المعاندة للإسلام علناً، حتى يروى عنه أنه كان لا يستطيع أن يسمع اسم محمد ﷺ، وكانت تثور ثائرته إذا سمع هذا الاسم الكريم، وأحلَّ الخنزير والخمر، وحرم ذبح البقرة، هذا إلى عهد السلطان أورنج زيب عالمكير رحمه الله، (م ١١١٨)، الذي طبّقَ الأحكام الشرعية، وأرسخ قواعد الإسلام في هذه البلاد، وربط مصيرها بالمسلمين والدين، وأزال خطر زوال الإسلام وجلاء المسلمين، وبفضل هذا الانقلاب فإن كُلّ من جلس على العرش كان أحسن سيرة، وأسلم عقيدة من الذي خَلَفَه، وكان ذلك كله يرجع إلى جهود الإمام السرهندي وجهاده.

حتى نجت الهند من خطر الردة العامة التي كانت تُخشى من إجراءات الملك جلال الدين أكبر، وأوامره، ومخطَّطاته وعدائه للإسلام، وثورته على علماء الدين[1].

٣ ـ إني أعترف، إظهاراً للواقع، وشعوراً باحتساب النفس، أنّ بعض الدعوات والحركات عملت بالتسرُّع في هذا الأمر، وصدرت من قادتها أعمال، وتصرفات، وبيانات، وأبدى أتباعُهم، ومُمثّلوهم، والمتحدّثون عنهم تحمُّساً زائداً، فكسبت العداء مع حكومات البلدان الإسلامية، وأصبحت فريقاً مخاصماً لها، وأحدث هذا الموقف في بعض البلدان الإسلامية والعربية خوفاً

(١) للتفصيل عن الشيخ أحمد السرهندي راجع «رجال الفكر والدعوة ج٣» للمؤلف.

من العمل الإسلامي، وذُعراً من كل نشاط باسم الإسلام والدين، وكل مجهود يقصد استثمار الوعي الإسلامي، ودعم الحركة الإسلامية، وحدثت حساسية زائدة به في القادة السياسيين.

وكانت الحركة الإسلامية في مرحلة النموّ والازدهار في العالم الإسلامي، وكان الناس يقبلون عليها، فلجأت هذه الحكومات التي كانت تعاني من هذا الذعر، وتشعر بالخطر على نفسها إلى اتّخاذ وسائل رادعة، كفرض الحظر على هذه الحركات ونشاطاتها، واعتقال أعضائها ومعاقبتهم، وإني أقول شهادة بالحق: إن المسؤولية في هذا التطور ترجع إلى ذعر رجال الحكم، وحساسيتهم الزائدة، أكثر مما تعود إلى الحركات الإسلامية وقادتها، وكان للشكوك والشبهات والمخاوف والظنون دور كبير في تأزم العلاقات بينهما، وعلى أي حال يجب أن تكون هذه التجربة موضع الاعتبار، ويستفاد منها، ويتُجَنَّب من مشاكل لا داعي إليها، ويُحترز من عمل يجلب عداء الحكومات، ويزيد من خصومتها، فتُحوَّل هذه الحكومات إلى معارضة أعمال الإصلاح والدعوة، وتطبيق الشريعة، ويحرم العاملون من حقوق العمل، وحرية الدعوة.

٤ ـ إن الخوف من النَّهضة الإسلامية، والذُّعر من المطالبة بتطبيق الشريعة، ونشر تعاليم الدين، والاحتراز عن انتساب الحكومات المكشوف إلى الإسلام فضلاً عن الاعتزاز به وإظهاره، وإحداث النزعة إلى العلمانية، يرجع أساساً إلى مجهودات أمريكا المباشرة وغير المباشرة، فإنها بعد تفكُّك الاتّحاد السوفييتي، وانهيار الشيوعية، استهدفت الإسلام باعتباره الخَطَرَ الأكبر، والسدَّ المنيع لسيادتها العالمية، واستخدمت جميع وسائل الإعلام، والتدابير السياسية الرادعة لقمع الاتّجاه إليه.

ولم تكتفِ بذلك بل شنَّت حملة شعواء ضارية عالمية النطاق لمكافحة ما أسمته بالأصولية (Iaudeman atibisn)، والثبات في العقيدة، وتحكيم الشريعة

في أمور الدين والدنيا، واشتركت في هذه الحملة على إيعاز من أمريكا أصوات لم تكن يتوقع منها أن تشترك فيها، بل كان يتوقع أن تتصدى لها.

وأخيراً، أودّ أن أخاطب المتنوّرين والتقدُّميين، والمسؤولين عن الحكم والقيادة السياسية في العالم الإسلامي، وأقول لهم: إن نقد الاتّجاه الديني، والتمسك بالعقيدة، والمبادىء، وأصول الشريعة، وإظهار التذمّر منه، وتبنّي دعوات وحركات تنطوي على العلمانية أو تؤدي إليها، يحمل أخطاراً لأنفسهم ولدولهم، فإنهم بهذا الموقف المعاند لرغبات شعوبهم سيفقدون أعظم ثروة وأكبر قوة، ويواجهون مشاكل وأزمات لا داعي إليها.

إن الخسارة الأولى التي يتكبّدونها، هي أنهم سيُحرمون نصر الله وتأييده، الذي وعد الله به من ينصر دينه، ويسعى إلى إعلاء كلمته، يقول الله تعالى: ﴿. . إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

﴿. . . وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

إن دولتهم وبلدهم الذي يحكمونه سيفقد تلك القوة، والثروة الكبرى، التي غيّرت مجرى التاريخ، وبدّلت خريطة العالم، رغمَ القِلّة والضّعف، وضآلة الوسائل المادية. . ففد انطفأ مصباح الدولة البيزنطية، والدولة الساسانية. . . فكم من دولة كانت تعتزّ بحضارة آلاف السنين، وتملك وسائل حربية، وتجربة عسكرية تاريخية، وخبرة فنية، انكسرت أمام هذه القوة الفتيّة، وخضعت لعقيدتها، ودخلت في دينها، وتكيّفت بالجوّ الجديد، وصاغت لغتها وثقافتها صيغة إسلامية، ولم تخرج من سيادة هذا الدين، وحكمه قروناً، ولا تزال دول كثيرة منها تعيش في الظل الإسلامي؛ إنها ثروة الإيمان، والحنين إلى الشهادة، وعاطفة الجهاد، والحميّة الدينية التي كان منبعها ومَعينها الإيمان بوعد الله وتعاليم رسوله، والإيمان بالآخرة، والشّوق إلى الجنة، وقد أشارت إليه هذه الآية:

﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٤].

وستنشأ بفقدان هذه القوة والثروة فجوة عميقة لا تُملأ، وخسارة لا تُعوَّض بأي قوة دفاعية، ولا بأسلحة حربية، ولا بحماية دولة كبرى، وذلك هو الخسران المبين.

إنهم بهذا الاتّجاه غير الديني، واشمئزازهم ونفورهم من الدين ورجاله، وعدم تظاهرهم أمام شعوبهم كحماة للدين، ومتّبعي الشريعة، وأصحاب حميّة دينية وغيرة إسلامية، ـ فضلاً عن سيدنا عمر بن عبد العزيز، والسلطان صلاح الدين الأيوبي، والإمبراطور أورنج زيب عالمكير ـ لا يستطيعون أن يكسبوا حب شعوبهم، وتأييدها لهم، ولا يتمكنون من إحراز تلك القوة الشعبية والحماية القومية، التي حصلت لهؤلاء الحكام الذين مَرَّ ذِكْرَهم، ومن سار على دربهم.. القوة التي تمكنهم من التغلّب على أقسى المشاكل، وأحرج الأزمات: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ [مريم: ٩٦].

وعلى عكس ذلك، إنهم يواجهون مؤامرات في بلدانهم، وتُدَبَّرُ ضدهم مخطّطات للتخلّص منهم، وتُستنزف طاقاتهم وأوقاتهم في إحباط هذه المؤامرات، واتّخاذ تدابير لحماية أنفسهم، ويضطرون إلى اعتقال عدد كبير من المواطنين أو نفيهم، ويعيشون في حالة ذعر وخوف من شعوبهم؛ وفي مثل هذه الحالة لا تستطيع أن تساعدهم دولة حتى أمريكا.

فليفكّر حكام بلداننا الذين وهبهم الله ذهناً وقّاداً، وصلاحية لإدراك الواقع، والذين يملكون زمام الأمور، ويتولّون مسؤولية تكوين ذهن المجتمع، وتوجيه البلاد: ما هو الطريق الأفضل لهم من هذين الطريقين؟ إنهما طريقان

متوازيان: أولهما طريق يُكَوَّن الجيل الجديد على الأسس الإسلامية، وتنفيذ الشريعة، والإيمان، والحميّة الإسلامية، والصدق والإخلاص. والطريق الآخر هو أن يُكَوَّن الجيل الجديد على اللادينية، والعلمانية والتقدُّمية، والتنوُّر الذي لا حدود له ولا شروط؛ ومحاكاة الغرب، وتقليده تقليداً أعمى، والاحتماء بقوة كبرى، والتذيّل بدولة كبرى، والارتماء في حضنها.

هذه هي حقائق، يجبْ أن يدركها قادة هذه الدول، ورجال السلطة والتنفيذ، وحَمَلة العلم والأدب، والبحث والتحقيق، وهي حاجة كبيرة، وواجب مُهمّ لهذا العصر، وأكبر خدمة للبلدان الإسلامية والعربية، ومجال مؤثّر للغاية للدعوة والإصلاح، وإذا أُغفل هذا الجانب المهم، ولم يُكترَث به، فيُخشى أن تصل هذه الدول إلى الردّة الفكرية والذهنية والحضارية، إذا نجت من اللادينية والردّة العَقَدِيّة المطلقة ـ لا قدّر الله ذلك ـ ولا يتوقّع ذلك إلا بفضل الجهود الدعوية، والخدمات الإيمانية التجديدية والمجهودات الإصلاحية الجبّارة، التي يحفل بها تاريخ الإصلاح والدعوة، وتجديد الفكر في هذه الدول التي لا تزال تحتفظ بصلتها بالإسلام، وتتبّع الشريعة بفضل هذه المساعي والمآثر الإصلاحية، ونسأل الله العلي العظيم، ونرجو برحمته الواسعة أن يُوفّقَ هؤلاء الحكام لهذا الوعي، ولفهم هذه الحقائق، فيقدروا نعمة الإسلام، ويهتدوا إلى سبيل الرشد، وسيرة السلف الصالح، ويؤدوا في هذا العهد ذلك الدور الذي أدّاه سَلَفُهم، الدَّور الذي يحتاج إليه العالم اليوم أشدَّ احتياج، وذلك هو الجهاد الأكبر لهذا العصر ﴿... وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وعلى كُلِّ حال، فإنَّ نقل هذه الحقائق والمشاعر إلى قادة البلدان الإسلامية والعربية، ورجال السلطة، وحَمَلَة الأقلام، وهي مسؤولية رجال الدعوة والحميّة الدينية، وما علينا إلا البلاغ.

* * *

الفهـارس الفنيـة

فهرس الأعلام

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

فهرس المنظمات والشعوب والجماعات

فهرس الأماكن والبلدان

(ت)

(ج)

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

* * *